الدكتور عدنان علي رضا النحوي



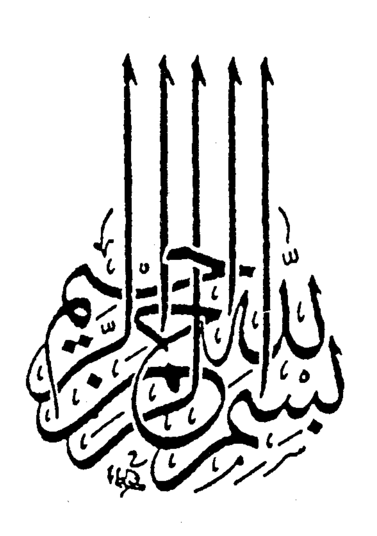
الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

دار النحوي للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م



دار النحوي للنشر والتوزيع
ت : ٤٠١٠٢٥٧ - ص. ب: ١٨٩١ الرياض ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية


بسم الله الرحمن الرحيم

الاهـــــداء

إلى النفوس الحائرة التي تبحث عن اليقين لتعيش فيه، والنفوس المظلمة التي تبحث عن فُرجَة نورٍ لتُبْصِر منها،

إلى القلوب التي فقدت أمنها وأرهقها الخوف، والقلوب التي جفَّ عنها الحنان وانقطع الأمان،

إلى الداعية الذي يبحث عن النهج والخُطة في واقعه، حتى يَبْلُغ الأسماع والقلوب ويُبَلِّغَ رسالة الإسلام،

إلى الإنسان الذي اضطربت ممارسته واختلط عمله، أو الذي اضطربت تصوراته وميزانه،

إلى هؤلاء جميعاً، وإلى كل مسلم أيضاً، أُقدم هذا الكتاب، فعسى أن يجدوا برد اليقين في أفياء الإيمان والتوحيد، وبين آيات الله وأحاديث رسوله الكريم، وعسى أن يجدوا النّور أيضاً، والأمن والأمان، في أعماق نفوسهم، في فطرتهم، حين تستقيم على الحق.

الافتتاح

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة : ٢٥٥)

عن أبي العباس عبدالله بن عباس رضـي الله عنهما قال : كنت خلف النبيّ ﷺ يوماً فقال : ياغـلامُ! إنّي أُعلّمـك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأُمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجَفّت الصحف» .

رواه الترمذي . كتاب (٣٨) . باب (٥٩)
حديث رقم (٢٥١٦) وقال عنه حسن صحيح

المقدمة

لعل أهم موضوع يجابهه الداعية المؤمن هو كيف يدعو الناس إلى الإيمان بالله، كيف يجيب على الأسئلة المتناقضة الكثيرة، كيف يوضح أُسس الإيمان، كيف يوضح معنى الألوهية والربوبية، ويُيَسِّر معاني التوحيد والعبودية لله الواحد الأحد، أمام الناس.

ومن أكثر الأسئلة التي تتردَّد في مجالس الجدل وندوات النقاش هو كيف تثبت وجود الله سبحـانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً. وينبري للإجابة شباب مؤمنون، وعلماء، ومفكرون، ودعاة. وينشط كل فريق لتقديم البراهين، وتتعدد البراهين. فمنهم من يسوق البراهين الفلسفية يقيمها على قواعد الفلسفة التي قد يعرفها نفر ويجهلها نفر. ومنهم من يسوق البراهين العلمية أو يحاول ذلك، ويقيم حجته على علوم الفلك أو الرياضيات أو الجيولوجيا أو الفيزياء. وهذه العلوم أيضاً يدركها نفر من المختصين ويجهلها الكثيرون. وربما لجأ بعضهم إلى المنطق والجدل، أو إلى التاريخ، أو إلى باب من أبواب العلوم يبحث عن الحجة هنا وهناك، تدفعه اللهفة والشوق، وتغذيه حُمَّى الجدل.

في كل باب من هذه الأبواب برهان وحجّة لاشكّ في ذلك. ولكنه برهان يقتصر على طائفة محدودة من الناس، مختصة بهذا العلم أو ذاك، قادرة على إدراك آفاق الفلك أو الهندسة أو الفيزياء أو غيرها. وكذلك فإنّ الإيمان قضية الإنسان حيثما كان، وفي أي مستوى وُجِد فيه، وفي أي عصر، ومن أي جنس، إنها قضية العالم والجاهل، الكيّس والبليد، العربي والأعجمي، الأسود والأبيض، إنها كذلك قضية الإنسان في كل العصور، وهي قضية الرياضـيّ والفيزيائي والفلكي والرجـل العـاديّ والأميّ.

وعنـدما ندرس تاريخنا نحن المسلمين، نجد أن هذه القضية شغلت الفلاسفة وبعض أهل العلم والفكر، وانبثقت مذاهب وطوائف نتيجة الخلاف حول هذا المعنى أو ذاك مما يتعلق بالألوهية. ولقد كان للفلسفة اليونانية الوثنية أثر كبير في نشوء هذه الطوائف والفرق، كما كان للنزاعات السياسية أثر آخر. ثم انقسمت كل فرقة إلى

فرق أخرى، حتى نما عدد الفرق إلى ما يبعث الحيرة والسأم. لا أتحدث عن المذاهب الفقهية وأئمتها، ولكني أتحدث عن الفرق التي انبثقت من معالجة قاعدة من قواعد الإيمان والتوحيد، سواء أكان انطلاقها لأسباب سياسية أمْ لأسباب فكرية. ومن أهم هذه الفرق:

الشيعة، الخوارج، المعتزلة، القدرية، المرجئة، الجبريّة، الصوفية، المشبهة، الأشعريّة، البكرية، الزعفرانيّة، الظاهرية، مع ما انقسمت إليه معظم هذه الفرق إلى فروع، ومن الفروع ما انقسم إلى فروع، ويظل الانقسام ماضياً... ![1]

ولم تقدم هذه الفرق ما يثبّت القلوب على الإيمان، وما يعطي إشراقة اليقين، وبَرْدَ الطمأنينة. ولن يجد المسلم ذلك إلا في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. ذلك لأن الوحي الكريم جاء بالكتاب المبين لأجل هذه القضية أولاً. جاء عرضُها وحياً منزَّلاً من عند الله للناس كافة، للعصور كافة، للأجناس كافة، فكان أوفى عرض وأيسره.

وللقرآن الكريم أسلوبه الربّانيُّ في عرض قضية التوحيد من جميع جوانبها ومع جميع ظلالها. وجاء هذا الأسلوب الربّانيّ المتميّز المعجز ليكون هو أسلوب العصور والأجيال كلِّها حتى قيام الساعة بقواعده وأسسه ونهجه. والداعية المؤمن يختار من هذا الزاد الممتدِّ ما يناسب كل حالة يلقاها في دعوته، وما يناسب هذه الطبيعة والسجية أو تلك، على أساس من نهج يضعه المؤمن، وخُطَّة يتبعها، حيث يقوم النهج والخُطَّة على اساسين: المنهاج الرباني، والواقع الذي يدعو فيه المؤمن. على هذين الأساسين يضع المؤمن نهجه وخُطته لتناسب الحالة التي يدعو فيها. إنها مهمّة المؤمن الداعية، مهمّة الطاقة البشرية.

ولو أردنا أن نضع خُطَّة عامة ننصح بها، على صورة يستطيع المؤمن أن يكيّفَها على ضوء كل حالة بما تحمل من مرونة واتساع، فإننا ننصح بخطوات أربع نوجزها بما يلي:

١ ـ الدراسة والتعارف، والودّ والتآلف.
٢ ـ الدعوة إلى التوحيد والإيمان، دعوة تقوم على الآيات والأحاديث.
٣ ـ الإعداد لدراسة المنهاج الرباني وتدبُّره والتدريب على ممارسته.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ـ تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل ـ دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان.

٤ ـ النهج الممتد، يمضـي به المؤمن حتى يلقى الله على صفاء توحيد، وطيب زاد، وصدق ممارسة، إنها مرحلة التدريب على ممارسة منهاج الله من خلال الإيمان الذي استقرّ والتوحيد الذي أشرق.

ولقد عرضنا شيئاً من ذلك في كتابنا «منهج المؤمن بين العلم والتطبيق». وفي هذه الرسالة يكاد ينحصر البحث في الخطوة الثانية، مرحلة الدعوة إلى الإيمان، حتى يتيسر للداعية أن يضع هو خُطتَه ونهجه بما يناسب الواقع الذي يدعو إليه.

إن هدف الخطوة الأُولى هو تلمُّس أطيب السبل لبلوغ قلب هذا الرجلِ أو ذاك، ولمعرفة أتقى الوسائل وأنقاها لفتح المسالك من سمع وأبصار وأفئدة، ولتجنّب المزالق والفتنة، إن هذه الخطوة تبتدىء بصدق النيّة وأمانة التوجُّه إلى الله وحسن الرجاء به، لتمتدَّ هذه النيّة الصافية في الخطوات كلِّها والعمل كلِّه. وبناء على هذه النيَّة يمضـي الداعية في وضع خُطّته وتفصيل نهجه، لتناسب الخُطّة كلَّ حالة يدعو بها.

والخـطوة الثـانية هي أهم هذه الخطوات كُلِّها، لأنها تهدف إلى عرض التوحيد الخـالص من خلال الآيات والأحاديث، وربطه بالواقع البشري، وإبراز خطورته وأهميته، وإلى تثبيته في القلوب حتى تطمئن به بإذن الله، وإلى إعداد الإنسان المؤمن ليمارس التوحيد في واقعه وحياته من خلال منهاج الله، ويمارس منهاج الله من خلال التصور الإيماني القائم على التوحيد، ممارسة أمينة واعية.

وتمضـي الخطوات بعد ذلك كلها في مدرسة الإسلام للتدريب والإعداد، ويظلّ المؤمن تلميذاً في الدعوة الإسلامية، يتعَلم كل يوم زاداً جديداً ينمو به إيمانه. ولذلك تكـون الخـطوة الثـانية، خطوة الـدعوة إلى التوحيد والإيمان بكل أهدافها الرئيسية والتفصيلية هي أهم خطوة. وهي التي نفهمها من حديث رسول الله ﷺ يوم أعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضـي الله عنه يوم خيبر، ثم قال له: «. . . **فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم**»[1]. وهي التي نفهمها من آيات كثيرة وأحاديث كثيرة ستمر معنا أثناء الدراسة والبحث إن شاء الله.

فالـدعـوة إذن ليست قضية تجميع للنـاس على شعـار يجذب الأبصار ويدغدغ العواطف. إن التجميع المجرَّد هو مهمة الأحزاب التي تصارع لدنيا وتغضب لدنيا

(١) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة (٤٤). باب (٤). حديث (٢٤٠٦/٣٤). عن سهل بن سعد رضـي الله عنه.

وترضى لدنيا. أما الدعوة الإسلامية فهي معاناة البلاغ والبيان، ومعاناة التوضيح والتثبيت لقضية الإيمان والتوحيد، وهي معاناة التعليم والتدريب والإعداد. إنها المعاناة التي عظم أجرها عند الله عندما يهدي الله بها رجلاً واحداً فقط، عظم أجرها حتى جاوز حُمْرَ النعم، وهي الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء حتى لا يكون هنالك شيء أنفس منه أو أعظم.

ومن هذا الحديث الشريف، ومن آيات كريمة تمرُّ معنا، نتعلم أن الذي يهدي هو الله سبحانه وتعالى وحده. فهو يهدي من يشاء ويُضلّ من يشاء. ولكننا نحن نقوم بأمرٍ فرضه الله علينا، يجعل الله فيه باب هداية لمن شاء الله له الهداية. فلا يُغرَّنَّ أحد بعمله حتى يظنّ أن عمله وجهده هو الذي هدى. إننا دعاة فقط، ندعو ونبلغ رسالة الله، والله يهدي من يشاء برحمة منه وعدل وحكمة، سبحانه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وأجر الداعية الصادق قائم عند الله سواءً استجاب له الناس أم لم يستجيبوا، إذا صدق في نيته ونهجه وجهده، وعلى قدر ما علم الله في قلبه من الصدق، وعلى قدر ما بذل في نهج وعلم وخُطة:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

(القصص: ٥٦)

وقضية الإيمان والتوحيد هي قضية الإنسان في الأرض، وهي قضية البشرية، وهي محور التاريخ البشري.

من هذا التصور نعتبر الخطوة الثانية كما ذكرنا أعلاه، هي أهم خطوة في نهج الداعية المؤمن، الداعية الذي يمضي على خُطّة ونهج، ودراسة وتدبرّ، بعيداً عن الارتجال.

وبعد فإنا نوصي القارىء الكريم وهو يدرس في هذا الكتاب أن يلتفت إلى ثلاث نقاط في أسلوب دراسته ووعيه.

١ ـ أن يدرس الكتاب متصلاً ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. فموضوعات الكتاب متصلة مترابطة، تفقد كثيراً من تناسقها إذا أخذت أجزاءً متباعدة.

٢ ـ يزيد من إدراك ما نهدف إليه نزول المسلم إلى ميدان الدعوة، وممارسته عرضَ التوحيد وإبلاغ الناس. ففي الميدان دروس هامة لا يجمعها كتاب.

٣ ـ لابد من أن يكون القارىء الكريم مصاحباً لمنهاج الله قرآناً وسنّة مصاحبة منهجية، مصاحبة عمر وحياة.

ومع ختام هذه الكلمة أبتهل إلى الله سبحانه وتعالى على خشية منه وخشوع له، أن يتقبل عملنا هذا طاهراً نقياً خالصاً لوجهه الكريم، غنياً برحمته وعفوه، قوياً بعونه وهدايته.

فما أصبت فيه من شيء فلا فضل لي فيه فالفضل كله لله وحده، لا إله إلا هو وحده لا شريك له. وما أخطأت فيه فهو مني ومن الشيطان أستغفر الله منه وأتوب إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، والحمد لله رب العالمين.

د. عدنان علي رضا النحوي

الرياض:

٢٠/ ١٠/ ١٤١٠هـ

١٥/ ٥/ ١٩٩٠م

الباب الأول

التوحيد هو الحقيقة الكبرى في الكون
أسسه ومظاهر الانحراف عنه

الفصل الأول

القضيّة الأُولى للإنسان
والحقيقة الكبرى في الكون

١ ـ لا رجعة للدنيا بعد الموت ولا فسحة للتوبة بعده :

الإيمان بالله الواحد الأحد له الأسماء الحسنى كلها، وباليوم الآخر، وبالجنة والنار، والملائكة والكتاب والنبيين، والبعث والحساب، والإيمان بكل ما جاء به محمد ﷺ وبأنه حق من عند الله سبحانه وتعالى، هذا الإيمان يمثل الحقيقة الكبرى في الدعوة الإسلامية، ويمثل الحقيقة الأُولى التي تقوم عليها سائر الحقائق. وهو يمثل كذلك الحقيقة الأُولى والحقيقة الكبرى في حياة الإنسان أينما كان، في جميع العصور والأجيال، وجميع الشعوب والأجناس. ولا يوجد في حياة الإنسان، أيِّ إنسان، حقيقة أخطر من هذه الحقيقة، ولا قضية أعظم منها. فهي الحقيقة الكبرى التي ترسم حياته كلها، ونهجه، وسلوكه، ومواقفه، وهي التي تحدد مصيره. من آمن بها واتبع نورها فقد سار على نهج متميّز، ومن كفر بها واتبع غير سبيل المؤمنين فقد استقر على درب يمضي به إلى مصير آخر، يمضي به إلى النار. هذه حقيقة ولكن من الناس من يتجاهلها.

كلُّ إنسان سيموت. فالموت حق لا مجال للنجاة منه. سنّة ثابتة في الحياة. كل إنسان يولد ثم يموت. حقيقة ثابتة مطلقة ماضية إلى يوم القيامة. لا يخرج عنها أحد إلا بمعجزة من عند الله، كما كان من شأن عيسى عليه السلام، فمثله كمثل آدم عليه السلام خلقه الله من تراب ثم قال له كن فيكون.

وبعد الموت لا مجال لأحد أن يُصححِّ ما أخطأ به في الحياة الدنيا. فلا مجال لكافر أن يعود بعد الموت عن كفره. فالحياة الدنيا هي الفرصة الوحيدة للإنسان ليقرر فيها نهجه ودربه، وليختار سبيل الإيمان أو سبيل الكفر. ومن هنا كانت كذلك قضية الإيمان هي القضية الكبرى للإنسان في الحياة الدنيا، فلا قضية أخطر منها ليقرر موقفه

منها. فهي التي تحدد مصيره الذي لا رجعة عنه، مصيره الذي لا سبيل لتغييره أو تعديله بعد الموت:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأنعام: ٢٧ ـ ٣٠)

مشهد مذهل! مشهد من مشاهد يوم القيامة، ينكشف عنده الحقُّ لكل مكذب ومنكر، فيتمنَّى ولكنّ الأمانيّ لا تدفع العذاب ولا تنقذ من النار.

أما عند الموت فالمشهد كذلك مذهل بين قضاء نافذ، ورجاء مردود وأمانيّ كاذبة:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠١)

٢ ـ التوحيد هو الحق الذي قامت عليه السموات والأرض والذي جاء به النبيون والمرسلون:

وقضية الإيمان هي القضية الأُولى التي جاء النبيون والمرسلون لأجلها، والتي نزل الوحي الكريم لتثبيتها، والتي كانت محور الرسالات كلها، وكانت محور رسالة محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فلقد جاء القرآن الكريم وجاءت السنَّة الشريفة لتعالج هذه القضية الكبرى، ولتوضحها وتبيّنها بياناً كاملاً، بياناً للبشرية كلها، بياناً خاتماً لا بيان بعده. وجاءت سائر القضايا التي يعرضها منهاج الله ـ قرآناً وسنة ـ مرتبطة بهذه الحقيقة الأُولى الكبرى، وتقوم عليها قياماً كاملاً، فلا استقرار لها بدونها، ولا قوة ولا كيان.

إن هذا الإيمان هو الحقُّ الذي تقوم عليه السموات والأرض، وتقوم عليه الحياة كلها، وبغير هذه الحقيقة الكبرى تضطرب الأشياء حتى كأنه لا يعود هناك حقائق، وتختلط حتى لا يعود هناك شيء ثابت.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى خطورة هذه القضية في كل سورة من سوره، وألحّ

عليها إلحاحاً شديداً في كل سورة كذلك، حتى تظل هذه القضية هي أهم قضية في حياة الإنسان على الأرض، وحتى لايَضلَّ عنها إلا من حَقَّتْ عليه كلمة الله بعمله وفسقه. ولنأخذ مثلاً من كتاب الله، آية تعرض امتداد هذه الحقيقة، وتعرض خطورتها وأهميتها:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (الشورى: ١٣)

امتدت هذه الحقيقة هذا الامتداد منذ أول رسول بعثه الله وهو نوح عليه السلام إلى آخر رسول وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين. ومضت الدعوة كلها تقوم على هذه الحقيقة الكبرى ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرَّقوا فيه﴾. ويُفصِّل لنا منهاج الله هذه الدعوة مع جميع الرسل منذ نوح عليه السلام، دعوة واحدة ثابتة:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف: ٥٩)

وكذلك هود إلى قومه عاد:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

(الأعراف: ٦٥)

وتمضي الآيات الكريمة تعرض الدعوة إلى هذه الحقيقة الكبرى مع الرسل: صالح ولوط وشعيب ومع سائر المرسلين، كما تعرضها سورة الأعراف ويتكرر هذه العرض على صور أخرى مماثلة في سور أخرى في كتاب الله لتكشف لنا كلها وحدة ما بعث الله به النبيين، وعظمة ما بعثهم به، ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك...﴾

ونرى من هذا العرض كذلك تفصيل ما تعنيه الآية الكريمة: ﴿... أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه...﴾.

ونرى من هذا العرض كذلك عظمة الدعوة إلى الإيمان وخطورته وتفصيل ما تعنيه الآية الكريمة: ﴿... كبر على المشركين ما تدعوهم إليه...﴾.

إن الدعوة إلى الإيمان لم تكن مجرد كلمات تتردَّد في ألسنة وندوات، ولكنها كانت تمثل نظام حياة، ونهج سلوك، وقواعد تحدد الكلمة والرأي والموقف والسلوك. وقد أدرك مشركو قريش ذلك. وأدركوا أن الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد هي دعوة تُحطمِّ جميع الأعراف والعادات والنظم الجاهلية التي تقوم عليها زعامتهم. فإذا انهارت هذه الأعراف انهارت زعامتهم، وهوت قيادتهم، وتحطَّمت نظمهم. لذلك أدركوا أن هذا الأمر شاقٌّ عليهم، يفرض عليهم أن يُغيِّروا ما بأنْفُسِهم، وأن يغيِّروا نهجهم في الحياة كلهـا. أدركـوا عظمة هذه الدعوة وخطورتها، فقاوموها مقاومة عنيفة، حين استكـبروا وأصروا على شركهم وأعـرافهم، وأصنامهم ونظمهم. ولكن أصبح من جنودها الذين يدعون لها، جنود دعوة التوحيد، أولئك الذين هجروا الشك وآمنوا وغيَّروا ما بأنفسهم وأسلموا لله رب العالمين.

٢ - لا يغفر الله أن يشرك به :

قضيّة التوحيد هذه هي القضية الكبرى والحقيقة الكبرى التي يقوم عليها الكون كله، والتي تقوم عليها حياة الإنسان. والخطأ أو الظلم فيها أشد من أيِّ خطأ آخر، وأدهى من أي ظلم آخـر، والخـروج عنها فسق ما بعده من فسق أبداً. ذلك لأن الخروج عنها خروج عن قاعدة الكون والحياة وظلم لكل ما في الوجود، واستكبار دونه أي استكبار، وضلال في تيه مظلم حتى كأنه لا منفذ منه إلا برحمة من الله. فالمشركون الكافرون هم الفاسقون أشد الناس فسْقاً، وهم الظالمون أشدُّ الناس ظلمًا، وهم الضـالـون والمستكـبرون. فمن انقضت حياته الدنيا وهو على هذا الظلم والفسق والضلال والاستكبار والغرور، من مات مصراً على هذا كله فأنّى يُغفَرُ له، وقد يَغفِر الله لمن يشاء من عباده ما شاء من ذنوبهم ومعاصيهم وآثامهم إذا ماتوا على الإيمان.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾
(النساء : ٤٨)

فهو حقٌّ أن لا يغفر الله أن يُشْرَك به، حقٌّ منسجم مع الحقيقة الكبرى التي تقوم عليهـا الحياة كلها، والتي يقوم عليها الكون كله. ولذلك كانت هذه الحقيقة هي الحقيقة الكبرى، الحقيقة الأخطر، إذ لا مغفرة بعد الموت لمن مات على الشرك. فلابد

من أن تكون هذه القضية هي القضية الأُولى للإنسان في حياته الدنيا. ففي الحياة الدنيا مجال متسع للتوبة والأوبة والإصلاح، وأما إذا انقضى أجل ابن آدم فاتت عليه الفرصة إن لم يستفِدْ منها، وفاتت عليه مغفرة الله إذا مات على شرك أو كفر.

لهذه الأسباب السابقة كلها تتضح لنا خطورة هذه القضية، وتبرز لنا أهميتها. ومن أجل ذلك تتحددً مهمة الإنسان ومسئوليته، ويتضح لنا دوره المكلف به، وهو أن يجعل هذه القضية محور حياته كلها ونشاطه، ومحور سعيه وعمله، وغاية حياته الدنيا، ومحور فكره وتصوره، وعاطفته وشعوره، ونهجه وتخطيطه.

٤ ـ يجب أن لا يطغى على هذه القضية أي قضية أخرى :

تتضح لنا أهمية هذه القضية حتى لا تطغى عليها قضية ثانوية يرفعها الهرج والمرج، والهتافات والرايات، والحناجر المبحوحة، لتكون أعلى من قضية الإيمان والتوحيد.

يجب أن يثبت في أذهاننا وقلوبنا أهمية هذه القضية وخطورة هذه الحقيقة الكبرى حتى لا يطغى عليها شعار مُحَبَّبٌ ونداء مُحَدَّد في مرحلة من مراحل الدعوة، يفرضه واقـع تضعف أمامه النفوس، ثم يطمس هذا النداءُ والهدفُ والشعارُ أهدافاً ثابتةً وقواعد أساسيةً، يطمسها بدلاً من أن يرتبط بها، ويوهنها بدلاً من أن يقوى بها، ثم يطمس الحقيقـة الكبرى والقضية الأُولى، في نفخة الدعاية المضلِّلة وحُمَيَّا الجدل، وزهوة الأمل القريب، حتى تطيش الرؤوس، ولا تصحو النفوس، وترتخي العزائم عن الأمر الجاد. ثم تصطدم الجهود بدلاً من أن تتصل، وتتنافر بدلاً من أن تقترب، وتتبدَّل بدلاً من أن تتوحد، بعد أن تغيب القضية الأُولى والحقيقة الكبرى، وهي أساس اللقاء والاتصال، ومحور الاقتراب والتعاون، ومبعث التوحيد والجمع.

لابد من أن ندرك من اللحظة الأُولى خطورة قضية الإيمان، وندرك أن جميع قضايا الحياة ترتبط بها وتقوم عليها. فإذا غابت هذه القضية فإن سائر القضايا تفقد ماءها ورواءها، وتفقد قوتها وغذاءها، مهما بدت لنا في زخرف وزينة، ومهما حملت من طلاء وأصباغ.

لا نريد أن نعطل هذا الهدف أو ذاك، ولكننا نريد أن تتصل الأهداف كلها،

ويرتبط المسعى كله بهذه الحقيقة الكبرى، لتظلَّ هذه الحقيقة الكبرى، حقيقة التوحيد الخالص لله، والعبوديّة الصادقة له، والإيمان الصافي، لتظل هي أساس الحلول والجهود والسعي، هي أساس الدعوة، وهي أساس تربية الأجيال وبنائها، وهي أساس لقاء المؤمنين، وأساس انطلاقة الأجيال المؤمنة وجهادها في جميع الميادين، هي أساس الدعوة في الأرض.

إذا لم تثبت هذه النظرة الإيمانية في القلوب والعمل والممارسة في مسيرة الدعوة، فإن تناقضات كثيرة ستظهر، ومزالق خطيرة تقوم، لا يُنقذ منها شيء أبداً إلا أن تأخذ هذه القضية، قضية الإيمان كما يعرضها منهاج الله، قضية التوحيد الخالص لله، قضية العبودية الصادقة له، دورها الحقيقيّ كما أخذته في مدرسة النبوة، ومسيرة الدعوة الإسلامية تقودها النبوة والوحي.

٥ ـ تاريخ الأمم كلها يكشف جذور قضية التوحيد في حياة الانسان:

هذه الحقيقة الكبرى ثابتة في حياة الإنسان. وتكاد تكون هي محور تاريخه على الأرض، كما تبينها لنا الآثار المتروكة، والعلوم المكتوبة. إن محور هذه الحقيقة الكبرى هو الإيمان بالله الواحد الأحد، الإيمان بإله واحد لا شريك له، هو الله لا إله إلا هو، مالك كل شيء، وخالق كل شيء، ورب كل شيء، له الأسماء الحسنى كلها. إن هذا التوحيد هو أساس الإيمان ومحور قضيته، وأساس التصور والفكر والعاطفة.

إن الإيمان بإله واحد لهذا الكون كله، ما ظهر منه لنا وما خفي، إن الإيمان بإله واحد لا شريك له هو الله الحي القيوم، إن هذا الإيمان وهذا التوحيد هو محور الرسالات كلها، وأساس دعوة الأنبياء والمرسلين، ومدار الكتب السماوية السابقة كما أنزلت من السماء، وهي كذلك محور منهاج الله ـ قرآناً وسنة ـ.

ولا نكاد ندرس تاريخ أُمة من الأُمم السابقة إلا وجدنا في آثارهم إشارة إلى صورة من صور الإيمان التي كانوا عليها. فقد نجد ما يشير إلى أنهم كانوا يؤمنون بالبعث فيضعون مع الميت زاداً وزينة وأشياء أُخرى يظنون أنها تنفعه حين البعث. نجد مثل ذلك في تاريخ السومريين والكلدانيين والبابليين، ونجدها في شرق الأرض وغربها،

ونجدها في آثار الفراعنة كذلك. وإضافة إلى هذه الآثار نجد في أفكار الشعوب وآدابهم ما يشير من قريب أو بعيد إلى صورة من صور الإيمان، وعلى درجة من درجات الانحراف.

باستعراض تاريخ الإنسان نستطيع أن نخرج بحقيقة واضحة بيّنة، وهي أن الإنسان في جميع عصوره وأجناسه كان يتخذ «إلهاً» يعبده. فالعبادة جزء رئيسي في تاريخ الإنسان وفي فكره. حتى أن الكفر يتخذ صورة منحرفة من العبادة، وتتعدد صور الانحراف في تاريخ الشعوب، من شعب إلى شعب. فقد يتخذ بعض الناس أهواءهم ومصالحهم وشهواتهم رباً يعبدونه، حين تصبح هذه الأهواء والمصالح هي التي ترسم لهم النهج والخطة، وتحدد لهم الكلمة والرأي، وتوجه الموقف والسلوك. ويشير القرآن الكريم إلى هذا النموذج من العبادة المنحرفة في مواقف كثيرة وسور متعددة سنأخذ منها قبسات في فصل آخر، حيث نعرض صوراً ونماذج متعددة أخرى من هذا الانحراف.

٦ ـ خطوات أمام الداعية يجب أن يسلكها :

إن إبراز قضية التوحيد على هذا النحو يمثل الخطوة الأولى في طريق الدعوة ويمثل المرحلة الأولى في نهج وخطة. إن هدف هذه الخطوة هو إيقاظ الناس، وتحريك الوعي والاهتمام لدى من تدعوه، ورفع الغفلة المسيطرة عليه، وإثارة طاقات الإنسان وتحريكها، حتى يقوى على إدراك خطورة القضية وأهميتها ودورها. ومن أهم ما يجب تحريكه وإثارته فيمن تدعوه طاقتان عظيمتان أودعهما الله في نفس الإنسان هما: العاطفة والفكر.

لابد من إثارة طاقات الإنسان حتى تتولد لديه الرغبة بالاستماع إليك، سواء هذا الأسلوب أو ذاك، بالنصيحة الأمينة الصادقة، بالعون الكريم، بالكلمة الطيبة. ولعل الآية الكريمة في سورة النحل تساعدنا على فهم هذه المرحلة وأهميتها:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل : ١٢٥)

إن الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، إن هذا كله يساعد المؤمن الداعية على أن يرسم نهجه التفصيلي على أساس من منهاج الله، وعلى أساس من الواقع الذي يعمل فيه. إنه يستطيع أن يأخذ من الواقع أحداثاً دالة، أو وقائع مثيرة، أو علماً بلغه الإنسان في هذا الميدان أو ذاك، مما يفقه فيه الداعية ويعرفه من تدعوه. ويستطيع الداعية أن يختار ذلك كله من الواقع على ضوء ما تعلمه من منهاج الله.

ومصدر هام ينهل منه الداعية هو سنة الرسول ﷺ في دعوته وبيانه وبلاغه، مما كان يثير به الرسول ﷺ مشاعر الناس وفكرهم، ويجذب انتباههم واستماعهم. ثم تمضي بعد ذلك تجارب الدعاة المؤمنين الصادقين بين خطأ وصواب، نستفيد منها حتى تكون تجارب المؤمنين علماً نامياً وزاداً نافعاً، فلا يظل كل داعية يبدأ من الصفر، حين يقتل تجارب السابقين ويطوي جهود الأولين. نستطيع أن نستفيد من الخطأ كما نستفيد من الصواب، إذا كنا دائماً صادقين واضحين، أُمناء على دين ودعوة وأجيال، لا يقتلنا الغرور، ولا يضلنا الكِبْر.

ومما يساعد الداعية المؤمن على تحقيق هدفه العظيم ما يدخله في نفوس الناس من طمأنينة على أهدافهم المشروعة في حياتهم الدنيا، وعلى ما أحل الله لهم من متعة طيبة ومتاع حسن.

يستطيع المؤمن أن يبيِّن للناس كيف أنَّ الإيمان الصادق بالله والتوحيد الصافي لا يعطل حياة الإنسان الدنيوية ولا يقتلها، ولكن يطهرها ويصوغها، ويهبها روعة الإشراق، وحلاوة المتعة، وجمال السعي، وبهجة الصبر، وصدق الفرحة.

إن الإيمان هو الذي يصوغ للإنسان حقيقة الجمال، حتى لا يكاد يشعر الإنسان بصدق الجمال إلا مع خفقة الإيمان، ونضارة الطهارة.

إن الإيمان هو الذي يصوغ للإنسان حلاوة السعي والكسب، ومتعة البذل والإنفاق، حين يجعل للإنسان هدفاً وغاية يعيش لها، ويؤمن بها، ويسعى لبلوغها.

إن الإيمان هو الذي يصوغ للإنسان رونق الإبداع ولذَّة العطاء، حين يضع المواهب والطاقات والقدرات في مجراها العادل الأمين، حتى لا تتبدَّد فتصبح متعة آنيّة

عابرة. إن الإيمان يصوغ الوسع صياغة تهب الوسع مداه الحق، وامتداده العادل، وتدفقه الأمين.

وبغير هذا الإيمان يفقد الإنسان ذلك كله، فما أشقاه من إنسان حينئذ:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾
(الأعراف: ٣٢، ٣٣)

نعم إنها الزينة الطيبة التي أحلها الله لعباده، ينالون منها في الحياة الدنيا على سنن ماضية، وقد ينال منها غيرهم، أما في الآخرة فهي خالصة للذين آمنوا لا يشاركهم فيها أحد من غير المؤمنين:

﴿..... إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾. (القصص: ٧٦، ٧٧)

وكل قاعدة في هذه الآيات الكريمة يفصلها منهاج الله تفصيلاً لا يدع مجالاً لريبة أو هوى «... لا تفرح...» يفصل منهاج الله فرحة المؤمن مما لا نستطيع إيراده كله هنا، ولكننا نورد مثلاً وقبساً:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨)

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة...﴾. فحتّى يتمتع بما آتاه الله من نعمة في الحياة الدنيا متعة صادقة حقيقية، لابدّ أن يتوافر عنصر النيّة التي تجعل العمل خالصاً لوجه الله، يبتغي به المؤمن الدار الآخرة وسعادتها، ابتغاء حقاً يقينياً، يدفع به إلى الجنة. فيكسب المال حلالاً وينفقه حلالاً، فيجد المتعة الدائمة بالكسب الحلال والإنفاق الحلال. ويتزوج فيجد من المتعة الغامرة ما لا يعرفه أهل الفواحش والآثام. والمؤمن حين يتوجه إلى الله بعمله في الدنيا، سواء في السعي والكسب والإنفاق والبذل والجهاد والزواج وطلب العلم وغير ذلك من الممارسات في الحياة الدنيا، فإنه يكون بتوجهه هذا قد أخذ نصيبه الحق من الدنيا ولم ينسَه. وكيف ينسى نصيبه من الدنيا وقد توجه بعمله كله في الدنيا إلى الله يطلب الدار الآخرة، يطلب الجنة. فهو بذلك لا ينسى

نصيبه من الدنيا، نصيبه الذي أحل الله له ورزقه إياه فلا يعتدي ولا يظلم، وهو بذلك يحسن في عمله، يحسن كما أحسن الله إليه، وبدون هذه النيّة الصادقة والتوجه الصادق لا يستطيع أن يحسن أبداً، ويظل عمله مردوداً عليه خسارة وذلاً:

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان : ٢٣)

وهو بهذه النية الطاهرة لا يبغي الفساد في الأرض. وكيف يبغي الفساد في الأرض والله لا يحبُّ المفسدين؟ وبغير هذه النيَّة يصبح عمله فساداً في الأرض بين الفتنة والكِبْر والعلو.

وأما الكافر الذي لا يبغي الدار الآخرة فقد أهلك نصيبه في الدنيا، ونسيَ أن يرعاه رعاية الإيمان والتقوى، فبطل عمله، وذهب جماله، وفقد حقيقة متعته ولذته، ولم يحسن كما أحسن الله إليه، ولكنه أفسد في الأرض.

ويظل الإيمان الصادق يدفع الإنسان إلى ميادين الحياة الدنيا، على أهداف مشرقة كريمة، ودرب مشرق مستقيم، بين جمال ومتعة وصبر وإنابة، وفوز وإحسان.

عندما يدرك من تدعوه إلى الإيمان أن هذه القضية خطيرة وجادة، وأنها هي القضية الأولى في حياته، وهي القضية الكبرى في حياة كل إنسان، وأنها تستحق التأمل والتدبر والتفكر، عندما يدرك من تدعوه هذه الأمور، تكون قد قطعت شوطاً صادقاً في درب الدعوة، شوطاً أميناً من سبيل الحكمة والموعظة الحسنة.

إنك تكون قد قطعت شوطاً كريمًا في رفع الغفلة عنه، وفي دفعه إلى التفكير الطاهر. إن التأمل والتدبُّر، والتفكير والنظر هو أول خطوات الإيمان. واسمع إلى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبأ : ٤٦)

وكأن هذه الآية الكريمة تجمع مهمة الدعوة كلها في خطوة واحدة هي التفكُّر: **﴿قل إنما أعظكم بواحدة... ثم تتفكروا...﴾** أسلوب ربانيٌّ ليبينّ لنا أهمية التفكير والتدبُّر.

وتتوالى الآيات الكريمة في كتاب الله تحضّ على التفكير، وتثير طاقات الإنسان كلها حتى تتجه إلى آيات الله، إلى قضية التوحيد، القضية الكبرى في حياة الإنسان، تجد ذلك ممتداً في كتاب الله.

وربما شعر الإنسان في مرحلة من مراحلٍ تأمله بشيء مما يتعاظم أن يتكلم به، ويخشى أن يبوح به، فمثل هذا الشعور لا يضر إذا استعاذ بالله وأحسن اللجوء إليه، وصدق في تأمله وتدبّره، فلا يقف مشلولاً عند هذا الشعور.

فعَن أبي هريرة قال: جاء ناسٌ من أصحاب النبيّ ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: «نعم» قال: «ذاك صريح الإيمان» (رواه مسلم)[1]

نعم! إن التفكير المطمئن، والتأمل الصادق هو صريح الإيمان، مهما اعترضته أشياء قد يجدها الإنسان في نفسه، ويتعاظم أن يتكلم بها، فيمضي تأمله وتفكيره على فطرة سليمة حتى تزول منه. وما كان ليتعاظم التكلم بها لولا صريح الإيمان، وسلامة الفطرة. أما إذا فسدت الفطرة فقد فسد معها التفكير.

وكذلك عن علقمة بن عبدالله بن عمر رضي الله عنهم قال: سئل النبيّ ﷺ عن الوسوسة. قال: «تلك محض الإيمان» (رواه مسلم)[2]

فالوسوسة التي يمكن أن نفهمها من الحديث هنا صورة من صور التفكير الذي لا يخرج بصاحبه عن الإيمان، وإلا لو خرجت به عن الإيمان ما كانت محض الإيمان.

من الحديثين الشريفين نجد الدفعة القوية التي يعطيها الرسول ﷺ للإنسان، حتى يفكِّر ويتدبَّر ويتأمل، فإذا فعل ذلك دون أن يلعب به هوى، أو تفسد منه فطرة، أو يغلبه فجور، فهو في أمن وأمان يهديه الله إن شاء، وهو أعلم بخلقه، وأعلم بمن في نفسه هوى ومن نجا من الهوى، وهو عليم بذات الصدور.

إن الأساس الضروري للإنسان، حتى يستقيم به الدرب، ويعتدل بيده الميزان، هو قراره الذاتي بينه وبين نفسه، أن يبحث عن الحقّ لا عن هوى ومصالح. فإذا

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١). باب (٦٠). حديث (٢٠٩/١٣٢).
(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١). باب (٦٠). حديث (٢١١/١٣٣).

استقرَّت نفسه على هذا القرار، واطمأنّ إلى هذا التصميم، ولم يعد يلتفت إلى هوى يخفيه، وشهوات يطويها، ومصالح يسترها، إذا صدق بعزمه وإرادته وقراره لينطلق باحثاً عن الحقِّ لا عن سواه، عندئذ يكون ما يجده في نفسه هو صريح الإيمان، وعندئذ تكون الوسوسة هي محض الإيمان.

وبهذه العزيمة والنيّة ينطلق التفكير ليرفع الغفلة، ويُفتِّح البصيرة، فيهدي الله القلوب برحمته.

هذه هي الخطوة الأُولى أمام الداعية، يحرك في من يدعوه مشاعره وفكره، ويفتح المسالك إلى قلبه، حتى يطمئنَّ إلى أنّ قضية التوحيد هي القضية الأُولى في حياة الإنسان، فلا قضية أخطر منها ولا أكبر منها، وأنها تستحقّ من الجدّ والعزيمة أكثر مما تستحقه أيّ قضية أُخرى في الحياة الدنيا. فلا السعي وراء الوظيفة، ولا الجري إلى الكسب، ولا اللَّهثُ وراء الشهوات، والمناصب، ولا تنافُس الدنيا ومتعها بأحقّ من هذه القضية بالجد والتعب والتأمل.

إن الوسوسة التي عرضها لنا الحديث الشريف، وما يتعاظم في النفس ذكره مما أشار إليه الحديث الشريف الآخر، إن هذا كله لا يجده الكافر المصرّ على كفره، ولا يجده من أراد الباطل واتبع الهوى وأصرَّ على الضلال. وكيف يجد الكافر في نفسه شيئاً يتعاظم أن يذكره؟ إن نفسه لا يوجد فيها إلا الضلال الذي رضي به وأصرَّ عليه فلا يستحي منه. فلا شيء من ذلك يتعاظم عنده التكلم به، ولا وسوسة في نفسه إن استقرّ في كفر وهوى، وانشلّ فكره، وعميت بصيرته، وجمد حسُّه، وغلظ قلبه، فمن أين له أن يستحي من فكرة ضالة، أو وسوسة، أو تساؤل؟!

ولابدَّ من أن نشير هنا بصورة موجزة الآن إلى أن الرسول ﷺ نهى عن التفكير في نقاط محددة واضحة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لايزال الناسُ يتساءلون حتى يقال: هذا، خَلَقَ الله الخلقَ، فمن خَلَقَ الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنتُ بالله» (صحيح مسلم)[1]

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١). باب (٦٠). حديث (١٣٤/٢١٢).

لقد نهى الرسول ﷺ عن هذا السؤال والخوض فيه، لا صَدّاً عن التفكير والتأمل، ولكن نهى عنه لأنه سؤال خاطىء متناقض مع سلامة التفكير، ومعنى التوحيد. إنه سؤال لا تسمح البداهة بسؤاله، ولا يرضاه العقل، ويرفضه العلم، ويتعارض مع حقائق الكون كله. ولذلك جاء أمر الرسول ﷺ يدعو الناسَ، الناسَ كلهم، ممن يجد ذلك، أن يعلن رفضه لهذا التناقض، وأن يخضع لأُسس البداهة وسلامة التفكير وصحة العقل، بأن يقول: آمنت بالله. ذلك لأنَّ الخالق لا يمكن أن يكون مخلوقاً، والمخلوق لا يمكن أن يكون خالقاً. فالخالق هو الله وحده، هو الأوَّل والآخر والظاهر والباطن. وسنفصل في هذه القضية لخطورتها في فصل مقبل إن شاء الله. ولكننا هنا نكتفي بالإشارة، وبما يقتضيه موضوع هذا الفصل.

إن الإيمان والتوحيد يمثِّلان الحقيقة الكبرى في الحياة، والكون كله يقوم عليها. وبغير هذه الحقيقة تتناقض العلوم، وتضطرب الأشياء، ويفقد الموتُ معناه، وتفقد الحياة معناها، ويصبح امتداد الكون الهائل، والليل والنهار، وكل نظام نتعرف عليه في الحياة، هذا كله ينهار ويتصادم إذا أنكرنا هذه الحقيقة الكبرى.

ونحن نسميها الآن وفي كل وقت الحقيقة الكبرى في الكون كله وفي حياة الإنسان. ولكن مهمة هذا البحث كله أن يمضي مع القارىء الكريم من صفحة إلى صفحة، حتى يجد القارىء نفسُه أنها حقّاً هي الحقيقة الكبرى ذلك لمن أراد الله له الهداية.

وكتاب الله وسنة رسوله يعرضان قضية التوحيد على أساس أنها هي الحقيقة الكبرى في الكون. ونؤمن أن منهاج الله وحده كاف لإبراز هذه الحقيقة وعرضها العرض الأوفى. ولكننا نمرّ بعصر ضعفت فيه إمكانات كثيرة، وقامت حواجز سميكة بين عدد من الناس وبين منهاج الله، فأصبحت مهمة هذا البحث هي رفع المؤمنين والناس أجمعين إلى منهاج الله، ليروا هناك الآية الكبرى والحقيقة الكبرى، مجلوّة أعظم جلاء، في قدسية وجلال، وإعجاز غالب، حتى تخشع القلوب وتنيب إلى رب العالمين، إلى الله الذي لا إله إلا هو، رب العرش العظيم.

٧ ـ موجز للتأكيد والتذكير :

ويمكن أن نوجز أهم النقاط التي تجعل قضية الإيمان والتوحيد هي القضية الأُولى في حياة الإنسان، وهي الحقيقة الكبرى بما يلي :

١ ـ إن الموت حق على كل إنسان، ولا مجال لتصحيح الخطأ أو التوبة بعد الموت. فالحياة الدنيا هي الفسحة الوحيدة لكي يُحَدِّدَ الإنسان موقفه واتجاهه، ليؤمن أو يكفر، وليتحمل نتائج الموقف الذي يتخذه بعد ذلك.

٢ ـ إن الإيمان والكفر خطان متناقضان. ولكل منهما سلوك وموقف ومنهج، لا لقاء بينهما. فلابد للإنسان من أن يحدد موقفه من كل اتجاه. ونهج الإيمان نهج يصطدم مع غرور الظالمين، وكيد المعتدين، وضلال المشركين.

٣ ـ كل قضايا الإنسان يمكن أن يَجد الإنسان لها فسحة في الحياة الدنيا، ليصحح أو يقوم، ليكافح ويتابع. وإذا عجز جيل عن تحقيق هدف في الحياة الدنيا، فيمكن لجيل آخر أن يحققه. إلا الإيمان فإنه مسئولية فردية ذاتية لا يغني فيها مولى عن مولى شيئاً، ولا جيل عن جيل، ولا أُمة عن أمة.

٤ ـ إن قضية الإيمان والتوحيد هي القضية الممتدة في تاريخ الإنسان، في تاريخ البشرية. فهي القضية التي جاء من أجلها جميع النبيين والمرسلين. وهي القضية التي تبرزها الآثار التاريخيّة في جميع نواحي الكرة الأرضية في مختلف العصور، تبرزها أو تبرز بعض خصائصها، أو تبرز ما أصابها من انحراف. وتظل العبادة مظهراً ممتداً في تاريخ البشرية وفي جميع عصورها.

٥ ـ ولما كان للإيمان والتوحيد نهج متميز خاص في الحياة لا يلتقي مع منهج الكفر والشرك، ولما كانت قضية الإيمان قضية ممتدة في حياة البشرية، ولما كانت الحياة الدنيا هي الفسحة الوحيدة للإنسان ليقرر نهجه وموقفه، لهذا كله كان الخطأ في القضية لا يعدله أيُّ خطأ آخر، والظلم فيها هو أشدّ من أي ظلم آخر، والخروج عن الإيمان فسقٌ ما بعده فسق أبداً. فالخروج عنها خروج عن نظام الكون. ولهذا أكد الله سبحانه وتعالى القاعدة الإيمانية الكبيرة :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾
(النساء : ٤٨)

فمن مات مشركاً كافراً لا يجد فرصة لأوبة أو توبة، ولا مجال لمغفرة ولا لرحمة.
﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ (المؤمنون : ٩٩ ـ ١٠٤)

٦ ـ إن قضية الإيمان والتوحيد تربط نظام الكون كله بها، ليقوم الكون كله على أساسها. إنها تربط الولادة والنشأة والنمو والموت بها، وتربط حركة الشمس والقمر والكواكب كلها بها، وتربط النبات والحيوان، والريح والأمطار، وتقرر في الوقت ذاته أن كل شيء خلقه الله بقدر منه سبحانه وتعالى، يقرّره هو وحده لا إله إلا هو. وأنها تربط مصير الكون كله، وتقرر أن الله جعل أجلاً مسمى حين تقوم الساعة، ويكون البعث والحساب والجنة والنار. إذن ارتبط الكون كله ونظامه وماضيه وحاضره ومستقبله بقضية الإيمان والتوحيد.

فكيف يحق لعاقل أن يتجاوز هذه القضية الكبرى في الكون، فلا يدرسها ولا يتدبرها؟ كيف يحق لإنسان يحمل أدنى خصائص الإنسانية أن يمرَّ بها فلا يحدد موقفه منها؟! إن قضية الإيمان والتوحيد معروضة: في فطرة الإنسان، في تاريخه، في السموات والأرض وما بينهما، في خلق الإنسان، في رسالة الأنبياء والمرسلين. إنها قضية معروضة في الكون عرضاً كاملاً مستوفى. فكيف يتجاهلها إنسان عاقل:
﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.
(الكهف : ٢٩)

٧ ـ إن قضية الإيمان والتوحيد، على الأُسس السابقة، لا تعرض أمراً هيناً بسيطاً، كلا! إنها تعرض قضية الحياة والموت، البعث، القيامة، الحساب، الجنة، النّار. ولو قارن أيّ إنسان عاقل هذه القضية وعناصرها بأي قضية أُخرى تمرُّ به في حياته، لأدرك

بسهولة ويسر أن هذه القضية، قضية الإيمان والتوحيد هي أخطر قضية وأعظم قضية وأكبر قضيّة في حياته خاصة وفي حياة البشرية كلها عامة.

أما أُسلوب الداعية في بيانه وبلاغه، في سعيه وعرضه، في سلوكه وموقفه، وهو يدعو الناس إلى ذلك، فيمكن أن نوجزه بالنقاط التالية:

١ ـ إبراز قضية الإيمان والتوحيد على أساس أنها القضية الأُولى للإنسان، والحقيقة الكبرى في الكون، لإيقاظ الوعي والاهتمام، وإزاحة الاستهتار والارتجال.

٢ ـ تحريك طاقات الإنسان الذي تدعوه، تحريك طاقاته الفكريّة والعاطفية حتى تتولد الرغبة بالاستماع، وينشأ الاهتمام بالبحث والتفكر والتدبّر.

٣ ـ إن هذا هو من أهم أهداف الحكمة والموعظة الحسنة التي أشارت إليها الآية الكريمة (١٢٥) من سورة النحل. ويبلغ الداعية ذلك بالكلمة والسلوك والموقف.

٤ ـ يستطيع المؤمن أن يأخذ زاده لتحقيق الأهداف السابقة من:

أ ـ منهاج الله قرآناً وسنة.

ب ـ سيرة الرسول محمد ﷺ.

جـ ـ الواقع الذي يعيش فيه، والأحداث التي تمر.

د ـ آيات الله في الكون.

هـ ـ تاريخ الإنسان.

و ـ تجاربه السابقة، وتجارب الدعاة السابقين، بعد ردّها إلى منهاج الله.

٥ ـ إدخال الطمأنينة إلى قلوب الناس الذين تدعوهم بتوضيح أهمية الإيمان والتوحيد، في رعاية ما أحل الله للناس من مصالح وأرزاق في الحياة الدنيا، حتى تقوم حياة الناس كلهم دون عدوان أو ظلم أو استغلال أو فساد.

٦ ـ الحضّ على التأمل والتدبّر والتفكير، وبيان أهمية ذلك في ميزان الإيمان والتوحيد. وبيان أهمية الفطرة السليمة في سلامة التفكير، وأهمية العمل الصالح في سلامة الفطرة.

٧ ـ الاستفادة من جميع ما تقدم في تهيئة نفسية من تدعوه إلى أن يحبّ الحقَّ، ويبحث عن الحقِّ، متجرّداً من شهواته وأهوائه.

٨ ـ لتصل بذلك مع من تدعوه إلى أن يؤمن أولاً ويقتنع بخطورة قضية الإيمان والتوحيد، وضرورة التفكير بها، لأنها هي القضية الأولى في حياته، والحقيقة الكبرى في الكون.

وبذلك تكون قد قطعت شوطاً هاماً في طريق الدعوة والبيان والبلاغ.

ومما يجب أن نشير إليه هنا ونؤكده هو أن الدعوة والإقناع ليسا كلمات تلقى ثم يدير الداعية ظهره. إنها كلمات وسلوك وموقف، وإنهما رعاية ومتابعة، وإنهما معاناة وجهد وجهاد. فليتزوّد الداعية لذلك بأطيب زاد.

وقد يبلغ الداعية الصادق بسلوكه وموقفه مالا يبلغه بالمحاضرات الكثيرة العديدة.

الفصل الثاني
الانحراف عن التوحيد

١ ـ أهمية دراسة مظاهر الانحراف عن التوحيد :

تحدثنا في الفصل السابق عن التوحيد، وبيَّنَّا أنه يمثل القضية الأُولى في حياة الإنسان. وذلك حتى يتجه الداعية إلى إبراز القضية وأهميتها وخطورتها، ويرفع بذلك الغفلة عن القلوب، ويشدَّ المشاعر والعقول إلى هذه الخطورة والأهمية. إن واقعنا اليوم يقدم نماذج شتى من أُولئك الذين غلبتهم الغفلة، فلا يدركون خطورة استهتارهم وتفلّتهم من نهج الإيمان، حتى إذا امتد العمر ببعضهم عكف مَنْ هداه الله على العبادة والقرآن في شيخوخة منهكة، ومات آخرون على حالة الله أعلم بها.

إننا نستطيع أن نتلمس في واقعنا اليوم أمثلة عديدة من نماذج شتى من بني الإنسان، لم يدركوا خُطورة قضية التوحيد، ولا أهمية التفكير بها، ولا ضرورة النهوض بجدًّ لها. ولكن هذه القضية، وهي تراخي الناس عن قضية التوحيد، لا تمثل العقبة الوحيدة أمام الداعية المؤمن. فهناك عقبة أُخرى لا تقل عن الغفلة والتراخي أهمية. ولكنا قد نضعها في المرحلة الثانية من نهج الدعوة والداعية، بعد معالجة قضية الغفلة والتراخي والاستهتار.

هذه القضية الثانية هي ما يصادفه الداعية من رجل لو سألته: هل أنت مسلم، مؤمن، موحِّد، أو أيِّ سؤال في هذا الميدان، لأجابك دون تردد: نعم! وحين تنظر أنت نفسك في عمله تجده يخرج عن نهج الإيمان، ويصطدم بقواعد الإسلام، ثمَّ يقول هذه أُمور غير مهمة، المهم ما هو في القلب فحسب، ويكاد هو نفسه لا يدري ماذا في قلبه مهما ادعى، ولا أنت تدري، ولا أحد من الناس يدري، ولكنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده يدري ما في الصدور، وهو وحده الذي يحاسب عليها. وأما نحن البشر فلنا قواعد الإسلام الظاهرة البيّنة في الممارسة والتطبيق. وكذلك قد تجد نموذجاً يقول عن نفسه إنه مؤمن بالله الواحد، ولكنه مع ذلك يريد أن يسأل الله سبحانه وتعالى عما يفعل، ويريد أن يُفيض باقتراحاته لتعديل نظام الحياة والكون،

ويريد أن يظلَّ يسأل: لماذا فعل الله ذلك، ولماذا خلق الله هذا، ولماذا أحلّ الله هذا وحرّم هذا. . . ؟! أسئلة لا تخرج من طبيعة تبحث عن حق، أو تخضع لحق، ولكنها أسئلة استكبار واستعلاء، وكِبر ضالٍّ مضلٍّ، أسئلة نفوس فُتِنَتْ، وقلوب مرضتْ، وهوى غالب.

إن هذه التصوّرات تبرز لنا لوناً من ألوان التناقض، لوناً من التناقض الذي يفرز صوراً شتى للآلهة التي يخلع عليها الإنسان ما يشاء من صفات، وينزع منها ما يشاء من صفات. إن هذه الصور المتعدِّدة للآلهة تخرج من هوى منحرف، وفطرة اضطربت، وطبيعة غير سوية، حتى لم يعد في أذهان بعض الناس من الألوهية إلا الاسم.

عوامل كثيرة قد تساهم في هذا الانحراف عن التوحيد الحق. ولكننا يجب أن نبادر هنا إلى الإقرار بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان في هذا الكون، وهيّأ بعلمه وقدرته الأسباب كلها التي تجعل الإنسان مسئولاً عن انحرافه عن التوحيد مسئولية يحاسبه الله عليها. نبادر هنا إلى إقرار هذه الحقيقة بإيجاز عسى أن نتناولها بصورة أوسع في فصول مقبلة.

فإذا كانت الغفلة والتراخي، على حسب ما عرضنا، وكذلك الاستكبار حسب ما أشرنا إليه، وإذا كنا نلمس هذه الظواهر في عدد من عامة الناس، وفي حوار يدور هنا وهناك، فإن هذا كله أيضاً تلمسه في أجواء المتعلمين ورجال القلم وميادين الأدب والفكر. لقد امتدّ الاضطراب الذي نعرضه إلى جوانب كثيرة من حياتنا، وإلى ميادين متعددة، كنا نظنّ أنها أكثر تحصيناً. قد نُفاجَأُ عندما نجد شاعراً أديباً متمكناً من لغته، قوياً في ثقافته، مبدعاً في فنِّه، ينال شهرة إعلامية واسعة، أو يحتلُ منصباً أدبياً كبيراً، يقول في أكثر من قصيدة أو بيت ما ينمّ عن عاطفة إسلامية، ثم يقع في سقطات إيمانية أو هوَّة فكرية، تكشف عن شدة التناقض في التصور والفكر. فشوقي مثلاً يقول ثلاث قصائد كبيرة في مدح الرسول ﷺ، ويقدّم معاني كريمة وجميلة، ثم إذا هو يسفُّ في قصائد أُخرى، فيمدح الخمرة أو السفور أو العصبية الجاهلية، أو غير ذلك مما يصطدم اصطداماً مباشراً مع قواعد الإيمان. امتدّ التناقض إلى الأدب،

وزاد امتداده، حتى أصبح من النادر أن تجد النهج الملتزم الممتد. فامتدّ إلى العلم حتى أصبح العلم التقني يقدم أحياناً ظلالاً من التصوّر المضطرب، يستغله أهل الفتنة في إفساد الناس.

وإذا كان هذا الاضطراب والتناقض قد بدأ قليلاً ثم امتدَّ واتسع، فقد كانت الغفلة الأولى، أو السقطة الأولى، شرارة ألهبت ناراً. ولما قبل الناس هذا التناقض في أوله، اعتادوه حتى قَبِلَهُ الرأي العام، ولم يعد يرد في قائمة المنكرات. فأصبح هذا الخطأ أو ذاك لا يثير غيرة الناس أو غيرة العاملين. ولو اعترض رجل أو نصح داعيةٌ لعُدَّ ذلك تزَمُّتاً وضيقاً.

أنا لا أتحدث هنا عن سقطات يمكن أن تكون من اللمم، لا! أنا أتحدث عن تناقض في التصور الإيماني الذي ينكشف أثناء حوار ونقاش، ثم ينعكس على الأدب والفكر، ثم على السلوك. أتحدث عن أُمور تمثل نهجاً ممتداً يصادم التصّور الإيماني، على النحو الذي عرضناه، أو على نحو يزداد وضوحاً معنا كلما تقدمنا في هذا البحث، نهجاً يصادم نصوصاً من القرآن والسنّة.

ولذلك لا تقف مسئولية الداعية في علاج الخطأ الواحد والوقوف عنده، وإقامة الدنيا على جزئية واحدة يقف عندها. إن المسئولية تمتد من معالجة هذا الخطأ أو ذاك، إلى معالجة التصور الخاطىء، والنهج المضطرب، والفكر المتصادم. ومعالجة النهج الخاطىء يحتاج إلى نهج سليم وخُطة واعية، ومعالجة التصوّر الخاطىء يحتاج إلى تصور متكامل متناسق سليم. ولو أردنا أن نعالج كلَّ خطأ بصورة منفردة معزولة فحسب، دون وضع نهج متكامل، لأعيانا الأمر، وقد لا نبلغ الغاية. ولو أردنا أن نعدد القضايا الجزئية لأعيانا الأمر، ولوجدنا أمامنا قائمة طويلة جداً. . . . !

٢ ـ صور شتى من الانحراف يعرضها كتاب الله :

وإذا كانت الغفلة والاستكبار، كما عرضنا سابقاً، صورتين من صور الانحراف عن التوحيد، فإن هناك صوراً أُخرى تمثل غفلة أشدَّ، واستكباراً أعتى، وانحرافاً أظلم وأشقى. إنها صور تقود إلى الشرك والكفر الصريح. ولقد عَرَض منهاج الله

صور هذا الانحراف الخطير في التوحيد عرضاً مفصَّلاً، عرضاً ربانياً معجزاً، لابد من الرجوع إليه هناك في منهاج الله لنأخذه على تكامله وتناسقه. ولكننا هنا نحاول جهدنا أن نعدِّد من صور الانحراف ما نستطيعه آخذين قبساتٍ من منهاج الله.

أولاً ـ الهـوى :

فمن الناس من يغلبه هواه، هواه في مصلحة أو شهوة أو مال أو غير ذلك، ثم ينمو الهوى حتى يرسم هو السلوكَ والنهجَ، وينمو الهوى حتى يتخذه صاحبه إلهاً يعبده من دون الله، يعبده باتباعه وطاعته والخضوع له مصادماً بذلك التوحيد الخالص لله :

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾. (الفرقان : ٤٣)

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية : ٢٣)

فعندما يصبح الهوى هو الإله فقد ثبت الضلال. فإذا أصر الإنسان على ذلك واتخذ الهوى إلهاً، فقد استحق بعمله عقاب الله، فيضله الله على علم، ويختم على قلبه وسمعه، ويجعل على بصره غشاوة، جزاءً عادلاً حقّاً.

ثانياً ـ أندادٌ من دون الله :

وقد يتخذ بعض الناس إلهاً من البشر يعبده من دون الله. فقد يتخذ قريباً أو زعيماً أو عالماً، فيزين لهم الشيطان عبادة هؤلاء حتى يتبعوهم، فيحلوا لهم ويحرّموا ويضعوا الشرع المخالف لشرع الله، فيقبلوه منهم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾. (البقرة : ١٦٥ ـ ١٦٧)

تصوير جلـيٌّ معجز لحال هؤلاء الذين جعلوا من الناس آلهة، فَأحبُّوهُمْ كـحُبِّ الله. تصوير لحالهم يوم القيامة، يوم ينكشف عجز هؤلاء وهوانهم، ويظهر الحق،

ويظهر أن القوة لله جميعاً. تصوير ترتعد فرائص الإنسان من هوله، بعد أن انقطع الرجاء، وسدّت منافذه: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾.

وكذلك صورة أخرى في سورة التوبة:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة : ٣١)

فقد اتخذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم آلهة من دون الله، واتخذ النصارى المسيح بن مريم إلهاً من دون الله، فعبدوهم حتى صار الأحبار والرهبان يضعون التشريع على غير ما أنزل الله، فاتبعهم الناس.

حكى الطبريُّ أن عديّ بن حاتم قال: جئت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب ذهب، فقال: «ياعديّ اطرح هذا الصليب من عنقك» فسمعته يقرأ: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله...﴾، فقلتُ: «يارسول الله! وكيف ولم نعبدهم؟» فقال: «أليس تستحلُّون ما أحلُّوا وتحرِّمون ما حَرَّموا؟» قلت: «نعم». قال: «فذاك»[1].

ويؤكد سبحانه وتعالى ضلالة هذا الانحراف:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾. (الأعراف : ١٩٤)

ثالثاً ـ أصنام وأوثان من الحجارة وغيرها :

ويشتد الانحراف، ويشتد هبوط الإنسان بما كسبت يداه، حتى يعبد أصناماً وأوثاناً يقيمها من الحجارة أو المعادن أو الخشب أو غيرها من المواد. فلنستمع إلى إبراهيم عليه السلام يخاطب قومه:

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنبياء : ٥٢ ـ ٥٤)

لقد صنع العرب بعض آلهتهم في الجاهلية من التمر ومن الحجارة، وهم يرونها أنها لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع:

(١) تفسير ابن عطية ج (٦)، (ص: ٤٦٨). وجاء فيه أن المحقق قال عن الحديث أخرجه ابن سعد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن المنذر وابن حاتم، والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (يونس : ١٨)

إن هذا الانحراف نفسه دليل قوي على أن العبادة في فطرة الإنسان، في نفسه، في طبيعته. ويمضي الإنسان في التاريخ وتمضي معه هذه الطبيعة، حتى عندما تغلبه شهوة، فيضل عن التوحيد الحق، يظل يبحث عن شيء يعبده، عن إله يخضع له في مظاهر العبادة المختلفة، فيقيم تماثيل من حجارة أو معادن أو خشب أو تمر، أو يعبد بشراً، أو حيوانات. إن الإنسان نفسه يهبط في فكره وحسِّه وعاطفته عندما يغلق نفسه على هذه الأشياء ليعبدها. وما كان هبوطه هذا إلا بما كسبت يداه جزاءً عادلاً حكيمًا. وترى في معابد الهند نماذج عديدة من هذا الانحراف، وتماثيل من حجارة وغيرها من المواد وترى تقديس البقر، وترى تماثيل للقرود يعبدونها، وترى التماثيل العارية في أوضاع جنسية هابطة، وترى مالا يخطر لك ببال. وترى الإنسان المسحوق بين العري والجوع، يهوي على أعتاب هذه الأصنام. وترى المجرمين في الأرض يغذّون ذلك كله ويحمونه.

ولنتدبّر قبسات أُخرى من كتاب الله تكشف بعض النماذج من انحرافات الجاهلية.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ (النجم : ١٩ ـ ٢٣)

وتكشف لنا كتب التفسير أن هذه الأسماء كانت لرجالٍ ماتوا فعكف الناس على قبورهم فقدسوهم. وهي أسماء حجارة أو بيوت أو شجر على اختلاف الأقوال. هذه صور يعرضها لنا القرآن الكريم وحياً يتنزَّل من عند الله قبل أربعة عشر قرناً. وإننا لنجد مثل هذا الانحراف في الآثار التاريخية التي تكشف عنها الدراسات العلميّة والحفريات في مختلف بقاع الأرض، وفي أزمنة قديمة جداً، وفي أزمنة متأخرة.

إننا نجد في أرض مصر، وفي الأهرامات، نماذج مختلفة من الانحراف عن التوحيد، ولكننا نجد دائمًا معنى من معاني العبادة وصورة من صورها.

وفي تاريخ اليونان أنماط شتى وآلهة شتَّى ابتدعوها في حياتهم. فقد أقاموا للحُبِّ آلهة وللجمال آلهة، وكذلك للحرب، إلى غير ذلك من التصورات المضطربة. كانت الآلهة في تصوراتهم تتقاتل، وتتزاوج، وامتدت خرافاتهم حتى ملأت الفكر والفلسفة والأدب.

ولكننا مع هذا كله نلمس الرغبة الملحَّة في العبادة، والبحث الدائم عن شيء فقدوه، فيبحثون عنه في المدينة الفاضلة لأفلاطون (٤٢٩ ـ ٣٤٧ ق. م.) أو في الجمال المطلق عنده، أو في غير ذلك من الأفكار عند الكثيرين من الفلاسفة والأدباء.

رابعاً ـ عبادة رجل ذي سلطان:

قد يشتدُّ الكبر في نفوس بعض الناس، ويملكهم الغرور بما كسبته أيديهم من فساد وشر، حتى يؤلهوا أنفسهم، ويطلبوا من الناس أن يعبدوهم على صورة من صور العبادة. ويقع ذلك حين يسود الناس جهل وآثام وأهواء تعصف بهم، فتهبط نفوسهم وطاقاتهم حتى يحكمهم جبّار، يستخفُّهم فيطيعوه فيشرِّع غير شرع الله، ويحل لهم غير ما أحل الله. وضرب الله لنا مثلاً لذلك بفرعون:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

(الزخرف: ٥١ ـ ٥٤)

نعم! استخفَّ قومه. وما كان يقدر على أن يستخفَّهم لولا أنهم كانوا فاسقين. فلو كانوا في حِمى الإيمان ما استخفهم ولا أطاعوه. إنهم هبطوا هذا الهبوط بما كسبته أيديهم من فسق.

ويتكرر المشهد في كتاب الله على صور أشد وبظلال أُخرى. فبعد أن يدعو موسى عليه السلام فرعونَ إلى الإيمان، وبعد أن يدور بينهما حوار عجيب، ينكشف كِبر فرعون وضلاله البعيد:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ

ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾
(الشعراء : ٢٣ ـ ٢٩)

حوار مذهـل. يعلو موسى عليه السلام بحجته ودعوته ويقوى، ويهبط فرعون بكبره المتزايد وغروره، حتى يقول: ﴿.. لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ هنا هبط فرعون إلى القاع في الفتنة والكِبر والغرور، حتى حسب نفسه إلهاً. وما ذلك إلا بما كسبته يداه من فساد وظلم، حتى هبط في الفتنة التي أودت به. واسمع إلى فرعون وهو يخاطب هامان من هناك، من كبره وغروره وضلاله:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾
(غافر : ٣٦، ٣٧)

وفي سورة القصص يتكرر المشهد مع ظلال جديدة:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾
(القصص : ٣٦ ـ ٤٠)

بلغ الكبر ذروته، فاستكبر هو وجنوده. ثم جاء عقاب الله، عقاب أليم شديد، وظهـر الحق لفرعون وهو يلفظ أنفاسه. لحظات رهيبة في النفس، يموج فيها الألم والحسرة والعبرة بعد فوات الفرصة، ولات ساعة مندم! يصوّر لنا القرآن الكريم هول هذا المشهد، ورهبة تلك اللحظات، تصويراً يظـلّ أبد الدهر مطرقة تقرع رؤوس الكافرين:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾
(يونس : ٩٠ ـ ٩٢)

مشهد حافل، وآيات بينات! وعِبَرٌ وعظات!

لقد مرّ فرعون بحالات نفسيّة كثيرة عرضتها الآيات السابقة. ولقد كانت الحالات الأُولى تجمع في نفسه أشدَّ أنواع الكبر والغرور، وزهوة السلطان، حتى ألقى هذا كلُّه غشاوة على بصيرته، غشاوة زادها ظلاماً وسواداً ما اكتسبته يداه من مظالم وعدوان وطغيان، فلم يعد يرى احتمال زوال ذلك كله، حتى فاجأه الموت، ورأى زهوة غروره تنهار وتتخلّى عنه، وذهب عنه السلطان وكبره، هنا، حيث لا تنفعه ندامة، ولا تُقبل منه توبة عند الله، هنا تذكر ما بَلّغه إياه موسى عليه السلام! هنا تذكّر عظمة التوحيد وجلال الإيمان، وعرف أنّ الله هو القويّ العزيز، وأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وهو على كل شيء قدير.

إنّ أهم أسباب الانحراف عن التوحيد هو العمل السيِّء الظالم، هو الفسق والفجور، هو العدوان، هو الهوى، هو الشهوة التي تدفع الإنسان بعيداً عن نور الإيمان. إن الظلم والعدوان والهوى الضال والشهوة الفاسدة، والآثام والمعاصي، إن هذا كله هو الذي يدفع الإنسان بعيداً عن صفاء التوحيد، وجلال الإيمان والخشوع. ويظلُّ الإنسان نفسه هو المسئول عن انحرافه هذا وهو محاسب عليه، كما سنبيِّن في فصل خاص.

خامساً ـ انحراف في تصوّر الربوبية والأُلوهية :

إنك قد تجد أقواماً يقرّون بوجود الله. ولكن هذا الإقرار يرد منهم على صورة لا تنجيهم من الشرك، ولا تخرجهم من الكفر. ذلك لأن إقرارهم لم يحمل معنى التوحيد الخالص، ولم يُقرَّ بوجود الله الواحد الأحد، بكل صفاته وأسمائه الحسنى. وإنما أفرزت لهم آثامهم صورة مضطربة. أقروا بصفة واحدة لله، أو بعدد من الصفات فقط، ولم يمتدَّ تصورهم حتى يجمع صفات الله كلها وأسماءه الحسنى كلها. ويضرب لنا القرآن الكريم أمثلة شتى على ذلك:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (الزمر : ٣٨)

يعترفون هنا بأن الله هو خالق السموات والأرض. ومع ذلك فقد عبدوا من دونه آلهة أُخرى دون حقٍّ من عقل أو فكر، كأنهم يظنون أنها تملك لهم ضـرّاً أو نفعاً. وهذه الآية الكريمة تجمع جميع صور الانحرافات السابقة التي عرضناها.

ويتكرر عرض صور الانحراف على نحو آخر:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

(الزخرف : ٩)

وهنا يقرون بثلاث صفات من صفات الأُلوهية: الله الخالق العزيز العليم. ولكن هل يُقرون بأنه هو الرزّاق وحده؟! لا إنهم لا يقرون بذلك، وينهض سلوكهم شاهداً عليهم. ويعرض لنا كتاب الله كفرهم هذا في سورة الواقعة:

﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ (الواقعة : ٨٢)

ذلك بأنهم يعتقدون أن رزقهم يأتي بنوء كذا وكذا، ونجم كذا وكذا. يعتقدون أن هذا النوء أو النجم هو الذي يمطرهم ويرزقهم.

إنهم لا يؤمنون كذلك أن الله على كل شيء قدير، وأنه فعّال لما يريد، وأن إليه ترجع الأُمور، وأنه هو وحده المتصرِّف بالكون كله، وأن قضاءه نافذ وقدره ماض.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (الزخرف : ٨٧)

وهنا الدهشة والعجب والذهول من هذا الانحراف الذي لا يُقره عقل ولا منطق، وقد أقروا بأنّ الله هو خالقهم، فلماذا لا يقرون بأسمائه الحسنى كلها وصفاته كلها؟! لماذا ينصرفون عن الحق إلى الضلال؟!

ويأتي العرض في سورة العنكبوت لهذه القضية يحمل الظلال ذاتها ويمدّها:

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت : ٦٠ ـ ٦٣)

تعرض لنا الآيات الكريمة هنا أن هؤلاء القوم الكافرين المشركين يُقرون بأن الله خلق السمـوات والأرض، وسخـر الشمس والقمر، ونزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، يقرُّون بكل هذا. وهذه كلها صفات خاصة بالله، بالأُلوهية،

بالربوبية، ولكنها ليست هي وَحدها كل الصفات. إنها لا تُمثِّل وحدَها خصائص التوحيد الكامل. إن هؤلاء القوم لا يؤمنون بكامل صفات الربوبية والألوهية، فأفرزت لهم أهواؤهم تصوّرات مضطربة، وأفرزت لهم آلهة أخرى، ودفعتهم أهواؤُهم بذلك إلى الشرك.

وفي سورة لقمان يأتي عرض هذا الانحراف كذلك مع ظلاله الممتدة، لتكشف لنا حقيقة الانحراف:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (لقمان: ٢٠ ـ ٢٦)

يوجَّهُ السؤال نفسُه إلى المشركين أنفسهم: ﴿... من خلق السموات والأرض؟!...﴾ ويأتي الجواب نفسه الذي عرفناه في الآيات الكريمة السابقة: ﴿ليقولُن الله...﴾ وقد يُخيِّل إلى بعض من يقرأ هذه الآيات أن الإجابة تدلُّ على الإيمان والتوحيد، فقد أقروا أن الله هو خالق السموات والأرض. وقد يسألُ الإنسان نفسه: إذن أين الشرك والكفر؟!

إنهم أقروا بأن الله هو خالق السموات والأرض، ولكنَّ هذا الإقرار وحده لا يكفي ليثبت الإيمان والتوحيد. فلابد من أمرين أساسيين حتى يكون الإيمان والتوحيد ثابتين صادقين:

أولاً: الإيمان والإقرار بجميع صفات الله وأسمائه الحسنى معاً، في وقت واحد، دون إنكار صفة من صفاته سبحانه وتعالى، أو طرحها على غيره. ذلك حتى تكوِّن الصفات كلها التصوّر الأمين للألوهية والربوبية.

ثانياً: إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة والتأليه دون إشراك أيِّ شيء معه سبحانه وتعالى. لا إله إلا هو!

فهؤلاء المشركـون اتبعوا ما وجدوا عليه آباءَهم حتى ولو كان في هذا الاتباع ما يتعـارض مع التوحيد، ولو كان هذا الاتباع استجابة لدعوة الشيطان لهم ليضلّهم وليدخلهم النار بضلالهم. إنهم لم يسلموا كذلك وجوههم لله على صدق وإحسان، ولم يُقرِّوا أن مرجعهم إلى الله، وأن عاقبة الأمور كلها إلى الله وحده. إنهم لم يستطيعوا، لذلك كله، أن يروا أن الله وحده هو الذي سخّر لهم ما في السموات والأرض وأنه سبحـانه وتعالى أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة. إنهم، بسبب ذلك كله، غرقوا في جدال في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير نزل به الوحي الأمين. إن هذا كله اجتمع فيهم انحرافاً عن التوحيد الصادق الخالص. وبهذا الانحراف عن التوحيد أصبح عملهم وسعيهم فساداً في الأرض وشرّاً بين الناس، يغذيه الشيطان!

سادساً ـ عبادة الشيطان :

لقد سبقت كلمة الله ومضت سنته وغلبت حكمته فخلق الشيطان، وقضى بأن يسعى الشيطان لإغواء بنـي آدم ليكون سعي الشيطان هذا ابتلاءً منه سبحانه وتعالى يمحّص به عباده:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ (الحجر: ٣٩ ـ ٤٦)

يمحّص الله عباده في الحياة الدنيا، فتقوم الحجة على الكافرين فيدخلون النار، ويهدي الله المتقين فيدخلون الجنة. ويغوي الشيطان من يتبعه من بني آدم، يتبعونه بمحض إرادتهم، إذ لا سلطان له على أحد منهم. وقد يزداد الانحراف حتى يعبد الإنسان الشيطان وعلى صورة من صور العبادة.

فهـذا إبـراهيم عليه السـلام يصوّر انحراف أبيه عن التوحيد عبادة للشيطان، واتباعاً له، حين عبد أبوه وقومه الأصنام والأوثان:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ

ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾
(مريم : ٤١ ـ ٤٥)

صورة مرعبة للانحراف عن التوحيد، وتصوير دقيق لاتباع الشيطان، حتى يصبح الإنسان وليّـاً للشيطان، يعطيه خضوعه، وولاءه، فيقيم الأوثان والأصنام، أو يتبع هذا وذاك، ممن لا يغني عنه من الله شيئاً.

وفي سورة يس يأتي النهي والتحذير من عبادة الشيطان نهياً واضحاً، نهياً ثابتاً في أعماق الإنسان، في فطرته، في عهده مع الله:

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾
(يس : ٦٠، ٦١)

عهدٌ أخذه من بني آدم حين أَخذ من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، كما ذكرنا سابقاً، وكما سنذكر لاحقاً، لنظلَّ نذكر بهذا العهد العظيم الذي أخذه الله على الإنسان، العهد الذي يجب أن تقوم عهود بني آدم كلها عليه، نابعة منه، متصلة به.

وعبادة الشيطان على النحو الذي تعرضه الآيات الكريمة يمثل في حقيقته جميع أنواع الانحرافات التي سبق عرضها. ولقد أوردناه هنا، لنبرز معنى هامّاً من معاني الانحراف، وصورة جامعة له، ليكون العرض أشمل، والتصور له أدق.

ويمضـي هذا الانحراف عن التوحيد في حياة البشريّة، ليدفع فريقاً من الناس إلى النـار جزاءً عادلاً بما كسبت أيديهم. فما كان الله ليظلمهم ولكنهم هم ظلمـوا أنفسهم، فما أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يدعونها ويعبدونها من دون الله من شيء حين جاء أمر الله، وإنما زادتهم عذاباً وهلاكاً:

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾
(هود : ١٠١)

يستطيع الداعية، حين يعي صورة الانحراف عن التوحيد كاملة من كتاب الله، يستطيع أن يجعل من ذلك باباً أو مدخلاً لمهمّته، على ضوء الواقع الذي يعمل فيه، والحالة التي يعالجها.

فقد يستطيع الداعية أن يحذِّر المسلم من الوقوع في الانحراف. كما يستطيع أن

يفسر بهذا الانحراف مظاهر الشرك الممتدة في التاريخ ليردّ بذلك على نظريات الملحدين والمشركين في فهم التاريخ وأحداثه والصراع الممتد فيه.

وكذلك يستطيع الداعية أن يجعل من قضية الانحراف مدخلاً لعرض التوحيد كله بصفائه وجلائه، مع الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

كما يستطيع الداعية أن يجعل من قضية هذا الانحراف، ومن امتداده الواسع في تاريخ البشرية كلها، وشعوبها وأقوامها وأممها، دليلاً على خطورة قضية التوحيد وأهميتها، وعلى أن هذه القضية، قضية الإيمان والتوحيد، هي القضية الكبرى في حياة الإنسان على الأرض، هي القضية الكبرى في الكون، وهي الحقيقة الكبرى فيه.

ونستطيع من خلال ذلك كله أن نقدم نظرية لتفسير التاريخ وتحليل أحداثه وتطوراته على أساس أنه في جوهره صراع بين إيمان وشرك، صراع يأخذ صوراً مختلفة على مرِّ التاريخ.

يستطيع الداعية أن يربط هذه النماذج من الانحراف بانحراف فطرة الإنسان، ليمهّد لعرض التوحيد المغروس في الفطرة، لعرض قضية عهد الإنسان مع ربه، ولعرض سنن الله في الكون، وفي حياة الإنسان.

٣ - الداعية يدرس الواقع من خلال التوحيد:

إن الداعية يستطيع أن ينطلق من قضية الانحراف ودراستها إلى موضوعات شتى يربط بها بين الواقع والتوحيد. وهذا كله يعتمد على قدرة الداعية ووسعه، وعلى زاده من كتاب الله ومن أحاديث رسول الله ﷺ، وعلى خبرته وممارسته. وقبل ذلك كله، فإن هذا يعتمد على مدى صدق الداعية وأمانته. إن الانحراف باطل يجب كشفه وبيانه بكل ألوانه وأشكاله وتاريخه. ويجب بيان الفساد الذي يحمله في تاريخ الإنسان والشرِّ الذي يمدُّه فيه. إنّ هذا كله تدركه الفطرة نفسها، وتعلم أنه باطل غير حق. إنه يكاد لا يحتاج إلى تعريف فالنفس تعرفه، أو إلى بيان فهو بيّن واضح. وما جاء الأنبياء والمرسلون إلا ليذكِّروا القلوب التي غطاها الرانُ بما كسبت أيدي الناس. واتباع الهوى يقود إلى جميع أنواع الانحرافات التي عرضناها.

وفي واقعنا اليوم، نستطيع أن نجد الأمثلة العديدة على الظلم والعدوان، والهوى والطغيان، ونرى مع هذه الأمثلة كيف تنحرف النفوس عن التوحيد، فتغيب في ظلمة الشرك والكفر، دون أن تفيدهـا جميع الزّخارف الكاذبة من: ديمقراطية أهلكت الأرض والعباد، وديكتاتورية استعبدت الناس، ومن نظم شتّى زخرفها الناس بكل أشكال الزينة حتى ضلّوا بها وأضلوا، وتاهوا وانحرفوا. لقد بلغ الظلم والعدوان في واقعنا اليوم حدّاً تجاوز كلِّ الوعي والمنطق والمعقول. لقد قُلِبت الموازين حتى أصبحت السرقة حقّاً والزنا حضارة، وطرد شعب كامل من بلاده وإحلال شعب آخر عدالة دولية.

٤ ـ الانحراف عن التوحيد شوه الحرية وقتل الأمن والعدالة:

ربما يتحدث هؤلاء وهؤلاء في سياق الحرية والعدالة والمساواة عن حريّة رجل في أن يسكر ويزني ويعربد، وعن حرية امرأة في أن تبيع نفسها وشرفها حتى تجد لقمة تقيم بها أَوَدَها، أو تزهو بفتنتها وفسادها لتنتقل من فساد إلى فساد. ربما يتحدث بعضهم عن هذه الحرِّية لتمثِّل أعلى درجات الحرية والعدالة الاجتماعية في نظرهم. ولكنهم ينسون أو يتناسون قتل حرية الإنسان حتى يكفر، فلا يعبد ربّه. وينسون أو يتناسون إبادة مئات الألوف من عباد الله، أو الملايين من خلق الله في ساعات أو أيام أو أشهر أو سنوات. ينسون نهب الثروات من هذه الأرض أو تلك، وينسون الملايين الذين يتركونهم عراة جياعاً دون مأوى، إلا في كهوف أو خيام ممزَّقة، أو أشباح بيوت من الـزنك. ينسون طائراتهم ودباباتهم التي تندفع لتسحق شعباً كاملاً يطلب حقَّه في الحياة أو التفكير أو التأمل والتدبّر. انظروا ماذا تفعل الدول الكبرى كلُّها في أفريقيا، والهند، وجنوب شرق آسيا، وأفغانستان، وفلسطين، والفليبين، والسودان، ولبنان، وآرتـيريا، وغـيرها من أرض الله. آنظروا كيف يُسحق الإنسان باسم الديمقراطية والحضارة والعدالة وحقوق الإنسان!

انظروا إلى هذه المآسي كلها، واسمعوا أكابر مجرميها وهم يتحدثون عن الحرية والديمقراطية والمساواة والعدالة، واسمعوا ما يردده جميع الأتباع والعبيد الذين ألقى الله على بصيرتهم غشاوة بما كسبت أيديهم، جزاءً عادلاً منه سبحانه وتعالى، فأصبحوا

يُردِّدون كالببغاوات ما يقوله هؤلاء الطغاة المعتدون الظالمون من أهل الديمقراطية أو أهل الطبقة العاملة «البروليتاريا».

إن إدراك حقيقة هذه المظالم، ووعي هول خطرها، لا يحتاج من الإنسان إلى شهادات عالية، وعلوم نامية، وفلسفات غارقة. إن الرجل البسيط الأميّ يدرك معنى الظلم ومعنى الحرية ومعنى العدالة.

فارتكاب هذه الجرائم والآثام، لا يستطيع أحد أن يسوِّغه بعدم معرفة المجرمين والأتباع والعبيد لحقيقة الجرائم والآثام، والفتنة والفساد، والظلم والعدوان. إنهم يعرفون أنهم ظالمون مجرمون، ولكنهم أسكرتهم الشهوة وزهوة السلطان، فتمادوا في غيهم، فزاد ضلالهم، وزادت جرائمهم، فعاقبهم الله بعدله وحكمته، وكان ذلك كله آيات بينات في تاريخ البشرية، لا تظهر في سنة أو سنتين، ولكنها تظهر في أجيال وقرون:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

(الروم: ٩، ١٠)

إذن أسباب الانحراف الحقيقية هو عمل الإنسان نفسه، عمله الباطل، وظلمه الواضح، وقد خلقه الله على الفطرة السوية، فطرة التوحيد والإيمان.

هنا يقف الداعية ليقدِّم هذه الصورة الواضحة لانحراف شعوب عن التوحيد في تاريخ طويل للبشرية. ومن السهل أن نصل إلى حقيقة علميّة ثابتة، وهي أن «العبادة» أو «الدين»، خط ثابت مستمر في حياة الإنسان على الأرض. نستطيع أن نثبت ذلك بعد أن ندرك أن معنى العبادة هو الخضوع المطلق لشيء، وأن الدين هو منهج ذلك الخضوع. ولذلك جاءت كلمة «الدين» في القرآن الكريم، وفي الأحاديث الشريفة لتوضح هذه الصورة والمعنى. ولكن يظل هنالك دين واحد مقبول عند الله، وعبادة واحدة شرعها الله لعباده:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ (الكافرون: ١ - ٦)

ويستطيع الداعية أن يزيد الصورة وضوحاً وقوة بآيات أُخرى كثيرة في كتاب الله، وأحاديث كثيرة، وبشواهد من الواقع الذي يعيشه، ومن التاريخ البشري، ومن الآثار المنتشرة في الكـرة الأرضية شرقـاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً. هذه الآثار توضّح امتداد العبادة في حياة الإنسان، وتوضح بعض معاني التوحيد، كالبعث والحساب، والجزاء والعقـاب. وكذلك الديانات المنحرفة المنتشرة اليوم في الأرض، كلُّ هذا يدل على امتداد العبادة امتداداً جعلها مظهراً في تاريخ البشرية.

٥ - مظاهر الانحراف عن التوحيد في حياة الانسان تدل على أن الدين أصله واحد وهو التوحيد:

لابـد من أن يركّـز الـداعية على إيضـاح هذه القضية، وهذا الامتداد، وتعدُّد الديانات، ليخرج من ذلك كله بأن الدين أصله واحد، وأن هذا الاختلاف الذي نراه إن هو إلا انحراف عن الدين الحقِّ، وأن هذا الانحراف أخذ صوراً متعددة، وأشكالاً متباينة، في تاريخ البشرية.

هذه الحقيقة نفسها تؤكد ما عرضناه في الفصل السابق من أن قضية التوحيد هي القضية الأُولى في حياة الإنسان، وأنها الحقيقة الكبرى في الكون. إن أقل ما يفرضه العقل لمن كابر واستكبر فلم يؤمن، هو أن يقف قليلاً ليعطي هذه القضية ما تستحقه من تأمل وتفكر، وتدبّر واهتمام. إنها تستحق أن تنال الجهد والوقت. إنها أهم من مسـألـة رياضية، أو قضية علمية، أو سعي وراء وظيفة، أو جري وراء هوى من مصالح الدنيا!

إن مسـألـة الانحـراف عن الأصـل الـواحـد للدين والعبادة، ومعنى الأُلوهية وتصورها، أمر ميسور علينا تصوره، وإدراك حقيقته وحقيقة حدوثه في هذه الحياة الدنيا.

فالإسلام، وهو الدين الذي جاء به الأنبياء والرسل كلهم، خُتِم برسالة النبي الخـاتم محمد ﷺ. ورسالة محمد ﷺ تعهد الله بحفظها كما نزلت على محمد ﷺ. ومازالت بين أيدينا اليوم أصلاً محفوظاً بحفظ الله سبحانه وتعالى له. ومع وجود الأصل فإنـك تجد الانحـرافـات كثيرة في واقع المسلمين في معظم ديارهم، وبين كثير من

شعوبهم. ولولا وجود الأصل لما تركت هذه الانحرافات مجالاً لمعرفة الأصل. ولقد طغت الانحرافات وسادت في بعض القطاعات حتى حسبها الجاهلون هي الأصل، فتمسَّكوا بها.

وإننا لنجد هذه الانحرافات اليوم شبيهة بالانحرافات التي سبقت في تاريخ الشعوب والأقوام والأمم السابقة في الأرض. وكان من أكثر الانحرافات انتشاراً هو تحول العبادة إلى الأصنام والأوثان، والحجارة والحيوانات، عندما يفرغ الإنسان حبَّه ووهمه في هذا الشيء أو ذاك. فقد ينحرفُ الإنسان إلى عبادة إنسان مثله غلب عليه حبه، حتى طغى عليه فقدَّسه تقديسه للمعبود، لله الواحد الأحد. ومازال حتى اليوم من الاصطلاحات الفاسدة المنتشرة بين الناس قول بعضهم: إنه أحب فلاناً حتى العبادة. فيتحول الإنسان من عبادة الله إلى عبادة الإنسان. فإذا مات الإنسان المعبود، فزع الذين عبدوه من دون الله. فمثلوه بصنم أو وثن من حجر، أو تمر أو طين. وقس على ذلك حتى تجد لكل انحراف سبباً يدفع الإنسان الضعيف إلى هذه العبادة المنحرفة أو تلك.

وهذا الانحراف ما كان الإنسان ليقع فيه ظلمًا من عند الله أبداً. ولكنّ الله سنّ بمشيئته وحده لهذا الكون سنناً، ولو أراد لسنَّ غيرها. لقد جعل الله الحياة الدنيا دار ابتلاء وتمحيص للإنسان، يقع فيها الابتلاء على سنن لله ماضية، سنن لله غالبة. فمن وقع في الآثام والمعاصي تعرّض للفتنة، فإذا زاد تماديه بما كسبت يداه، وبما هو مسئول عنه، محاسب عليه، زادت فتنته، حتى يقع في الشرك أو الكفر، فإذا زاد في ذلك وأبعد إلى الحد الذي حدّه الله بعلمه وحكمته وعدله، قضى على ذلك العبد أن يموت مشركاً كافراً لا يُغفر له ذنبُ شركِه وكفرِه أبداً جزاءً عادلاً منه سبحانه وتعالى. فالانحراف لا يقع فيه عباد الله الصادقين، وقد تعهد الله بحمايتهم بإيمانهم وصدقهم وعملهم الصالح:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (يونس: ٩)

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ (محمد: ١٧)

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر : ٣٩ - ٤٣)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ . (محمد : ٣٤)

والله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعلم تفاصيل ما فعل هذا وذاك، وهو وحده الذي يقضي بهذا الأمر على علم كامل، وعدل حق، وميزان وضعه الله سبحانه وتعالى، لا إله إلا هو العزيز الغفّار وسيأتي تفصيل هذا في الفصول المقبلة إن شاء الله.

الفصل الثالث
معنى الأُلوهية وأُسس التوحيد

١ ـ أرباب متفرقون يفرزهم الوهم :

تحدثنا في الصفحات السابقة عن قضيَّةٍ هامّةٍ من قضايا الإيمان. تحدثنا أولاً عن أهمية هذه القضية وخطورتها في الحياة الدنيا، وبيَّنا أنها القضيّة الأُولى في حياة الإنسان، وإنها كذلك الحقيقة الكبرى في الكون. ثم تحدثنا عن ظاهرة العبادة في تاريخ الإنسان والانحراف الذي تعرضت له. وبيَّنّا ما عرضه القرآن الكريم من ظاهرة الانحراف هذه، وما نُشَاهِدُه منها في تاريخ الإنسان، وما نعانيه منها في واقعنا المعاصر. ووضح لنا كيف أن ظاهرة الانحراف في الماضي والحاضر كانت على صور متماثلة متشابهة، عرضها القرآن الكريم عرضاً بيّناً. ذلك كله لنرى أن قضية التوحيد هي القضية الكبرى في حياة الإنسان، والحقيقة الأُولى في هذا الكون.

رأينا من خلال ذلك كيف أن الإنسان أفرز من خلال أوهامه وشهواته، ومن خلال هواه وضلاله، ومن خلال فطرة منحرفة وطبيعة غير سوية، آلهة شتى. وجعل لكل إله أفرزه من جهله ومرضه صفاتٍ متضاربة متنوعة. كان لابد من أن نستعرض هذه الصورة، ولابد من أن نعرضها كما عرضها القرآن الكريم، حتى نبيّن للناس، ونحن ندعوهم إلى الإيمان أننا لا ندعوهم للإيمان بأي إله من هذه الآلهة التي أفرزها الجهل والفطرة المنحرفة. لابدّ من أن نبيّن للناس أننا لا ندعوهم للإيمان بإله يصوره لهم وهمهم وخيالاتهم المريضة. إن مثل هذه الإلهة تفرض إيماناً مضطرباً اضطراب الطبيعة المريضة التي أفرزتها، وتفرض تناقضاً يذهب بجلال الإيمان الحق، وصفاء العرض، وصدق الدعوة، وجلاء الصورة.

إن من أهم التناقضات التي تبرز أثناء الدعوة إلى الإيمان، حين تضع الأوهامُ صورةً مشوهة للإله. إن من أهم التناقضات هو أن الناس يريدون أن يُخضعوا الإله لرغباتهم البشريّة، فيريدوا أن يحاسبوه ويناقشوه ويفرضوا تصوراتهم المحدودة، ليخضع لها الكون كله، ويخضع لها الإله الذي يتوهمونه. إن الناس بهذا الأُسلوب

يتصوّرون آلهة ثم يجرّدونها من جميع صفات الألوهية، حتى لا يبقى لهذه الآلهة من الألوهية إلا الاسم.

لقد كانت هذه الظاهرة هي أهم مظاهر الانحراف في العبادة في تاريخ البشرية. لقد انحرفت اليونان بعبادتها هذا الانحراف، فجرّدت الآلهة من صفات الألوهية، وألبستها خصائصها البشرية، فجعلتها تتزاوج، وتغضب غضب الناس، وترضى رضاء الناس، وتعشق كما يعشق الناس، وتكره مثل كراهيتهم، وتحارب وتقاتل كما يفعل الناس، حتى لم يبق لآلهتهم إلا الاسم. تضارب وتناقض فارَقَ المنطقَ والعقلَ وسلامةَ التقدير.

وجعل العرب في الجاهلية آلهتهم أصناماً من الحجارة، من التمر، من هذه المادة أو تلك، وهم يرون أنها صماء لا تسمع، بكماء لا تتكلم، عمياء لا تبصر، جامدة، يصنعونها بأيديهم، حتى لم يعدّ لها من خصائص الآلهة إلا الاسم، وإلا ما ترسمه أوهامهم وخيالاتهم المريضة.

وقس على ذلك سائر مظاهر الشرك في حياة البشرية، حتى كان من مظاهرها أن ألَّه الإنسانُ نفسَه. فهذا فرعون لا يرى إلهاً غير نفسه. هكذا امتلأت نفسه بالغرور وهو يتمتع بالصحة الآنيَّة، والقوة التي ستذهب، وخضوع قومه الذين استخفهم، فزين له الشيطان كبره وغروره. لقد غره ملك مصر، والأنهار التي تجري من تحته، وما عليه من ذهب وأسورة، وما حوله من زخرف وزينة، مما سنعرض تفصيله في فصل مقبل إن شاء الله.

هذه هي الآلهة التي أفرزتها أوهام الناس، ونشرتها في الفكر والأدب وسائر نواحي النشاط الإنسانيّ. فلابد من أن نمحو صورة هذه الآلهة من الأذهان ونحن ندعو الناس، ولابد من أن نزيل كل آثار التناقض والتضارب التي تثيرها هذه الآلهة في مفهوم العبادة.

من أجل ذلك لابد من التأكيد على أننا ندعو الناس إلى الإيمان بإله واحد لا شريك له، هو الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم. إننا ندعو الناس للإيمان بالله وحده، لا بأيّ

إله آخر، بالله رب السموات والأرض، رب العرش العظيم، بالله خالق السموات والأرض، خالق كل شيء، بالله الواحد الأحد، مالك كل شيء وهو على كل شيء قدير، بالله العليم الحكيم الخبير، الغفور الرحيم الودود، العزيز الجبار المتكبر، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، الخالق البارىء المصور، الله الذي لا يُسْأَل عما يفعل وهم يُسْأَلون، الله الذي يحيي ويميت، مالك الملك، الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، الله الذي له الأسماء الحسنى كلها، الله الذي هو كما أثنى على نفسه لا نحصى ثناء عليه.

إننا ندعو الناس إلى الإيمان بالله، الذي له الأسماء الحسنى التي حددها منهاج الله، بوضوحها الذي جاءت به، وجلائها الذي عرضه الوحي المتنزل من عند الله. ولابد من جلاء هذه القضية حتى يزول التضارب والتناقض في مفهوم الأُلوهية ومفهوم العبودية ومفهوم التوحيد. وبدون هذا الجلاء سينشأ التضارب ويبرز التناقض.

بدون هذا التوضيح ستثور أسئلة عديدة عن الأُلوهية والتوحيد، أسئلة يثيرها غرورُ الإنسان وكبره، وهو يريد أن يفرض وهمه وظنونه على الله. أسئلة يثيرها جهل الإنسان وتناقضه وهو يريد أن يناقش موضوع التوحيد والأُلوهية من خلال أوهامه التي تفرز له آلهةً شتى وأرباباً متفرقين. ولكن عندما تُجلى قضيّة التوحيد بأُسسها القرآنية، بأُسسها كما يعرضها منهاج الله، عند ذلك يزول التضارب وتختفي الأسئلة في نور الوضوح وإشراقة الجلاء.

٢ ـ أهمية عرض قضية التوحيد من كل جوانبها نقية من الانحراف :

لذلك كان من أهم أساليب المنهاج الربّاني وهو يدعو البشريّة إلى الإيمان، إلى الحقيقة الكبرى، أن يوضح هذه القضية توضيحاً قوياً، فيعرض أسماء الله الحسنى ويكرر عرضها ويؤكدها لتحمل معها جميع الظلال الموحية. ويناقش القرآن الكريم هوانَ الآلهة التي أفرزتها القلوب المريضة، وتضارب التصور وتفاهة التفكير، وما تؤدي إليه من ضياع للقوى التي كانت تحملها الفطرة السوية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ

بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ (الأعراف : ١٩٤ ـ ١٩٨)

لقد تعطلت قوى القلب والإدراك والسمع والبصر حين انحرفت الفطرة فجعلت لها آلهـة من البشر: «**عبـاد أمثالكم**» . . !.إنهم أعجز من أن يستجيبوا لدعائكم إذا دعوتم، فالله هو الذي يستجيب، وهو القادر على ذلك، وهو على كل شيء قدير. وهم أعجـز من أن يسمعوا الحق الذي تدعون إليه بعد أن انفصلوا عن الإيمان، وتعـطلت أبصارهم، فهم يفتحون عيونهم ولكن لا يستطيعون رؤية الحق بعد أن انحـرفـوا بما كسبت أيديهم، وقـوة الإبصـار طاقـة تدفعهـا الفطرة السويّة والإيمان الصادق، وتقتلها الآثام والمعاصي!

هذه الآلهـة التي تفـرزها الفطرة المنحرفة، تظل هي الصورة المطبوعة في أذهان الضـالين وفي قلوبهم وفي نفوسهم. فإذا دعوتهم وقفت هذه الصور حاجباً وحاجزاً يمنع الإدراك والرؤية والسمع. فلابد إذن من إزالة هذا الحاجز النفسيّ والفكري، حتى تتحرك القوى التي خلقها الله لتعمل، لتدرك، لترى، لتسمع:

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ (الأنعام : ٢٥، ٢٦)

ويعرض لنا القرآن الكريم هذا التناقض المخزي في قلوب الكافرين والمشركين، حين كشف إبراهيم عليه السلام زيف دعواهم وسخف تفكيرهم وهوان حجتهم:

﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ (الأنبياء : ٦٢ ـ ٦٧)

إن إبراهيم عليه السلام يحاجُّهم وفي قلبه إشراقة التوحيد، وأُولئك في قلوبهم عتمة الاضـطراب، وظلمـة التناقض. في قلوبهم صورة لآلهة أفرزتها أهواؤهم وأعرافهم وفطرتهم التي انحرفت. فكيف يلتقي المنطقان؟ إلا برهةً تُفاجىء الحجةُ بها القلوبَ

المضطربةَ، فلا تملك أن تدفع حجة الحق، فتُقِرّ وتعترف بُرهةً من الزمن، حتى يُزيِّنَ لهم الشيطانُ زخرفَ حجة باطلة، فيُنكَسُوا على رؤوسهم ويعودوا إلى الضلال.

ويظل هذا التناقض والاضطراب صورة بارزة في حجة الكافرين والمشركين، وعجزاً ظاهراً في كبر وعناد:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (الزخرف: ٨٧)

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾. (الزخرف: ٩)

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (الزمر: ٣٨)

تناقض واضح. يدعون آلهة من دون الله. هذه الآلهة أفرزتها أهواؤهم وأفرزها انحرافهم. هي آلهة عاجزة ظاهرة العجز حتى إنها لا تكشف ضرّاً ولا تمسك رحمة. ومع ذلك يُقِرُّون بأن الله هو خالق السموات والأرض، ولكنهم مع انحرافهم وتناقضهم انحرفت أذهانهم عن الإله الواحد الحق، فنزعوا عنه بعض أسمائه الحسنى، وجعلوها في آلهة جديدة ابتدعوها فهم لا يعقلون، وهم جاهلون لا يعلمون، وإنهم متناقضون ظالمون مفترون.

ويمضي القرآن الكريم يكشف هذه الصورة من التناقض المضحك في قلوب الكافرين والمشركين، وفي أقوالهم، وفي أفعالهم. يمضي القرآن الكريم يعرض هذه القضية أو تلك مما يتعلق بأسماء الله الحسنى، حتى يجلوها ويكشف تناقض المشركين فيها:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۝٣٤ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس: ٣٤، ٣٥)

ولا نستطيع هنا أن نعرض كل ما جاء به القرآن الكريم في هذا الصدد وهو يجادل المشركين ويثبِّت المؤمنين. ولكنه زاد عظيم لا غناء للداعية المؤمن عنه، ولا غناء للمؤمنين عامة عنه، حتى تطمئن القلوب فتخشع وتنيب.

هذه القضية هي القضية الثـالثة التي لابد من جلائها، وأنت تدعو الناس إلى الإيمان بالله والرسول ﷺ واليوم الآخر وسائر قواعد الإيمان.

هذه القضية هي ضرورة تحديد صورة التـوحيد وصـورة الأُلوهية، حتى تكون القضية واحدة بينك وبين من تدعوه. لابد من أن تزيل من قلب من تدعوه صور الانحراف واحدة واحدة، وتثبت بطلانها وتناقضها، وهوان حجتها، حتى لا يكون بينك وبين من تدعوه إلا قضيّة الأُلوهية الصافية والتوحيد الخالص، فتدعو أنت إلى شيء محدَّد واضـح لا يغيب ولا يختلط أثنـاء دعـوتـك مع الصور المنحرفة والشرك المزري، فيثور جدال حامٍ ونقاش طويل، وكل واحد يتحدث عن قضية تختلف عن قضية الطرف الآخر، فتضطرب الصور وتختلط، وقد لا تبلغ قصدك وغايتك.

لابد إذن من توحيد القضية، وتثبيتها حتى تكون هي موضع الدراسة والدعوة والبحث، فلا تُسْتَدرج أنت إلى ما يميت الموضوع ويستهلك الطاقة ولا تبلغ قصداً. لابد من عرض الأُلوهية عرضاً صافياً نقيّاً.

٣ ـ أهمية عرض صفات الله وأسمائه الحسنى من خلال الآيات والأحاديث:

وأجمل ما يحمل العرضَ في صفائه ونقائه آياتٌ وأحاديث. لابد من أن تدعو الناس لتؤمن بالله الواحد الأحد، دون أن تختلط الصورة في أثناء الجدال فيذهب الرونق والصفاء:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

إنها آية الكرسي. وإنها أعظم آية في كتاب الله كما ورد في حديث رسول الله ﷺ:

فعن أبي بن كعب أن النبيّ ﷺ سأله: أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال: الله ورسوله أعلم. فردَّدها مراراً، ثم قال أُبيّ: آية الكرسي. قال: ليهنك العلم أبا المنذر. والذي نفسي بيده إن له لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش» (رواه أحمد ومسلم)[١]

(١) صحيح مسلم: كتاب (٦) باب (٤٤). حديث (٨١٠/٢٥٨). الفتح الرباني (ج١٨ ص: ٩٣).

وإن من أهم نواحي عظمتها أنها تجمع أكبر قدر من صفات الألوهية، وتعرضها عرضاً ربانيّاً معجزاً. ولو أنك أردت أن تعدد صفات الألوهية التي وردت فيها عرضاً بيّناً لاضطررت إلى تلاوتها كلمة كلمة، لا تستطيع أن تترك منها شيئاً. وإنها تحمل من العلم ما تعجز عنه مجلّدات. وإنها تجمع الكون كله، تجمع السموات كلها والأرض كلها، وتجمع الكرسي الذي وسع السموات والأرض.

وعن أبي ذر رضـي الله عنـه أنه سأل النبيّ ﷺ عن الكرسيّ، فقال رسول الله ﷺ: «والـذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة.وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة». [1]

وآية أُخرى من كتاب الله:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ (ال عمران: ٢٦، ٢٧)

آية عظيمة، وكتاب الله كله عظيم، إنه كله آياتٌ بينات. إنها آية جامعة تحمل من صفـات الأُلـوهية صفـات كثيرة هامة. إن الله هو مالك الملك كله، له ملك السموات والأرض وهو رب العرش العظيم، وهو الذي يؤتي الملك في الدنيا لمن يشاء من عباده، وينزع الملك ممن يشاء، وهو المعزّ المذلّ، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. وهو الذي يولج الليل في النهار، والنهار في الليل، وهو الذي يخرج الحيّ من الميت والميت من الحي، وهو الذي يرزق من يشاء من عباده بغير حساب. صفات جامعـة، وأسـماء حسنى، تقرع القلب والنفس، وتوقظ الغافي، وتفتح آفاقاً ممتدة للتأمل والتدبّر!

ومع آية أُخرى:

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ

(١) تفسير ابن كثير. دار المعرفة. ج١، (ص: ٣٠٥، ٣٠٦).

إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾. (البقرة : ٢٨٤ ـ ٢٨٦)

وتمتدُّ هنا معاني التوحيد وظلاله إلى حساب الله لعباده، ومغفرته وعقابه. وتمتد المعاني والظلال إلى يقين الإيمان بالوحي المنزَّل، وبالملائكة والكتب والرسل. وتمتدّ الظلال حتى يرى المؤمن أن المصير كله إلى الله، وإلى رحمة الله بعباده وعدالة التكاليف، وعظمة اللجوء إلى الله، وراحة الدعاء، وصدق الولاء، وحسن الأوبة والتوبة، وامتداد المعركة مع الكافرين، امتداد الزمن، ليظلّ المؤمنون يسألون الله النصر، وهم في ميدان الإعداد والجهاد، والبذل والعطاء، فما النصر إلا من عند الله.

إن التوحيد يرسم صورة الأُمة المؤمنة، الخاشعة العابدة. إنها تمتد في ميادينها عبادة لله وطاعة، إيماناً وخشوعاً، توبة واستغفاراً، أوبة ودعاءً، سعياً وجهاداً، ودعوة وبلاغاً. هذه هي أُمة التوحيد، وهذه هي ميادينها.

هذه قبسات من كتاب الله، وكتاب الله نور يمتد، يستطيع المؤمن أن يأخذ منه قبسات لكل موقف يلقاه في دعوته وبيانه للناس. إن المواقف التي يمرّ بها الداعية أكثر من أن تُحْصَر في بحث. وهي مواقف متجددة في ظاهرها مع الحياة، ولكنها في أُصولها وجوهرها متشابهة، تظل معالجتها نابعة من كتاب الله. وتظل القضيّة الأُولى في دعوته هي قضيّة التوحيد على صفائه ونقائه، وكماله وتناسقه.

ومن أهم ما يجب أن يلتفت إليه الداعية هو محاولات المراوغة والتضليل التي يلجأ إليها المنافقون والمشركون والكافرون. يلجأ إليها هؤلاء عن خُبث وضلال يحسبونه ذكاء وفطنة وما هو بذكاء وفطنة.

٤ ـ محاولة المشركين أن ينحرفوا عن حقيقة التوحيد في جدالهم :

سيحاول المشرك أو الكافر أن ينحرف بك عن القضيّة المشرقة المحدّدة، قضية

التـوحيد، قضية الإيمان. سيحاول المشرك أن يطمس بعض معالمها، ويغرقك في جدل لا غناء فيه. سيحاول ذلك من خلال ضباب كثيف في ألفاظه وتعبيراته، وفكره وتصوراته. سيحاول ذلك من خلال جهل يحسبه علمًا ليوهمك، وضلال يحسبه مهارة ليخدعك. فعليك أنت أيها الداعية المؤمن أن تحفظ معالم القضيّة وإشراقها بما تحمل أنت في نفسك من يقين صادق، وعلم واف، وقلب ذكي.

ولعلنا نجد في قصة إبراهيم عليه السلام مع الملك «نمرود» مثلاً قوياً على ذلك. فلنستمع إلى الآيات الكريمة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨)

لقد عرض إبراهيم عليه الصلاة والسلام حجّة قويّة، عرض أمراً هو من خصائص قدرة الألوهية، لا يقدر أحد من البشر عليه ولا أن يقوم به: ﴿... **يحيي ويميت**...﴾ والمعنى واضح. ولكن الجدل الباطل جعل الملك في حالة من الغرور بملكه الذي آتاه الله، والكبر الذي نشأ عن ذلك، يُؤوِّل معنى ﴿**يحيي ويميت**﴾ فينحرف بمعنى هام من معاني الألوهية والتوحيد. فاعتبر بغروره وكبره أنه إن عفا عن أحد فقد أحياه، وإن نفّذ حكم القتل فقد أماته. وهذا معنى جائز لغة من باب التمثيل لا الحقيقة، فقال: ﴿**أنا أحيي وأميت**﴾، لينحرف بهذا المعنى التمثيلي، وهو يختلف عن المعنى الذي قصده إبراهيم عليه السلام. فكلام الملك كان انحرافاً عن معنى الألوهية وأسمائها وصفاتها. فلم يُضعْ إبراهيم عليه السلام وقته بجدل لفظيٍّ لا غَناء فيه، فَضرب له مثلاً قاطعاً لا يستطيع الملك أن يحوِّره أو ينحرف به. قال إبراهيم ﴿**فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب**...﴾ حجّة قاطعة، وقدرة خاصة بالله سبحانه وتعالى وآية من آيات التوحيد. فتجاوز إبراهيم عليه السلام محاولة خبيثة من الملك، وردّ قضية الألوهية والتوحيد إلى إشراقها وصدقها وجلائها، ﴿**فبُهت الذي كفر**﴾.

وسيجد الداعية في كتاب الله زاداً عظيمًا في طريق دعوته، زاداً يوفّر له حاجة كل موقف، وغناءً في كلِّ حالة، إذا صدق إيمانه وعلمه، وإذا نمت تجربته وخبرته بالممارسة والبذل والعطاء.

فمن الناس من يدَّعي الإيمان بالله، ولكنه لا يُقِرُّ بأسماء الله الحسنى كلها، لا يقرُّون مثلاً بأنه هو الذي ﴿يدبر الأمر﴾، ولا يُقرُّون بأنه ﴿إليه مرجعكم جميعا﴾، ولا يقرُّون بأنه ﴿إليه ترجع الأمور﴾. فلو آمنوا بالله حقّاً لآمنوا بأسمائه الحسنى. ولنستمع إلى آيات الله تعرض من صور الأُلوهية والربوبية مالا غناء عن عرضه وتدبره والإيمان به:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (يونس: ٣، ٤)

فالله هو الذي ﴿يدبر الأمر﴾، و ﴿إليه مرجعكم جميعا﴾. والمشركون يتوهمون إلهاً عاطلاً عن العمل عاجزاً، لا مهمة له ولا دور، إلا بمقدار ما تثير أنت فيهم من تذكير، أو بقدر ما تفرض مصالحهم الآنيّة، أو يفرضه هذا الموقف أو ذاك. ولكنهم لا يتصورون إلهاً تتكامل فيه صفات الأُلوهية كلها. سبحان الله عما يقولون علوّاً كبيراً.

من هذا العرض السريع نستطيع أن ندرك أهمية هذه الخطوة في طريق الدعوة والداعية، وأهمية تحديد الصورة المتكاملة للأُلوهية حتى يكون الموضوع الذي يدعو إليه الداعية واضحاً جليّاً للطرفين، فلا يتحدث هذا عن إله وهذا عن إله، فيدور النقاش والجدل حول موضوع غير محدَّد وغير جليّ.

وأضرب على هذه القضية مثلاً. لقد كنتُ في لندن ذات يوم، في عيادة طبيب القلب الجرّاح، الذي سبق أن أجرى لي عملية في القلب سنة ١٩٨٢م، كنتُ هناك للمراجعة والمعالجة. وكان ذلك في شهر رمضان من عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م). وكان بين المراجعين رجل مسلم. ولكنه لم يكن صائماً. فدار بيننا حديث، فعرفت أنه لا عذر له في الإفطار. فحاولت أن أبدأ دعوته إلى سلامة الإيمان والممارسة بالحديث عن فضل الصيام. فكان أول ما بدأ في تعقيبه على حديثي هو اعتراضه على أمر من أُمور الصيام، ثم أخذ يقول ما معناه: لو أن الله فعل كذا وكذا. ولماذا فرض الله الصيام؟

وتابع اعتراضاته كأنه يريد أن يحاسب ربَّ الناس على شرعه وأحكامه. ولو أني جادلته على كل اعتراض اندفع به لما بلغت معه إلا شيئاً قليلاً. ولكنني سألته: «إنك تقول لو أن الله فعل كذا وكذا، وتسأل معترضاً لماذا فعل الله هذا أو ذاك، فهل أنت تؤمن بالله؟ فأجاب بحماسة واندفاع: «نعم! وكيف لا؟. ولكن. . . . .». فطلبت إليه التريّث حتى أُكمل أسئلتي، وطلبت إليه أن يصغي لي كما أصغيت له. فاستجاب راضياً وانشرح صدره. فسألته: «قلت إنك تؤمن بالله. فهل أنت تعرف (الله) الذي تؤمن به». قال: «نعم هو الله». قلت: «هل تعرف أسماءه وصفاته». فانتظر وتريّث وبدأ يفكر. فقلت له مسرعاً: أخشى أن تكون تؤمن بإله صورته لك أوهامك، فأعطيته من الصفات ما تحب، ونزعت عنه ما تشاء، ثم ظننت واهماً أنه الله. ولأُوضح لك القضية أسألك سؤالاً محدداً: لو أنَّ قضية خلاف بين رجلين رُفعت إلى القاضي العالم صاحب الممارسة والخبرة في القضاء. فحكم القاضي حسب علمه وخبرته ومستوى أمانته وعدله بحكم لصالح أحد الرجلين. ولكنّ الحكم لم يرضِك أنت أو لم يرض الرجل الآخر. فأردت أنت أو الرجل الآخر محاسبة القاضي ومناقشته في حكمه والردّ عليه. فحتى تكون أنت أو الرجل أميناً عادلاً عاقلاً مُنصفاً، فما هي الصفات التي يجب أن تتوافر فيك حتى يحق لك أن تناقش القاضي في حكمه. فقال على الفور: «أولاً يجب أن يكون علمي في مستوى علمه». قلت: «وبغير هذا الشرط لا يحقُّ لك مناقشة القاضي». قال: «نعم». قلت: «إذا كان لا يجوز لك عقلاً وأمانة وعدلاً مناقشة القاضي إلا أن يكون علمك في مستوى علمه. فكيف أبحْتَ لنفسك أن تسأل الله عما يفعل، وأنت لا يمكن أن تبلغ علمَه أبداً. ؟!» فتريّث وأطرق رأسه برهة ثم قال: «أنصفت وصدقت». ثم تابعت حديثي معه لأُوضح له أسماء الله الحسنى حتى تتحدَّد في ذهنه صورة الأُلوهية التي نتحدث فيها، وحتى تكون صورة واحدة عنده وعندي، فلا أتحدث أنا عن الله بأسمائه الحسنى، وهو يتحدث عن إله أفرزته فطرة مضطربة. ثم قلت: «هذا هو الله الذي يجب أن نؤمن به بهذه الأسماء الحسنى كلها». ثم تابعت حديثي معه بآيات وأحاديث تكشف عظمة الخالق وجلاله، وبداهة الإيمان وعدالته، حتى قال لي ما معناه: «وضحت لي صورة

جديدة ما فكرت بها قبل ذلك، وكنت أحسب أني أعرف أسماء الله، ولكنني الآن فقط عرفت صورة أوضح وأصدق». ثم افترقنا بعد ذلك بعد أن وعد أن يدرس هذه القضية من كتاب الله وسنة رسوله. وكان من بين ما قاله بعد أن سمع بعض الآيات والأحاديث: «ما كنت أعلم أن آيات القرآن بهذا الوضوح وأن الأحاديث الشريفة بهذا الوضوح أيضاً. لقد شعرت الآن أنني أستطيع أن أفهم الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وكنت أظنها قبل الآن أحاجي وألغازاً لا يفهمها إلا العباقرة العظام».

هذا مثل من الواقع. وإذا كان هذا الأسلوب أفاد مع هذا الرجل وفي هذه الظروف، فلا يعني هذا أنه هو الأسلوب الوحيد الناجع. فعلى الداعية المؤمن الواعي أن يتخيَّر لكل حالة أسلوبها. ولكن ستظل القاعدة واحدة في جميع الأساليب، وهي أن يكون التوحيد محدَّد المعالم بين الطرفين المتناظرين، وأن تكون قضية الألوهيّة كذلك محددة واضحة، حتى لا يتبدّد الحديث في متاهات.

وأُعيد لأُوجز هذا الموضوع ولأُؤكده أيضاً، فأقول إن الداعية يجب أن يوضح للناس ما يدعو إليه، وأن يحدد لهم القضية تحديداً بيّناً. فإذا أراد أن يدعو أحداً إلى الإيمان بالله، فلابدّ من أن يبيّن صفات الله التي يدعو لها بتكاملها وتناسقها، حتى لا يدور الحديث حول قضيَّتين مختلفتين في جو من الإبهام والاضطراب.

ولابد من الإيضاح كذلك أن الإيمان بالله الواحد الأحد يقتضي الإيمان بالوحي المتنزل، والملائكة، والنبيين، والبعث والحساب والجنة والنار، وسائر أمور الغيب التي نصّ عليها منهاج الله، حتى تكون هذه الموضوعات كلها تمثل قضية واحدة متكاملة، لا يمكن فصلها إلى أجزاء، فيؤمن الناس ببعضها ويكفرون ببعضها الآخر. نعرض القضية في طريق الدعوة قضيّة واحدةً متكاملة، وندعو النَّاس للإيمان بها كلها بترابطها وتناسقها وتكاملها. وتصبح من مسئولية الداعية أن يعرض هذا التكامل والترابط والتناسق على أساس من علمه بمنهاج الله آيات وأحاديث، قرآناً وسنة، يصبح من مسئوليته أن يضع النهج الناجح والخُطَّة المباركة إن شاء الله له ذلك، حتى يبلغ توحيد القضية وربط جميع أجزائها.

٥ ـ ملامح هامة في عرض قضية التوحيد :

يمكن أن يبدأ الداعية بعرض الألوهية وما تقتضيه من توحيد، وما تقتضيه على النـاس من عبـوديّة لها، ثم يمضـي شيئـاً فشيئـاً يربط الأجزاء من خلال الآيات والأحاديث مستعيناً بكل الوسائل المتوافرة لديه من علم صادق في باب من أبواب علوم الدنيا، أو مستعيناً بالآيات البينة في الدنيا والمبثوثة هنا وهناك، مقتفياً أثر القرآن الكريم في ذلك.

لابدّ للدَّاعية من أن يعي الواقع الذي يعيشه، ويدرك نماذج الناس ومشاكلهم، ولابد من أن يدرس من يدعوه إلى الإيمان، دراسة توفر عليه الوقت والجهد، وتقرِّب له بلوغَ القصد. ولابد للدّاعية من أن يعي من أحداث الواقع ما يعينه على تقديم الحجة والبينة، ولابد قبل ذلك كله من زاد كريم من منهاج الله.

أ ـ التوحيد مفاصلة في المواقف وحسم فيها :

واستمع إلى إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه كيف يحاجّون قومهم المشركين، من خلال التوحيد، يقطعون كلَّ روابط الجاهلية في ميدان الولاء والطاعة، في ميدان الحياة والعبادة، في ميدان الدعوة والبيان والجهاد:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة : ٤)

حسم ومفاصلة: **﴿إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون... كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده...﴾**. نعم بدأت العداوة والبغضاء وبدت بعد أن استنفذ المؤمنون كل وسائل الموعظة، وبعد أن اشتدَّ عدوان قومه المشركين عليهم، بعد أن سلكوا كل سبيل للإقناع والوعظ والإرشاد واللين وغير ذلك مما يمكن أن يفكر به اليوم رجل يريد أن يماري ويجادل. ولكنّ إبراهيم والذين معه كانوا من خلال جميع الأسـاليب والـوسائل يعرضون التوحيد الحقَّ النقـيَّ الخالص، دون أن تشوبه أيَّ شائبة. لم تكن الأساليب والوسائل تعني التنازل عن أي شيء من قواعد الإسلام والتوحيد.

وانـظر هنـا الشرط الأساسيَّ الذي وضعه إبراهيم عليه السلام والذين معه: ﴿... حتى تؤمنوا بالله وحده...﴾، وحده دون أي لون من ألوان الشرك أبداً أبداً.

واستمع إلى إبراهيم عليه السلام يخاطب أباه وقومه في موقف آخر:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

(الصافات: ٨٥ - ٨٧)

دعوة للتوحيد خالصة نقيّة! دعوة تُعرِّف معنى الأُلوهيّة ومعنى التوحيد، وتُعرِّف معنى الربوبيّة أيضاً. فحيثما تردُ لفظة الجلالة «الله» أو لفظة «إله» في كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ، فإن كلاً منهما يضيف ظلاً جديداً لمعنى الأُلوهية وجلالها. وحيثما ترد كلمة «رب» أو مشتقاتها فإنها تضيف ظلاً جديداً لمعنى «الربوبية».

وهي دعوة خالصة للتوحيد تعرِّف معنى عبوديَّة الإنسان لله ربِّ العالمين. فحيثما وَرَدت كلمة «أعبد» أو مشتقاتها أو ما في معناها مثل «أدعو»، في منهاج الله، فإنها ترسم ظلال هذه العبودية، عبوديّة الإنسان لربّه وخالقه، عبودية تنبع منها عزّة الإنسان في حياته الدنيا، وتنطلق منها عظمة الإيمان بالله الواحد الأحد، الله الذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى كلها.

ومن حقيقة الإيمان بالأُلوهية كما يعرضها منهاج الله، وبالربوبية، وبعبودية الإنسان لربّـه وخالقه، من هذا كله يبرز التوحيد الخالص، التوحيد الذي يفرض المفاصلة والحسم في المواقف والسلوك والعلاقات، ويبني روابط الإيمان وعُراه في حياة الإنسان على الأرض.

وإذا أشرنا هنا إلى الأُلوهية والربوبية وإلى عبودية الإنسان لربه وخالقه، كلاً على حدة، فإنها تأتي كلها في منهاج الله مترابطة متناسقة، لتقدِّم بتناسقها وترابطها معنى التوحيد الحق الكامل بجميع ظلاله وآفاقه. ونكتفي هنا بقبسات من كتاب الله لنبيِّن هذا الترابط والتناسق:

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

(غافر: ٦٥، ٦٦)

لقد رسمت لنا هاتان الآيتان الكريمتان بعض ظلال الأُلوهية والربوبية والعبودية

على ترابطها وتناسقها كلها فيما بينها، ترابطاً وتناسقاً معجزاً يحمل معه قوة اليقين، وعظمة الخشوع، وجلال التوحيد.

ويجب أن يوضح الداعية هنا من خلال الآيات والأحاديث حدود الإنسان المخلوق، وحقيقة العلاقة بين العبد المخلوق والربّ الخالق، الله الذي لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون.

ب ـ الأسلوب القرآني يقرع الفكر والشعور :

لا نقصد بتعريف الألوهية وتوضيح أسماء الله الحسنى أن يعدّد الداعية الأسماء الحسنى أو الصفات تعداداً متتالياً كأنها قائمة. كلّا إننا نقصد إلى أن يوضح الداعية ذلك بالأسلوب القرآني، الأسلوب الذي يربط صفات الله بآياته في الكون، وسننه في الحياة، وقضائه وقدره، وبالوحي والنبوة والرسالة، ويربط ذلك كله مع منهاج الله، قرآناً وسنّة نقصد إلى أن يعرض الداعية ذلك كله عرضاً يلمس النفوس والقلوب، ويقرع الفكر والشعور، ويوقظ وينبّه، عرضاً فيه نبضات الحياة، وقوة التأثير وسلامة الحجة. ولا يستطيع الداعية بلوغ ذلك إلا بمقدار ما يحمل من زاد كريم من منهاج الله، وزاد من الواقع الذي يفهمه من خلال منهاج الله.

جـ ـ مطابقة سلوك الداعية لقوله :

كذلك لابُدّ للداعية أن يوضِّح أهم مظاهر صدق الإيمان والتوحيد، حين تُجلَى هذه المظاهر في ممارسة إيمانيّة واعية في واقع الحياة. لابد من أن يجلو الداعية جلال التوحيد، وجمال الإيمان، وعزة العبوديّة لله رب العالمين، وراحة الخشوع، في كلمته وخطوته وموقفه، في لينه وحزمه.

د ـ الولاء الخالص لله : (١)

إن أهم مظاهر التوحيد في الممارسة الإيمانية هو الولاء، الولاء الخالص الصادق لله سبحانه وتعالى، حين تتجه النيّة والعزيمة والحبّ إلى الله في كل عمل ابن آدم. إن الولاء هو أخطر مظاهر التوحيد في الممارسة الإيمانية. ولا يعرضُ الولاءَ شيء كما يعرضه منهاج الله وكل ولاء يقوم في الحياة الدنيا يجب أن ينبع من الولاء لله رب العالمين،

(١) يراجع كتاب لقاء المؤمنين ـ الجزء الأول وكتاب العهد والبيعة وواقعنا المعاصر.

ويرتبط به وينطلق معه. من هذا الولاء الصادق الصافي لله يقوم الولاء بين المؤمنين حتى يظلَّ ولاءً ربّانيّاً لا يتحول هنا أو هناك إلى عصبية جاهلية تصطدم مع حقيقة التوحيد. ومن هذا الولاء لله يقوم برُّ الإبن بوالديه، ورحمة الكبير للصغير، واحترام الصغير للكبير، ومنه أيضاً تمتدُّ معاني الأُمومة والرحم والجوار.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٧)

ويتأكد هذا المعنى في كتاب الله في آيات كثيرة وسور عديدة، وفي كل تأكيد تمتد ظلال جديدة للولاء. فآيات تنهي نهياً حاسماً عن أي ولاء بين المؤمنين وأهل الكتاب من يهود أو نصارى. وآيات تقطع كل ولاء مع الكفار. ولننظر في ظلال أخرى مع آيات الولاء:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾
(الأنفال: ٧٢ ـ ٧٥)

فهنا يرتبط الولاء بين المؤمنين بالولاء الخالص الصادق لله سبحانه وتعالى، من خلال الإيمان والهجرة والجهاد، ومن خلال الإيواء والنصرة، ومن خلال الرحم. وينقطع الولاء مع الكفار فبعضهم أولياء بعض. وأقصى ما يقوم مع الكفار احترام ميثاق في وقته وزمنه ولمدته.

وأما مع أهل الكتاب فتمضي الآيات جلية واضحة كذلك:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ (المائدة: ٥١)

وهكذا تمتد ظلال الولاء في كتاب الله حتى توفيه عرضاً ربانياً معجزاً. وما عرضنا نحن هنا إلا قبسات من كتاب الله.

هـ - حب الله ورسوله :

ويمتدُّ مع الولاء حبٌّ عظيم لله ولرسوله لا يعدله حبٌّ آخر أبداً. وبدون هذا الحبّ العظيم لا يكتمل الإيمان ولا تصدق ممارسته. واستمع لحديث رسول الله ﷺ :

عن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان. من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما. وأن يحبّ المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» (رواه مسلم)[1]

نعم! أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. فهذا هو الإيمان. وبغير هذا المستوى من الحب يضطرب الإيمان ويتناقض التصور، ولا تنهض أسس التوحيد. وسنجد في فصل مقبل أحاديث أخرى وآيات بينات عن الحبّ ومعناه في ظلال التوحيد.

و - الرجاء والدعاء، والخشية والخشوع، والتضرع واللجوء :

ومع التوحيد يصبح الرّجاء في الله وحده، والدعاء لله وحده، والخشية من الله وحده، والخشوع والتضرع إليه. ولنعش مع ظلال الآيات الكريمة تعرض لنا هذه الصور من جلال التوحيد:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر : ٢، ٣)

هكذا يكون التوحيد: ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين، ألا لله الدين الخالص﴾، تأكيد وتأكيد حتى تثبت القضية في القلب.

﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (الزمر : ٥٤)

وفي سورة الزمر يتكرر تأكيد هذا المعنى بصورة ملحّة قوية:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ (الزمر : ٦٤)

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (الزمر : ٦٦)

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ

(١) صحيح مسلم: كتاب (١). باب (١٥). حديث (٤٣/٦٧).

﴿ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ (الأعراف : ٢٠٥)

هكذا يحرِّك التوحيد قوى الإنسان المؤمن دعاءً وتضُّرعاً وخيفة، في كل وقت حتى يظل لسانه رطباً بذكر الله، وقلبه متصلاً بالله خاشعاً لله.

وكذلك:

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ (الأعراف : ٥٥)

إنها الإنابة والخشوع، والخشية والرجاء، والحب والصدق، والذكر الممتد في حياة الإنسان، ذكرٌ يمده التوحيد شعائر وتوبة واستغفاراً وسعياً وجهاداً.

ويأتي حديث رسول الله ﷺ، حديثه الجامع عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما يرويه الترمذيّ، يأتي هذا الحديث العظيم ليضع التوحيد في صورته المشرقة، ترويه لنا النبوّة لتعلِّم البشريّة كلها، لتخبت القلوب، لتخشع النفوس، ولتنيب:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنتُ خلفَ النبيّ ﷺ يوماً فقال: «ياغلام! إني أُعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأُمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصحف» (رواه أحمد والترمذي)[1]

تجتمع معاني التوحيد هنا لتطلق قوى الإنسان المؤمن، بالدعاء والسعي، وتوجه دعاءه وسعيه كله إلى الله سبحانه وتعالى، إلى الله الواحد الأحد، فترتبط المعاني مع الآيات الكريمة: ﴿فاعبد الله مخلصا له الدين﴾. ارتباط تناسق وتكامل في منهاج رباني.

وفي حديث آخر صورة مشرقة لعظمة اللجوء إلى الله وجمال الخشوع في ذكره:

عن البراء أن الرسول ﷺ قال: «إذا أخذت مضجعكَ فتوضأ وضوءك للصلاة ثمَّ اضطجع على شقِّك الأيمن ثمَّ قل: اللهمَّ أسلمتُ وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رهبة ورغبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلتَ وبنبيك الذي أرسلت، فإن مُتَّ في ليلتك مُتَّ على الفطرة» قال: فردَّدتهنَّ

(١) سنن الترمذي: كتاب (٣٨). باب (٥٩). حديث رقم (٢٥١٦).

لأستذكره، فقلتُ: آمنتُ برسولك الذي أرسلتَ، قال: «قل آمنتُ بنبيّكَ الذي أرسلت».
(رواه الترمذي)[1]

وتتوالى أحاديث رسول الله ﷺ تعرض كذلك جوانب التوحيد، وتفصِّل بعض ما ورد في كتاب الله. وتتوالى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تعرض كل ظلال التوحيد في حياة الإنسان المؤمن، مما ذكرنا قبسات منه أعلاه، ومما لم نذكره. ولا نستطيع أن نورد هنا كل جوانب التوحيد وظلاله، ولكنَّ منهاج الله هو وحده الذي يعرض ذلك كله عرضاً معجزاً، ولا غناء للإنسان عنه أبداً.

ولا يعرض منهاج الله قضية التوحيد لتنحصر في كلمات وتمتمات. كلا! إنه يعرضها قضيّة ممتدَّة في جميع ميادين الحياة، تبتدىء من النجوى مع نفسك، وتمتدُّ إلى أُسرتك وجارك وأُمتك، وإلى سعيك ووظيفتك، وإلى جهدك وجهادك، وإلى الشعائر والدعاء، وأبواب العبادة كلها، وحياة المؤمن كلها عبادة ما أطاع الله فيها.

وسيلي في فصل مقبل حديث عن التوحيد والممارسة الإيمانية، لنرى التوحيد في واقع حياة الإنسان، يبني الخير والصلاح والسعادة، حيث يبني الشركُ شرّاً في الأرض وفساداً بين الناس.

تمتدُّ قضية التوحيد في حياة الإنسان لتربط دنياه بآخرته، ولتكون هي الحقيقة الأُولى في الكون كله. إنها تمتد في جميع ميادين نشاطه لتطلق طاقاته وتوجهها، وتُنمِّيها وتُنظمها. إنها تطلق ميدان السياسة وتنظمه. فالسياسة اليوم بين الدول غدر وكذب وخداع، وفي الإسلام وفاء وصلاح وأمانة. وتدخل قضيّة التوحيد ميدان الاقتصاد لترسي قواعد الإصلاح ومناهج العدل، والاقتصاد اليوم نهب واغتصاب وسرقات، وظلم وظلمات. ويدخل التوحيد ميدان الحكم ليبسط الأمانة والرعاية والقسط بين الناس، ولينشر دين الله في الأرض، ومن الحكم اليوم في الأرض إلحاد وعلمانية وشرك، وعدوان وطغيان.

ز ـ الشهادتان والعهد مع الله:[2]

هذا هو التوحيد الذي نريد أن نبيِّنه للناس. إنه يمثِّل قضيّة لا تحتاج إلى برهان

(١) سنن الترمذي: كتاب (٤٩). باب (١١٧). حديث (٣٥٧٤).
(٢) يراجع كتاب لقاء المؤمنين ـ الجزء الأول وكتاب العهد والبيعة وواقعنا المعاصر.

وإثبـات، فهي بداهـة الحياة، وحقيقـة الكـون، وأسـاس الوجود. وهي في فطرة الإنسان، غُرست فيه قبل أن يولد وهو في عالم الذرّ، يُولَد عليها لتكون معه أساس صلاحه في حياته. وسنعرض لهذه القضية في الفصل المقبل إن شاء الله.

إنها غُرست في فطرته عهداً أخذه الله على بني آدم وهم كلهم في عالم الذر، عهداً أخذه الله على آدم أولاً، ثم على بني آدم وهم في صلبه. ثمَّ تأكد العهد مع كل قوم وكلِّ رسالة، وتأكد مع كلِّ نبي ورسول. إنه عهد عظيم هو محور حياة الإنسان في الدنيا، ومحور حسابه في الآخرة إنه عهد قام على شهادتين عظيمتين قامتا بين يدي الله: شهادة «أن لا إله إلا الله»، وشهادة «أنَّ محمداً رسول الله». أما الشهادة الأولى فتعرضها لنا سورة الأعراف:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤)

شهـادة بين يدي الله عظيمـة شهـدهـا كل إنسان وهو في صلب أبيه آدم عليه السلام. شهادة ماضية إلى يوم القيامة ليقوم عليها التوحيد في فطرة كل إنسان.

والشهادة الثانية تعرضها سورة آل عمران:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (آل عمران: ٨١)

شهادة عظيمة شهدها الأنبياء والمرسلون كلهم: «محمدّ رسول الله» وفي التفاسير يرد أقوال بعض الصحابة رضـي الله عنهم وبعض التابعين في هذه الآية. وكلها تدور حول قولين: إما أن المعنى أن الله أخذ ميثاق النبيين أن يصدِّق بعضهم بعضاً، وإما أن يصدِّقوا كلهم بمحمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين. وكلٌّ من المعنيين يؤكد المعنى الآخر ويؤدي إليه. والقول الأول هو قول طاووس والحسن البصريّ وقتادة. والقول الثاني هو قول علي بن أبي طالب وابن عباس رضـي الله عنهم.

شهادتان عظيمتان يقوم عليهما التوحيد. شهادتان هما محور العهد والميثاق. وهذا العهد يضم كل شروط التوحيد التي غرست في فطرة ابن آدم كما سنعرض في الفصل المقبل إن شاء الله.

وهذا العهد والميثاق هو العهد الذي نسيه المشركون والكافرون والمنافقون، وهو العهد الذي يجب أن تظلَّ الدعوة الإسلامية تذكر به، حتى يعود إلى إشراقه، وحتى تعود عهود ابن آدم كلها نابعة منه مرتبطة به[1].

وفي واقعنا اليوم غاب هذا العهد عن كثير من القلوب، وتفلَّتت منه كثير من النفوس، وانفصلت عنه عهود الناس وعقودهم، واضطربت العلاقات، وانتشر الفساد.

٦ ـ موجز للتأكيد والتذكير:

١ ـ إن الوهم والانحراف يفرز صوراً شتَّى للأُلوهية، صوراً مضطربة تدفع أرباباً متفرقين، يُلبسها الوهم صفاتٍ بشريّة.

٢ ـ لذلك يجب عرض قضية التوحيد من كل جوانبها نقية من الانحراف.

٣ ـ ومن أجل ذلك يجب عرض صفات الله وأسمائه الحسنى من خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

٤ ـ عند جدال المشركين، فإنهم يحاولون الانحراف بالجدل عن قضية التوحيد وصفائه، والخوض في موضوعات جانبيّة، والتلاعب بالألفاظ.

٥ ـ فعلى الداعية أن يحرص على نهج كريم في عرضه لقضية التوحيد، يمكن أن نبرز أهم نقاطه:

أ ـ التوحيد مفاصلة في المواقف وحسم.

ب ـ يستفيد الداعية أولاً من الأُسلوب القرآني ليتعلم كيف يقرع الفكر والشعور وهو يخاطب الناس.

جـ ـ يحرص الداعية على أن يلمس الناس حقيقة التوحيد في سلوك الداعية

(١) يراجع كتب: لقاء المؤمنين، العهد والبيعة وواقعنا المعاصر، منهج المؤمن بين العلم والتطبيق، إلى النهج والممارسة الإيمانية.

ونهجه وعمله، كما هو في دعوته وحديثه.

د - لابد من أن يبرز الولاء الخالص لله وأهميته في معنى التوحيد.

هـ - وينشأ عن التوحيد وعن الولاء أن يكون حب الله ورسوله هو أعلى حب في قلب المؤمن الصادق.

و - يبرز الداعية أن من أهم معاني التوحيد أن يكون الرجاء بالله والدعاء لله، والخشية من الله، والخشوع لله، والتضرع واللجوء إليه في عبودية صادقة.

ز - يبرز الداعية أهمية الشهادتين والعهد مع الله.

الباب الثاني

الإيمان والفطرة وعوامل حمايتهما

الفصل الأول
الإيمان والتوحيد والفطرة

١ ـ تمهيد :

الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه، واليوم الآخر والبعث والحساب والجنة والنار، وبما جاء به النبيون والمرسلون من عند ربهم، الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو، وبالرسالة الخاتمة رسالة محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، والإيمان بأن كل ما جاء به محمد ﷺ وحياً من عند الله هو حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا الإيمان هو الذي ندعو إليه، ندعو إليه البشريّة كلها، الناس كلّهم، عربيِّهم وأعجميهم، مهما اختلفت الأجناس والألوان واللغات، والأماكن والأزمان.

ونؤمن كذلك أن الدعوة إلى هذا الإيمان واجب على كل مسلم قادرٍ عليه، واجب على كل مسلم يحمل الزاد اللازم لهذه المهمة العظيمة، ويحمل مع الممارسة زاد الخبرة والمران، وهي واجب في حدود الوسع والطاقة.

ونؤمن كذلك أن الدعوة إلى هذا الإيمان هي أول أهداف المؤمن في الحياة الدنيا على طريق الجنة. وهي كذلك أول أهداف الدعوة الإسلامية الثابتة، وقد بينا ذلك بالتفصيل في كتاب لقاء المؤمنين ـ الجزء الثاني.

ونؤمن كذلك أن الثمرة تنضج، والبركة تزداد، والخير يمتد، حين تتناسق جهود الدعاة وتتكامل، دون أن تتصادم وتتمزّق، حتى تقوم في الأرض أمة مسلمة واحدة، ودعوة إسلامية واحدة، تعبد رباً واحداً.

ونؤمن كذلك أن المسئولية في هذا الأمر عظيمة، والحساب بين يدي الله عظيم، وأمام المسلمين فسحة في الحياة الدنيا لمراجعة حساب وتصحيح موقف وخطوة، ومحاسبة نيّة وعزيمة، ومراجعة علم وزاد، ونهج وخُطّة.

من أجل ذلك كله، نضع هذه الدراسة بين يدي العاملين عسى أن يكون فيها كلمة نصح على درب طويل. من أجل ذلك نعرض هنا بعض جوانب الإيمان لا كلها. فلن يستطيع أحد أن يعرض جوانب الإيمان كلّها وقضاياه، إلا منهاج الله

وحده، قرآناً وسنة. وهنا نعرض قبسات على قدر ما نستطيع لنذكِّر أنفسنا، ونذكر غيرنا. نعرض قبسات من جوانب الإيمان والتوحيد وقضاياه، ونؤكد أن ما نذكره هنا هو للتذكير، حتى يعود المؤمن إلى منهاج الله فيجد هناك الصورة المتكاملة المتناسقة على صورة معجزة لا يستطيع أحد من البشر أن يَبْلُغَها، أو يعود الإنسان ليجد الآيات البيّنات في نفسه وفي الكون.

ونشير هنا كذلك إلى ناحية من نواحي الإعجاز في منهاج الله، مما يتعلق بهذه القضية خاصة، وبسائر القضايا عامة. ذلك أن الإعجاز في منهاج الله نلمسه في نواح كثيرة منها:

أولاً: إنه معجز إعجازاً لا يستطيع أحد من البشر أن يبلغ تناسقه وتكامله، فهو فوق طاقة البشر وقدرتهم، لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله.

ثانياً: إنه مُيَسَّرٌ مع ذلك تيسيراً معجزاً حتى جعله الله للناس كافة على اختلاف وسعهم، فيأخذ كل إنسان من منهاج الله على قدر وسعه وعلى قدر مسئوليته وأمانته:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠)

لذلك كله، نعتبر منهاج الله هو المصدر الأول والرئيسي الذي يجب أن يلتزمه كل مسلم قادر، على قدر وسعه وطاقته، وعلى قدر مسئوليته وأمانته، وأن يستعين من أجل ذلك بكل الوسائل والإمكانات التي يوفرها له واقعه، من علماء ومعاهد وأصحاب وغير ذلك.

٢ ـ الإيمان والتوحيد هما قضية الفطرة أولا:

إن قضية الإيمان هي قضية الإنسان في جميع العصور حتى قيام الساعة، وفي جميع الأقطار والأماكن، وفي جميع الأجناس والألوان، وفي جميع المستويات. إنها قضية الإنسان الجاهل والعالم، الغني والفقير، العبقري والبليد، العربيّ والأعجمي، قضية الإنسان القديم الموغل في القدم في التاريخ، وقضية إنسان اليوم، وقضية الإنسان حتى قيام الساعة. إنها قضية المهندس والطبيب والإداري والاقتصادي وعالم الفلك والجغرافيا والتاريخ وغيرها من العلوم، وقضية الجاهل كذلك.

لابد من أن ندرك هذا الامتداد في قضية الإيمان والتوحيد، حتى نستطيع أن نضع القضية في صورتها الصحيحة الإيمانية. لابد من أن ننفي عنها الحدود الضيّقة، والحصر الخانق. لابد من أن ندرك هذا الامتداد ونحن نتدبر هذه القضية، وكذلك حين ندعو الناس إليها. فحين تدعو الأوروبي أو الأمريكي أو الأفريقي أو الآسيوي، أو أيِّ إنسان آخر، أيها الداعية، يجب أن تُشعره بأن القضية قضيته هو كما هي قضيتك، وكما هي قضية كلِّ إنسان. لابد من أن تثير الشعور الحقَّ، وتوضح هذا التوضيح الصادق، حتى تُحرِّك فيمن تدعوه جميع حوافز المسئوليّة وخطورتها، ونوازع الفطرة وأمانتها.

لابد من أن تثير مع من تدعوه هذا الامتداد للقضية حتى يشعر بمسئوليته هو، وتثير كذلك خطورة القضية وأهميتها كما عرضناها في فصل مستقل.

لابد من أن نثير هذا الشعور والتدبُّر حتى يعي من تدعوه، وحتى يعي كل إنسان مسئوليته الخطيرة في هذا الأمر، ذلك أنَّه لا يُغني أحد عن أحد شيئاً يوم القيامة، لذلك كان التوحيد بكل امتداده قضية الفطرة أولاً كما سنفصل فيما يلي:

أ ـ يعرضها القرآن الكريم بامتدادها الإنساني:

وحين يعرض القرآن الكريم هذه القضية الخطيرة يعرضها بامتدادها الإنساني، وبصورتها الواسعة. فتراه في هذه القضيّة يخاطب «الإنسان»، أو يخاطب «الناس»، أو يخاطب «بني آدم»، ويتأكد هذا النداء مع كل قضية إيمانيّة تمتد هذا الامتداد. ولنستمع إلى آيات الله:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (الانفطار: ٦، ٧)

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ (الانفطار: ١٩)

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦)

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ١٠٤)

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ (يونس: ١٠٨)

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. (الأعراف: ١٥٨)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. (البقرة: ٢١)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)

﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١)

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة: ٣٦)

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا...﴾ (العنكبوت: ٨)

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ...﴾ (الأعراف: ٢٧)

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف: ٣٥)

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢)

بهذا الامتداد الإنسانيّ الكبير يعرض القرآن الكريم قضية الإيمان والتوحيد، امتداداً يشمل الزمان والمكان والأجناس والألوان حتى تقوم الساعة. وبهذا الامتداد يجب أن نفهم نحن قضية الإيمان، وبهذا الامتداد يجب أن نعرضها وندعو لها. وخطورة هذا الأمر تبرز حين يريد بعض الناس أن يجعلها قضية عصر محدود، أو مكان محدود، أو شعب واحد. إننا بهذا الحصر نُفقد القضيّة جلالها وعظمتها، ونُفْقِدها شيئاً من قوتها وحجتها، وندخل في التصوّر لوناً من ألوان التضارب. فلابدَّ للداعية من أن يعي هذا الأمر ويدرك خطورته في حياته هو خاصة، وفي حياته وسلوكه وهو يدعو. ولابد كذلك من أن ينطلق كلامه وسلوكه ومواقفه أمام الناس من هذا الامتداد، حتى يطابق سلوكُه ونهجُه قوله وكلمته، وحتى يطمئن الناس إليه وإلى دعوته.

وفي ما يعرضه القرآن الكريم لا نجد تكراراً بمعنى التكرار المجرّد الذي يأتي دون حكمة ربانيّة وغاية. ولعل من حكمة ما قد نظنه تكراراً هو أولاً تأكيد هذا التصور لأهميته وخطورته. وهو ثانياً إضافة ظلال جديدة مع كل آية، حتى إذا أُخِذَت الآيات كلُّها، تجمعت الظلال لتقدم الصورة على تكاملها وتناسقها المعجزين.

ففي آية يرتبط النداء الربانّي الممتد بالخلق، بقدرة الله على الخلق، بقدرة الله الذي خلق الإنسان فَسوَّاه فعدله، قدرة يجب أن ينزوي معها غرور الإنسان وخداعه لنفسه. ويرتبط النداء الممتد في آية أُخرى مع جهد الإنسان وكدحه ومصيره إلى الله. وفي آية أُخرى يرتبط بيوم الحساب يوم لا تغني نفس عن نفس شيئاً. ويرتبط هذا النداء كذلك في الآيات بالحقّ والعبادة والتقوى، وبالعهد الذي أخذه الله من بني آدم، ويرتبط بالتذكير بفتنة الشيطان، وبالجنة، وهكذا حتى تتكامل الصورة إعجازاً في علم، وإعجازاً في بيان، وإعجازاً في تناسق.

إننا نُلحُّ على هذه القضيّة لشدَّة ما وقع فيها من أخطاء في حياة المسلمين، في هذا التاريخ الممتد، ولخطورة ما أورثته هذه الأخطاء من مصائب ونكبات، وانحراف في حقيقة الممارسة الإيمانية، سواءً أكان ذلك في موقف الفرد، أو الجماعة، أو الأمة، وسواءً أكان ذلك في مواقف اجتماعية، أو خلقية، أو سياسية، أو اقتصادية، أو غير ذلك.

ولكننا في الوقت نفسه نشير ونؤكد أننا لا نأخذ هذا الجانب والتصور وحده من قضية الإيمان منعزلاً عن سائر الجوانب، ولكن يجب أن نأخذ جوانب الإيمان على تكاملها وتناسقها، كما يعرضها منهاج الله. ونحن نعرض هنا قبسات من هذا الجانب أو ذاك حتى نثير الحافز لينهض الإنسان إلى منهاج الله يأخذ منه صحبة عمر وحياة.

من هذا التصوّر القرآني، وهو أن الإيمان مسئولية كل إنسان مكلف، ومن أن قضية الإيمان هي القضية الكبرى في حياة الإنسان كما عرضنا سابقاً، ومن أنها هي القضيَّة التي تحدِّد مصيره وجزاءه، من هذا كله نخرج بحقيقة واضحة: هي أن الإيمان، برحمة الله وعدله وفضله، ميَسَّرٌ للناس كلهم، ميسّرٌ للإنسان. ذلك لأن رحمة الله وحكمته وعدله أعظم من أن يكلف عباده الذين خلقهم بتكاليف أعلى من

قدرتهم، ثم يحاسبهم عليها:
﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ......﴾ (البقرة : ٢٨٦)

ب - مسئولية كل إنسان عن التوحيد تجعل التوحيد قضية الفطرة :

فالإيمان إذن قضية إنسانيّة عامة، وهي مسئولية كل إنسان، هيأ الله أسباب بلوغها لكل إنسان مكلف في الحياة الدنيا. وهو محاسب على ذلك يوم القيامة بين يدي الله. ويغفر الله لمن يشاء من عباده ما شاء من ذنوبهم التي يموتون عليها، إلا الشرك فمن مات عليه فلا يغفر الله له ذلك أبداً:
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾
(النساء : ٤٨)

فإذا كان كل إنسان مكلفٍ في الحياة الدنيا هو مسئول عن قضية الإيمان، وهو محاسب عليها حساباً يحدد مصيره وجزاءه، إما إلى جنّة وإما إلى نار، فلا تكون هذه القضية إذن محصورة في علوم الرياضيات، يدركها طائفة من الناس ويجهلها الكثيرون، ولا في علوم الفيزياء، ولا علوم الفلك، ولا الفلسفة أو غيرها، مما هو منوط بنفر من خلق الله، يجهله الكثيرون، ومما هو مرتبط بعصر من العصور مجهول في عصور سابقة طويلة. وفي كل علم من هذه العلوم لاشك باب يؤدي بأصحابه، إذا هداهم الله، إلى الإيمان، ولكنه باب خاص بطائفة من الناس.

فقضية الإيمان والتوحيد لا تنحصر في قضية علميّة ولا في معادلات رياضية ولا مناقشات فلسفية. إنها تتعلق بأمر عام، بأمر ميسور للناس كلهم، للإنسان عامة. لذلك كله كان الإيمان قضية الفطرة، فطرة الإنسان.

إنها قضية الفطرة أولاً وقبل كل شيء. إن الفطرة التي فطر الله الناس عليها هي الوسع العام للناس، وهو القدرة المشتركة بين جميع الناس، وهي طاقة الإنسان التي تحمل الإيمان منذ أن يولد الإنسان. فهي إذن وعاء الإيمان. هي الحقيقة المشتركة بين الخلق كلهم:
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم : ٣٠)

فهذا الدين، وهذا الإيمان هو فطرة الله التي فطر الناس جميعهم عليها، فطرهم على التوحيد وقواعد الإيمان وأسس العبادة.

﴿وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس : ٢٢)

فارتبطت العبادة هنا بالفطرة، وارتبط بها كذلك قاعدة من قواعد الإيمان: ﴿وإليه ترجعون﴾.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

(الأنبياء : ٥٦)

إنها شهادة الفطرة السوية: ﴿وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾. إنها شهادة ممتدة مع العصور والأجيال، فطرة تخشى الله، تؤمن بالله، تعبد الله وحده:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

(الأنعام : ١٤، ١٥)

نعم ﴿وأمرت أن أكون أول من أسلم﴾! إنها استجابة الفطرة السويّة، النقيّة، إنها الفطرة التي أودعها الله طبيعة الإيمان وسلامة التوحيد، عهداً ثابتاً إلى يوم القيامة، أخذه الله من بني آدم من ظهورهم، أخذه من ذريتهم:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(الأعراف : ١٧٢ - ١٧٤)

عهد عظيم وميثاق عظيم ماضٍ إلى يوم القيامة: ﴿... وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا...﴾.

ولا ينقض هذا العهد شيءٌ أبداً، وقد جعله الله في فطرة بني آدم وفي طبيعة خلقهم.

ولا يُقْبَل من الناس عذر ينقض هذا العهد والميثاق: ﴿... أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾. فهذه حجّة باطلة وعذر مرفوض.

ولا يقبل منهم أيضاً أن يقولوا: ﴿إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم. أفتهلكنا

بما فعل المبطلون﴾ فهذه حجة باطلة أيضاً. وهذه الحجة أو تلك باطلة لأن العهد والميثاق أخذه الله من ذرية بني آدم كلهم. ويفصِّل الله سبحانه وتعالى هذا الأمر على هذا النحو من التفصيل لعلهم يرجعون إلى الحق المشرق.

ويأتي حديث رسول الله ﷺ ليصوّر لنا هول الندامة يوم القيامة لمن أبى إلا أن يُشرك:

فعن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك (أحسبه قال) ولا أُدخلك النار. فأبَيْتَ إلا الشرك». (رواه مسلم والبخاري)[1]

لا يملك الإنسان في هذا الموقف إلا أن تهلكه الندامة، كما يهلكه العذاب.

جـ ـ الفطرة السوية ترد على المشركين وتدفع حجتهم:

كلّ حجة يحملها الشرك هي حجة باطلة أمام إشراقة الفطرة السويّة، والعهد الموثَّق، إشراقة تمنع الناس من أن يتبعوا آباءهم على عمى وضلال، وتدفع الناس ليمضوا على بينة وهدى، ويقين ورضا. كل حجة يحملها الشرك هي حجة باطلة مردودة على أصحابها أمام إشراقة الفطرة، وبداهة الحق، ويقين العهد:

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام: ١٤٨، ١٤٩)

إنها حجة باطلة أمام الفطرة السوية التي آمنت بالله وعرفت أن الله على كل شيء قدير، وأنه فعال لما يريد، وأن إرادته الحق والعدل فقد حرّم الظلم على نفسه، فلو شاء الله لهدى الناس جميعاً، ولو شاء لفعل غير ذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى قضت مشيئته ورحمته، وقضى عدله وحكمته أن يخلق الناس كلهم على الفطرة والإيمان والتوحيد، ثم ينحرف بعض الناس عن الإيمان والتوحيد بما كسبت أيديهم، وما ران على قلوبهم، وبما حجب عنهم السمع والبصر وأعمى الفؤاد، ذلك بما كسبت

(١) صحيح مسلم: كتاب (٥٠). باب (١٠). حديث (٢٨٠٥/٥١).

أيديهم، وبما ظلموا هم أنفسهم، فالله لا يظلم الناس شيئاً.

هذه الحجة التي يأتي بها المشركون تحمل معها التناقض، والجدل الباطل. فمادامواْ يُقرُّون بقدرة الله سبحانه وتعالى إلى هذا الحد الذي لو شاء معه ﴿لهداهم أجمعين﴾ ماداموا يقرون بذلك فليؤمنوا بالله، وليسلموا له، وليعودوا إلى فطرة صادقة صافية، ترشدهم إلى أن الأمر كله لله يقضي بما يشاء ومشيئته الحقُّ والعدل.

ولقد ردّ القرآن على جميع حجج الكافرين. ويظل الردّ القرآني يجعل من الفطرة السوية الحجةَ البالغةَ القاطعة.

والفطرة السوية تعلم أن الله لا يرضى لعباده الكفر، ولكنه يرضى لهم الإيمان والشكر:

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

(الزمر : ٧)

إن الفطرة السليمة تعلم علم اليقين ذلك كلّه، فهي فطرة الله التي فطر النّاس عليها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ما من مولود إلا يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: اقرأوا إن شئتم: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ الآية (رواه مسلم)[1]

ويشير الحديث الشريف هنا إلى أثر البيئة والواقع في حياة الإنسان، حين يشير إلى ذلك بأثر الوالدين. ولكن يجب أن ننتبه إلى أن هذه إشارة تبين أحد العوامل الماديّة التي يُبْتَلى بها الإنسان، فتكشف حقيقته لتقوم عليه الحجة. فهي لا تعني تسويغاً لانحراف الفطرة أو فسادها، ولا تسقط مسئولية الإنسان حين ينحرف عن الإيمان. ولقد سبقت الآية الكريمة من سورة الأعراف توضح ذلك.

ويعظم أمر الفطرة في نظر الإسلام، يعظم حتى يصبح الإيمان بداهة وفطرة،

(١) صحيح مسلم: كتاب القدر (٤٦). باب (٦). حديث (٢٦٥٨).

وعهداً وميثاقاً، وشهادة ماضية في بني آدم إلى يوم القيامة. هكذا تصبح قضية الإيمان والتوحيد بعد أن غرسها الله في فطرة بني آدم، وبعد أن أشهدهم على أنفسهم، وبعد أن قالـوا شهدنا، وبعد أن سبقت كلمة الله ومضت سنته، فخلق كل إنسان على الفطرة، بعد هذا كله تصبح الصورة جلية مشرقة، متناسقة مترابطة، وتصبح قضية الإيمان بديهة حاضرة، وفطرة طاهرة.

د ـ الفطرة هي منطلق حجة المرسلين :

وتصبح هذه البـداهة والفطرة هي حجة الأنبياء والرسل وهم يدعون قومهم، ويردُّون باطلهم: ولنستمع إلى هذا الحوار بين الأنبياء والمرسلين وبين أقوامهم وهم يدعونهم إلى الإيمان:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ (إبراهيم: ٩، ١٠)

ويمضـي الحـوار في سورة إبـراهيم يكشف طبيعـة الفـطرة المنحرفة وضلالها، ويكشف طبيعة الفطرة السوية. فالفطرة المنحرفة التي تركت عهدها مع الله تقول: ﴿... **إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب**﴾. فهذه فطرة انحرفت فتعطلت فيها قوى السمع والبصر والفؤاد، فلم تعد تذكر عهدها، ولم تعد ترى آية ولا تسمع موعظة. وتنتفض الفطرة السوية على درجة عالية من الدهشة لتقول لهؤلاء الكافرين: ﴿... **أفي الله شك**...﴾ إنه شيء يكاد لا يُصدَّق، فالإيمان بالله حقيقة فطرة، فكيف يكون فيها شك؟! ثم يثير الرسل بعد ذلك من آيات الله ما قد يوقظ فطرة نائمة، أو يذكر ناسياً، أو يهزّ ساهياً: ﴿... **فاطر السموات والأرض**...﴾. آية ظاهرة قوية توقظ وتقرع، وتحرك كل مشاعر الإنسان حتى تتحرك فطرته. ثم يذكر الـرسل بنعمة من نعم الله: ﴿... **يدعوكم ليغفر لكم**...﴾. ثم يأتي القرع والهول والنذير: ﴿... **ويؤخركم إلى أجل مسمىّ**...﴾ إنه أجل مسمى يثير بظلاله الموت وما

فيه من قوة قاهرة، ويثير كذلك البعث والحساب وما فيه من هول. فمن أنكر هول البعث والحساب أنى له أن ينكر أجل الحياة الدنيا، أجل الموت؟ وهو أجل مسمى لكل إنسان، هو حق أبلج لا يقوى أحد على إنكاره.

ونرى هنا كيف كانت الفطرة هي الحجة الأولى للرسل ﴿... **أفي الله شك**...﴾ وكيف كانت دعوة الرسل تحرّك الفطرة أو تذكر الإنسان بما هو مستودع فيها، أو تهزُّها وتقرعها عسى أن تستيقظ.

وكثيراً ما يتكرر في القرآن قوله سبحانه وتعالى: ﴿**لعلهم يتذكرون**﴾، ﴿**قليلاً ما تذكرون**﴾، ﴿**أفلا تتذكرون**﴾، ﴿**لعله يتذكر أو يخشى**﴾، ﴿**وليتذكر أولوا الألباب**﴾، ﴿**وما يتذكر إلا من ينيب**﴾، ذلك لأن الإيمان وقواعده مغروسة في الفطرة. والإنسان إنما يتذكّر عهداً موثّقاً مع الله، وتوحيداً يولد عليه الإنسان، وإيماناً هو في طبع وفطرة. وقد ينسى الإنسان! يُنسيه ما كسبت يداه من آثام، فتطغى الآثام أحياناً على فطرة. فإذا مسَّهم طائف من الشيطان، تذكَّروا حين تتحرك الفطرة وتعمل فيها القوى المستودعة، فيعمل بعد ذلك السمع والبصر والفؤاد:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

(الأعراف: ٢٠١)

فالفطرة هي وعاء هذه القوى كلها، ووعاء غيرها كذلك، مما نعلم ومما لا نعلم، ولكنّ الله سبحانه وتعالى هو أعلم بخلقه، وهو يعلم السرَّ وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم كلَّ ما أودع في فطرة الإنسان وفي نفسه، على حكمة وعدل وتدبير، حتى تمضي سنته ويغلب أمره وتسبق كلمته. ولكن الله سبحانه وتعالى عرض لنا هذه القوى في آيات جامعة معجزة:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

(الشمس: ٧ - ١٠)

هذه النفس البشريّة ﴿«سوّاها﴾ الله سبحانه وتعالى. وتحمل لفظة ﴿سوّاها﴾ من الإعجاز ما لا نقوى على وصفه وتقديره. ﴿سَوّاها﴾ فأودعها من أسراره ما لا نُدْرِك إلا طرفاً منها. ولكنها نفس استوفت كل ما يلزمها من قوى وصفات حتى تؤدي ما

خُلقت لأجله. ويجمع الله لنا هذا كله بقوله: ﴿**فألهمها فجورها وتقواها**﴾. هذه هي محصِّلة القوى كلها. ثم تمضي حياة الإنسان منذ ولادته، وهو يحمل هذه النفس التي سواها الله، فعدل وأتقن على حكمة بالغة. وتكشف لنا هذه الآيات الكريمة مسئولية الإنسان التي حمَّله الله إياها، في أن يُزَكِّي نفسه أو يُدَسِّيها: ﴿**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**﴾. فجعل الله من قوى «الفطرة» و«إلهام النفس» ما يجعلها تحمل هذه المسئولية في الحياة الدنيا. إنها مشيئة الله، مشيئة الله العليم الحكيم، العادل البَرّ الرحيم، الذي لا يظلم، فقد حرَّم الظلم على نفسه. إنها مشيئة الله القوي العزيز، إنه فعَّال لما يريد.

إنَّ الإيمان الذي يُحاسَب عليه الإنسان، كل إنسان، يوم القيامة ولا يُقْبَل من أحدٍ عذر في شرك مات عليه أبداً، إن هذا الإيمان هو قضية الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فطرهم كلَّهم عليها، وأخذ من جميع بني آدم عهداً وميثاقاً على ذلك.

هـ - أسماء الله الحسنى تدل على أن التوحيد قضية الفطرة:

إن أسماء الله الحسنى نفسها تفرض أن تكون هذه القضية قضية الفطرة والبداهة، وسلامة التفكير وأول التدبّر. فمن أسماء الله الحسنى: هو الخالق البارىء المصور، ولا يعقل أن تكون هذه الصفات إلا لواحد أحد، وإلا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض. ويوضح القرآن الكريم لنا هذه البداهة بأسلوبه المعجز:

﴿بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝٩٠ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٠، ٩١)

والله يعلم كل شيء. يعلم ما في السموات والأرض، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ولا تكون هذه الصفات لمخلوق أبداً. وحيثما توافرت هذه الصفات أصبح حاملها إلهاً، وأصبح المخلوق خالقاً. وهذا ما ترفضه الفطرة والعقل وسلامة التدبُّر والتفكير. إنها قضية بداهة وفطرة.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا

كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾ (الحديد : ١ ـ ٦)

العزيز الحكيم، يحيي ويميت، على كل شيء قدير، الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، إلى الله ترجع الأمور، عليم بذات الصدور. . . ! إن هذه الصفات تمثل بعضاً من صفات الله الواحد الأحد. ولا يمكن أن تجتمع في أكثر من إله واحد له وحده ملك السموات والأرض. وبهذه الصفات وهذه الألوهية لا يُسأل عما يفعل. فإن الذي يُسأل هو المخلوق. فالمخلوق هو الذي يُسْأل عن فعله ويُحاسَبُ عليه. أما الخالق فيحاسبُ عباده الذين خلقهم:

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الأنبياء : ٢١ ـ ٢٤)

نجد في هذه الآيات الكريمة إعجاز التناسق، وإعجاز البيان، وإعجاز الحجة القاطعة. فلو كان في السموات والأرض آلهة إلا الله، لعلا بعضهم على بعض، ولذهب كل إله بما خلق، ولفسدت السموات والأرض. وتكشف لنا هذه الآيات الكريمة من سورة «المؤمنون»، و«الحديد»، و«الأنبياء»، شدة التناقض في منطق الشرك. فالألوهية تقضي بداهة الحق الكامل المطلق في التصرّف ﴿فعال لما يريد﴾ فلو وُجدت هذه الصفة في أكثر من إله، لتصرف كل إله بموجبها، ولفسد الكون. إنَّ تعدد الآلهة تُصوِّره الفطرة المنحرفة، والأهواء المريضة، والمصالح المتصارعة. إن بداهة الفطرة تقضي بالتوحيد الذي فُطرت عليه، والذي تكشفه طبيعة الكون وسننه التي لا تتعارض ولا يعلو بعضها على بعض.

و ـ القرآن الكريم يخاطب الفطرة :

ويمضي منهاج الله يخاطب الفطرة في الإنسان، يخاطب جميع القوى التي أودعها الله فيها، ليذكره بالإيمان الذي فطره عليه، وبالعهد الذي أخذه منه:

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (المؤمنون : ٨٤ ـ ٩٠)

لا يكاد السؤال يطرق آذانهم : ﴿قل لمن الأرض ومن فيها. . .﴾، حتى تجيب فطرتهم التي أودعها الله حقائق الإيمان : ﴿سيقولون لله. . .﴾ وهنا يخاطب سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ فيوجهه ليقول لهم : إذن كيف تنكرون؟ كيف تكفرون؟ كيف تفعلون هذا وأنتم تقرُّون أن الأرض ومن فيها لله، وأنتم تقرون أن الله بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه؟ فهم إذن كاذبـون. فقد أتيناهم بالحق الذي يعرفونه، ولكنهم أنكروه كاذبين، وقد أقروا بتناقضهم واعترفوا بكذبهم.

إن هذا الحوار يكشف لنا أن جانباً من فطرة الإنسان قد يظل سليمًا حين تنحرف الفطرة ويغلبها الفجور والشّر فهذا الجزء من الفطرة أقرَّ بالحقيقة الناصعة واعترف بها بالرغم من فجور طغى فذهب بالتقوى. ويؤكد القرآن الكريم هذه الصورة في أكثر من موضع وفي أكثر من حوار، مما عرضناه سابقاً في فصل «الانحراف عن التوحيد»، مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.
(لقمان : ٢٥)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.
(العنكبوت : ٦١)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (العنكبوت : ٦٣)

إقرار واضح صريح يخرج من الفطرة، يخرج من ذلك الجزء الذي لم يدمِّره الفجور، ولم تفسده الشهوة، ولم يعطله الهوى. هذا هو حال طائفة من الناس بقي فيهم مع انحراف فطرتهم بقيّة فيها ظلت سليمة. ولكن طائفة أُخرى من الناس عَمّ الفساد فطرتهم حتى لم يترك منها جزءاً. فلا يستطيعون أن يجيبوا على مثل تلك الأسئلة، ولا هم قادرين على تذكر أبسط الحقائق وأولى البديهيّات :

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ (الرعد : ١٦)

فحين لم تسعف الفطرة المريضة بالإجابة، أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يقرع فطرتهم بالتذكير، لعلها تتذكَّر أو تخشى: **﴿قل الله﴾**، **﴿قل الله خالق كل شيء﴾**، **﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾**. وكأن كلمة **﴿قل﴾** مطرقة تقرع النفوس الغافية لعلها تصحو!

ويمضي منهاج الله يخاطب الفطرة والنفس ويخاطب ما تحمل الفطرة من قدرات نفسيّة وعاطفية وعقلية حتى لا يترك ناحية إلا خاطبها وقرعها وحرك طاقاتها. خاطب العاطفة فرغّب وأرهب، وخاطب العقل ودعا إلى التدبر والتأمل. وحين خاطب العاطفة ورغّب، عالج العاطفة من جميع نواحيها، وأوصل لها البُشرَى مرتبطة بالحق، نابعة من الصدق، محوطة بالأمن والآمان:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ (يونس : ٦٢ - ٦٥)

أمن وأمان، وحماية وفوز، وبشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ذلك كله لأولياء الله، الذين آمنوا وكانوا يتقون. إنهم في حمى مكين، ومنعة وعزة ليست لغيرهم أبداً، ذلك لأنّ العزّة لله جميعا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (فصلت : ٣٠ - ٣٢)

شرطان أساسيّان لهذا الفوز ولهذه البشرى: **﴿قالوا ربنا الله﴾**، **﴿ثم استقاموا﴾**

وحين يُرغّب الله سبحانه وتعالى عباده ليقرع الفطرة ويذكّرها بالبُشرى والفوز والعهد الذي أخذه من عباده، فإنه كذلك يقرع الفطرة بالترهيب:

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾

وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ (لقمان : ٢٢ - ٢٤)

نعم عذاب غليظ! ترهيب يطرق القلب والعاطفة والفكر وكل نوازع الإنسان إنه يطرق الفطرة علّها تستيقظ.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾
(الأنعام : ٢٧ - ٣٠)

حسرة وندامة، وخزي وعذاب، عندما ينكشف أمام الكافرين هول النار، وهول الحساب، حتى لا مجال لإنكار، ولا فسحة لتوبة، ولا فرصة للعودة للدنيا.

وتمتد الآيات الكريمة في كتاب الله تطرق الفطرة وتقرعها بالترغيب والترهيب. ولكنها في الوقت نفسه لا تطرق جانباً واحداً منها، وإنما تطرق جميع جوانبها وطاقاتها. فإن خاطبت العاطفة والشعورَ في آيات، كما بيّنّا سابقاً، فهي تطرق الفكر وتخاطبه وتحرك قدراته وميادينه أيضاً:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾
(سبأ : ٤٦ - ٤٩)

وكذلك:

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران : ١٩٠، ١٩١)

بهذا الامتداد والاتساع، وبهذا الشمول، وبهذه القوة، وفي ظلال من الرحمة والترغيب، أو العذاب والترهيب، يقرع منهاجُ الله فطرةَ الإنسان، يقرع كل ما تحمل من قوى عاملة كامنة، عسى أن تعود الفطرة إلى سلامتها، فتتحرك قوى التقوى والإيمان، وتتذكر العهد والميثاق، ويضمر الفجور وينحسر الشر.

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يكون الإيمان والتوحيد في قلب الإنسان أقوى من أيِّ فتنة، وأي وسوسة، وأيّ شيطان. إنه يريد أن يكون الإيمان قوياً حتى يرى المؤمن ما لا يراه الكافر، وينهض إلى ما لا ينهض إليه الكافر. حتى «الدجّال»، لا يَرْضى الله لعباده المؤمنين أن يُفتَنوا به أبداً، مهما أخرج من فتنة وخداع، ذلك لأن الإيمان هو إيمان فطرة ثابتة، إيمان مغروس فيها:

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: حدّثنا رسول الله ﷺ يوماً حديثاً طويلاً عن الدجال فكان فيما حدثنا قال: «يأتي الدجال وهو محرّم عليه أن يدخل ثقاب المدينة، فينتهي إلى بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خير الناس فيقول له: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر. فيقولون: لا، قال: فيقتله ثم يحييه. فيقول حين يحييه والله ما كنت فيك قطُّ أشدَّ بصيرة مني الآن. قال: فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلَّط عليه».

(أخرجه الشيخان)[1]

وفي روايات أُخرى عند الشيخين وغيرهما ما يؤكد هذه الناحية الهامة أن المؤمن هو الـذي لا يخدعـه الدجال «**... مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب**». وفي رواية أُخرى: «**... فإذا رآه المؤمن قال: يأيها الناس هذا الدجَّال الذي ذكره رسول الله ﷺ ...**»

فالمؤمن في حمى مكين، في حمى الإيمان، إيمان مغروس في الفطرة يحرك السمع والبصر والفؤاد، فيرى المؤمن الحقَّ حقاً، ويرى ما يعصمه من الوقوع في الشرك أو الكفر، حتى لو كانت الفتنة فتنة الدجَّال وما تحمل من خداع!

لذلك كان من الحق والعدالة أن لا يقبل الله لمشرك مات على الشرك عذراً أبداً. وقـد يسّر الله هذه النعمة من الإيمان الذي يعصمه ويحميه من الكفر والشرك، إن صدق إيمانه، يحميه في أشد الفتن وأعظم البلاء. وكفى بما أوردناه عن الدجال وفتنته دليلاً.

هذه هي طبيعة الإيمان التي يجب إبرازها وإيضاحها بكل ما تحمل معها من قوة

(١) صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة (٥٢). باب (٢١). حديث (٢٩٣٨/١١٢). صحيح البخاري كتاب الفتن (٩٢). باب (٢٧) والرواية واحدة في الصحيحين.

البداهة، وحجة العقل والنظر المتصل بالفطرة، النظر الذي لم يُعمِه الهوى والشهوة، والعقل الذي لم ينحرف في فتنة وضلال، ويجب إبرازها كذلك بجلائها الذي ترد فيه في منهاج الله نصوصاً مشرقة تحمل معها الحجة القاطعة:

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ . . . ﴾ (الأنعام : ١٤٩)

لن يجد الناس حجة أعظم من حجة كتاب الله، ولا أبين ولا أدق. ويستطيع المؤمن أن يجلو في بلاغه ودعوته حقيقة التوحيد على صورة متكاملة متناسقة، بمقدار ما يحمل من زاد من منهاج الله، آيات وأحاديث تجلو صدره وقلبه بنور الإيمان واليقين، فيفتح الله بها عليه في دعوته للناس، وبيانه لمن يدعوهم، حتى يُقَرِّب إليه بلوغ القصد، إذا أراد الله أن يهدي به أحداً من عباده، ويضاعف له الأجر برحمته سبحانه وتعالى على قدر ما يصدق ويبذل في دعوته.

٣ ـ التوحيد أعظم من أن ينحصر برهانه في علم بشري محدود:

إن التوحيد أعظم من أن يكون ثمرة معادلة رياضية فحسب، إنه أعظم من أن يكون قضية فلسفية فحسب، أو نظرية فيزيائية فحسب. إن التوحيد حقيقة كونيّة، حقيقة يقوم عليها الكون كله: بامتداد ماضيه وحاضره ومستقبله، بامتداد آفاقه التي لا نعلم نحن غاياتها ولا مداها، بامتداد أجزائه ومخلوقاته مما نعلم ومما لا نعلم، بامتداده العظيم بين الحياة الدنيا والآخرة، بتغيُّره على سنن ربانية، بالولادة والموت، والبعث والحساب، والجنة والنار. حقيقة يقوم عليها الكون كله بهذا الامتداد الهائل!

هذه الحقيقة على هذا الامتداد لا يمكن أن تكون إلا فطرة يُفطَر الإنسان عليها، لتكون جزءاً من كيانه وطبيعته، جزءاً من فكره وتصوره، جزءاً لا ينفصل عنه. فتكتسب هذه القضية خطورتها وأهميتها من ذلك. وتزداد أهمية التدبّر والتفكّر، إن غفل الإنسان أو نسي، أو ضعف أو غلبه هوى.

يريد كثير من الناس أن يحوّل قضية الإيمان والتوحيد إلى قضية فلسفية، يغوص مع الفلسفة في أعماق بعيدة، تجذبه أول الأمر، حتى إذا أوغل في المسير، اختلطت أمامه الصور والآفاق وتاه. لقد حاول عدد من الفلاسفة المسلمين مناقشة قضايا الإيمان والغيب، بطاقاتهم الفكرية المحدودة، وعلمهم المحدود، ليصلوا عن طريق

ذلك وحده فقط، إلى الحقيقة الكبرى، إلى الحقيقة المطلقة الأُولى. ونشأ عن ذلك مذاهب فلسفية عديدة، وقفت عند بعض النصوص القرآنية لتخضعها لفكرها المحدود وعلمها المحدود. ومثل هذه النصوص هي من علم الغيب، ما كان للإنسان أن يعرف عنه شيئاً أبداً لولا أن أعلمنا إياه الله. إن جميع أبحاث العلوم وأدواته ووسائله، في تاريخ البشرية كلها، في جميع الأُمم، لم يبلغ في علمه عن الكون إلا شيئاً قليلاً قليلاً جداً! وجميع جهود البشر أعجز من أن تخترق الغيب، وقد قضى الله أن يكون ذلك غيباً، وجعل الإيمان به جزءاً لا يتجزأ من سلامة الإيمان وصحته:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ (البقرة: ١ ـ ٥)

أنّى للعلم البشري والجهد البشري أن يدرك وحده «العرش»، أو يخوض في تأويل: ﴿على العرش استوى﴾، أو يؤول في أخبار الجنة والنار، والبعث والحساب، وغير ذلك من آيات الغيب، ومما ورد فيه من أحاديث. إن هذه الآيات والأحاديث نأخذها كما وردت، كما نزل بها الوحي الكريم، لنعتبر ولنتعلم ولنتأدب بين يدي الوحي والرسالة، فلا يحلُّ لأحد أن يخوض في نصوص علم الغيب خوضَ من يجعل من نفسه إلهاً، نفخه الكبر والغرور، ليُخضِع تلك النصوص لهواه المتفلّت، وفكره المحدود، وعلمه المحدود، بدلاً من أن يتأدب هو بين يدي العزيز الجبار، فيَخْضَع هو لهذه النصوص، لتزيده رهبةً وخشوعاً، وتوبة وأوبة، وإنابة واستغفاراً!

إن الله سبحانه وتعالى، وهو أعلم بما يفعل، وما يُنَزِّلُ على رسُله وأنبيائه، أنزل في قرآنه بعض العلم عن الغيب لحكمة هو أيضاً أعلم بها. لقد أنزل من علم الغيب القدْرَ الذي يعلم أنه يكفي للإنسان، وأنزله على النحو الذي يعلم أنه يصلح للمؤمن الخاشع، ولمن أراد أن يتدبّر، فيؤمن ويخشع وينيب. الله أعلم بذلك كله. ولكننا نحاول أن نقرِّب الأمر إلى النفوس والأذهان والقلوب، فنضرب مثلاً عسى أن يفيد.

فلو أننا تصورنا اليوم أن أحداً مّمن مات قبل آلاف السنين، قام من قبره اليوم على حالته وعلمه الذي كان عليه آنذاك، ثم أردنا أن نحدِّثه نحن عن جهاز التلفاز. فلا

نستطيع أن نستخدم معه الألفاظ الفنيّة الدقيقة، والتعابير الفنّية المحدَّدة الْمصطَلَح عليها. إنا لو حدثناه بها لما فهم منا شيئاً أبداً. ولكننا نستخدم ألفاظاً معروفة لديه تقرب الصورة والفكرة. إنا نقول له مثلاً إن التلفاز صندوق. فهو قد يتصور شكل الصندوق الذي كان يستخدمه، على شبه بين هذا وذاك. وقد نقول له إن فيه حبالاً بدلاً من الأسلاك الكهربائية، ونقول له إن فيه ضوءاً، وهكذا نقرب الصورة له باستخدام ألفاظ أقرب إلى علمه وحسّه، وهي تحمل في ظلالها قدراً من التشابه مع الشيء الحقيقي. ولعل الله سبحانه وتعالى قرَّب إلينا بعض علم الغيب بتعبيرات وألفاظ تحمل قدراً من التشابه، حتى تتحقَّق الرهبة والخشية، ويقوى الإيمان، وتمتدُّ العبرة، ويزداد الخشوع. واستمع إلى قوله سبحانه وتعالى يشير إلى شيء من ذلك التشابه الذي نتحدث عنه، والله أعلم بما يُنزِّل على المرسلين والأنبياء:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥﴾. (البقرة: ٢٥)

نعم! «أُتوا به متشابهاً»! ولكن الجوهر يختلف. فقوانين الحياة الدنيا ليست هي قوانين الدار الآخرة.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾.

(طه: ١١٨، ١١٩)

٤ ـ الغيب تدركه الفطرة، ولا يخضع لموازين الدنيا وسننها:

والدار الآخرة حياة خلود! لا يذوق الناس فيها الموت إلا الموتة الأُولى! ولا يبول الإنسان! ولا يعرق! إن قوانين نيوتن وقوانين آنشتاين محدودة للحياة الدنيا. ولقد رأينا كيف أن قوانين نيوتن ظلت تعمل بسلام ونجاح على الأرض وإلى آفاق محدودة حول الأرض. فلما تجاوزت الدراسات تلك الآفاق تعطلت قوانين نيوتن، وجاءت النظرية النسبية لآنشتاين لتعمل بدلاً منها. وهكذا يبدو، والله أعلم، أننا كلَّما أوغلنا في آفاق الكون وجدنا أن هنالك قوانين جديدة تعمل مع هذه الآفاق الجديدة. فكيف إذا تجاوزنا الحياة الدنيا كلها، وقامت الساعة، وتناثرت الكواكب، ونسفت الجبال حتى

تصبح قاعاً صفصفاً، وسجّرَت البحار، وكورت الشمس، وانفطرت السماء، وبعثرت القبور! كيف إذا زلزل الكون كلُّه هذا الزلزال العظيم المريع! كيف إذا قام الحساب، ودخل بعض الناس الجنة، ودخل بعض الناس النار! هنالك إذن عالم جديد له قوانين جديدة، تختلف عن قوانين الحياة الدنيا، وإن حملت ظاهرة من ظواهر التشابه. فعندما يصف الله سبحانه وتعالى الجنة وأنهارها، قد يتبادر إلى بعض الأذهان نهر المسيسيبي ونهر الأمازون، والنيل والفرات، وبردى، وغيرها من الأنهار، على شكلها وحالتها التي نراها. لا! إنها أنهار الجنّة، سماها الله أنهاراً ليقرّبها لنا، ولشبه بينها وبين الأنهار، ولكنها أنهار خالدة تؤدي في الجنة ما يشاء الله لها أن تؤدي. ولنستمع إلى شيء من ذلك:

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾. (محمد: ١٥)

وإذا أشار القرآن الكريم إلى تشابه بين هذا وذاك، فقد أشار إلى جوهر الاختلاف، في أكثر من آية وموقف. فبيَّن الفرق بين خمر وخمر:

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

(الصافات: ٤٥ ـ ٤٧)

فالغيب إذن جزء رئيسي من الإيمان والتوحيد، جزء تتقبَّله الفطرة السليمة بداهة وتصديقاً ويقيناً، حتى يتكامل التصوّر الإيمانيُّ في قلب الإنسان تكاملاً وتناسقاً، ويشرق التوحيد بامتداده وآفاقه كلها.

فالداعية المؤمن الواعي، وهو يدعو إلى التوحيد، لابدَّ من أن يبرز طبيعة قضية الإيمان والتوحيد على النحو الذي عرضناه، ليبرز امتداد هذه القضية في حياة الإنسان، وفي الكون، وفي الدنيا والآخرة، امتداداً يفرض أن تكون هذه القضية جوهر فطرة، وبناء كيان. هي أوسع من أن تحيط بها نظرية يسميها الناس نظرية علمية في الفلسفة أو غيرها. إنها قانون الوجود كله، وأساس الحياة. والداعية يستطيع أن يوضح ذلك بما يحمل من زاد كريم من كتاب الله وسنة نبيه. ومن واقعه وأحداث

يمر بها الواقع، ومن كون ممتدٍّ للناظرين.

وبذلك يصبح أمام الداعية نهج مرسوم واضح يعينه على سلامة البلاغ، وأمانة البيان، وصدق الوضوح. نهج عرضنا منه جزءاً حتى الآن، ويحسن بنا هنا أن نقف قليلاً لنوجز النقاط الرئيسية التي تقوم عليها تفاصيل النهج، نوجز النقاط التي وصلنا إليها حتى الآن:

أولاً: إن الإيمان والتوحيد أعظم قضية في حياة الإنسان، وأكبر حقيقة في الكون. وهي قضية كل إنسان، وكل جيل، وكل عصر.

ثانياً: إن العبادة ظاهرة ممتدة في تاريخ البشرية كلها، مهما امتدت العصور، أو تباعدت البلاد، امتداداً يشير إلى أصل واحد لها.

ثالثاً: تبدو العبادة مع هذا التاريخ أنها أخذت أشكالاً مختلفة في حياة الإنسان، بالرغم من أن امتداد العبادة مع الزمان والمكان يشير إلى الأصل الواحد. لذلك يصبح هذا الاختلاف يمثل انحرافات عن الأصل الواحد.

رابعاً: إن الأُلوهية تحمل بطبيعتها معنى وتصوراً يتناسب وجلال الأُلوهية. وهذا المعنى والتصور يتضارب مع تلك الانحرافات. فالتوحيد والإيمان بالله الواحد، بجميع أسمائه الحسنى، بجميع صفاته التي ذكرها منهاج الله، هو الدين الذي ندعو إليه. والله هو الربّ الذي ندعو إليه. فلا ندعو للإيمان بإله نجرده من صفات الأُلوهية، كلها أو بعضها، لأننا نقع عندئذ في تناقض كبير. إن تكامل صورة الأُلوهية، وتكامل صفات الله سبحانه وتعالى أمر يجب إبرازه والتأكيد عليه.

خامساً: ان امتداد معنى التوحيد في حياة الإنسان، وفي الكون كله، والنتائج التي تترتب على الإيمان أو الإنكار، وخطورة هذه النتائج، والحساب الشديد يوم البعث بين يدي الله سبحانه وتعالى، والبُشرى بالجنة للمؤمنين، والوعيد بالنار للكافرين، وحقيقة الموت التي لا يمكن لأحد أن ينكرها، مما يجعل الحياة الدنيا هي الفسحة الوحيدة أمام الإنسان ليؤمن أو ليكفر، متحملاً كامل نتائج موقفه، إن هذا كله يفرض أن يكون التوحيد، والإيمان بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، قضية فطرة

وطبيعة، قضية مغروزة مع الإنسان، يولد عليها وينشأ بها، ويتحمل هو نفسه مسئولية التفريط بها، لا يغني مولى عن مولى شيئاً، ولا يُقبل عذرٌ لمن مات على كفر، ولا يغفر الله لمن مات كافراً أبداً.

إن الإنسان قد خُلق في هذا الكون، ونشأ فيها، على فترة زمنيّة طويلة مهما اختلف العلماء في تقديرها. فهو جزء من هذا الكون مع امتداده كله، جزء منه لا ينفصل عنه. لقد أصبح كيان الإنسان كله مرتبطاً بهذا الكون، بما فيه، في الحياة الدنيا، وبعد الموت. لقد جعل الله فطرة الإنسان التي تحدثنا عنها في الصفحات السابقة، مزودة بطاقات تساعد الإنسان على التعامل مع هذا الكون الذي خُلق فيه ومنه، وولد فيه، ونشأ فيه، ويموت فيه، لقد جعل الله هذه الطاقات في فطرة الإنسان قادرة على الرؤية والإبصار، والتفكر والتدبر، من خلال سنّة الابتلاء التي يعيشها الإنسان في هذه الدنيا، ليُمحَّص فيها، وتجلى حقائقه، ويُكشف جوهره ومعدنه. وجعل هذه الطاقات، أو بعضها، يتعطل بعمل الإنسان غير الصالح، بآثامه وجرائمه، وجعلها كذلك تصقل بالعمل الصالح، حتى يصحّ الابتلاء والتمحيص، وحتى يصبح الإنسان مسئولاً عن عمله، وحتى يصبح لهذه المسئولية معنى وقدراً، وحتى تخضع بعد ذلك لحساب وجزاء. مما سنفصله في فصل مقبل إن شاء الله.

من هذه الحقائق كلها مجتمعة، ومن طبيعة هذه الطاقات في الإنسان، فإن الإنسان لا يستطيع أبداً أن يفكِّر في شيء لا وجود له أصلاً في هذا الكون. لقد خُلقَ الإنسان في الكون ومنه ونشأ ومات فيه، فأنى له أن يفكر في شيء لا وجود له أصلاً في الكون. فكلُّ ما يفكر فيه الإنسان له إذن أصل ما يرتبط به في هذا الكون. ولكنّ الذي قد يحدث أن يخطىء الإنسان في استكمال التصور، فتغيب عنه أجزاء من الصورة، أو أن يخطىء في تركيب بعض الأجزاء، فيخرج شيء يبدو كأنه جديد. ولكنّ الأصل دائماً موجود لأي شيء يفكر فيه الإنسان.

ولنوضح ذلك نضرب مثلاً. فلو فكر الإنسان بوجود شيء يطير له أربعة رؤوس وخمسة أجنحة ومائة رجل وأشياء أُخرى أيضاً دفعها له فكره وخياله وطاقاته المودعة فيه، فإذا قلنا إن هذا الطائر غير موجود في الكون، فإن الأصل موجود حقاً. فالطائر

الذي يطير موجود، والرأس موجود، والجناح موجود، والساق موجود. ولكن الخطأ لم يكن في أن هذه الأشياء موجودة، ولكن الخطأ هو في ربط هذه الأشياء وعددها وتفاصيل عملها. إنه الانحراف عن الأصل والحق.

وكذلك فإن الإنسان لا يستطيع أبداً أن يفكر بوجود خالق، أو بعث بعد الموت، أو حساب أو جنة أو نار، دون أن يكون لهذا كله أصل وحقيقة في هذا الكون. كيف لا يكون الأمر كذلك والإنسان مصرّ على العبادة آماداً طويلة، مع اختلاف المكان والزمان والجنس واللغة والأشكال، ومع تفاوت الطاقات والقدرات. فوجود الخالق إذن حقٌّ ثابت. ولكن الانحراف وقع لدى بعض الناس في خلط التصور وتركيب أجزائه ومكوناته. فالوجود عندما نفكر فيه هو الأصل مع احتمال الانحراف عن الأصل، نتيجة لعمل الإنسان نفسه.

والانحراف عن الأصل هو نتيجة اضطراب الفطرة، وفساد الطبع، واضطراب الطاقات فيها، بفعل ما كسبت يد الإنسان من آثام ومعاصٍ، وهو يمرّ في هذه الحياة الدنيا، في الابتلاء والتمحيص، على سنن ماضية غالبة لله سبحانه وتعالى، مما سنفصله في فصول مقبلة إن شاء الله.

إن «الفطرة» هي مستودع طاقات الإنسان، الطاقات التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الإنسان إذا صح التعبير. نحن نضع هذا التعريف تسهيلاً للبحث والدراسة، وتيسيراً لعرض الموضوع. وإن أول هذه الطاقات هو الإيمان والتوحيد، غرسه الله في الإنسان غرساً، غرسه في كل إنسان، حتى لا يكون لأحد حجّة أبداً في الكفر.

وألهم الله «النفس» فجورها وتقواها. ألهمها طاقة التقوى ليكون الإنسان قادراً على التقوى التي أمره الله بها، وألهمها فجورها ليكون الإنسان مهيَّأً للابتلاء والتمحيص الذي كتبه الله على خلقه وعباده. ووهب الله الإنسان القدرة على تمييز الخير من الشر، وبيّن الله له هذه السبيل وتلك.

لقد جعل الله في طبيعة الإنسان، في خلقه، في نفسه، في فطرته، على أيِّ اسم يختاره الناس أو يصطلحون عليه، لقد جعل الله فيها طاقات ورغبات وغرائز

وقدرات، تعمل في حياة الإنسان وتؤثر في سلوكه وكيانه، وتجعلُ الإنسان مسئولاً عن عمله، عن إيمانه وكفره.

٥ـ الانحراف عن التوحيد يفسد الفطرة وينحرف بطاقاتها:

لقد جعل الله هذه الغرائز في كيان الإنسان لتؤدي هذه الغرائز والطاقات دورَها ووظيفتها التي خُلِقتْ من أجلها. فلكل طاقة جعل الله مهمة في الحياة الدنيا تؤديها على نحو محدَّد أراده الله. فالشهوة الجنسية، وحب الآباء لأبنائهم، لها مهمّات تؤديها في الحياة، وكـذلك حبُّ الناس لأرضهم وديارهم وأوطانهم، والغضب، والرضا، والفرح، والحزن، وعدِّد من مثل ذلك ما تشاء. فالشهوة الجنسية جعلها الله لتؤدي دور التكاثر في الأرض على نحو محدد، والحبُّ جعله الله طبيعة تجمع الناس علي الخير الذي أراده الله، والغضب جعله الله قوة تحمي الحقَّ وتدفع الباطل، وكذلك كلُّ طاقة من هذه الطاقات جعل الله لها دوراً محدداً على نحو محدد. فإذا أدت هذه «الرغبة» أو تلك، أو هذه «الطاقة» أو تلك، دورها المحدَّد في الحياة على النحو المحدد، كما أراده الله، كان ذلك هو التقوى. وأما إذا انحرفت الرغبة أو الطاقة عن المهمة التي خُلقَت لها وعن النحو الذي أُمرت به، فإن ذلك هو الفجور. فعندما تنحرف الشهوة الجنسية إلى الزنا، كان الزنا فجوراً، وعندما ينحرف حب الأهل إلى عصبية عائلية جاهلية ظالمة كان ذلك أيضاً فجوراً، وعندما يتحول حبُّ الوطن إلى تمزيق الناس وإلى عصبية جاهلية ووثنية كان ذلك فجوراً أيضاً. والغضب مثل ذلك، فحين يغضب الإنسان لغير الله ولغير دين الله، ولغير الحق، فهو فجور، وحين يغضب لله فالغضب تقوى. والفرح حين يكون إقراراً بفضل الله ونعمته، وإقراراً بوحدانيته، فالفرح تقوى، وحين يكون فرحاً لجمع دنيا فهو فجور.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨)

ويظل الإيمان والتوحيد هما الطاقة الجامعة الموجهة الأُولى في حياة الإنسان لجميع هذه الطاقات والقدرات والغرائز والسجايا. يظل الإيمان على قدر نموِّه وسلامته يدفع هذه القـدرات إلى التقـوى لتؤدي دورهـا الحقَّ الـذي خُلِقَتْ له، تدفعها الفطرة السليمة، فطرة الإيمان والتقوى. أما إذا ضَعُفَ الإيمان فتبدأ هذه القدرات تنحرف

شيئاً فشيئاً على قدر ضعف الإيمان، حتى يبلغ الإنسان في ضعفه فجوراً بعد فجور، ينقله إلى الشرك والكفر بما كسبت يداه.

إن ربط التوحيد بالفطرة أمر أساسي في الدعوة إلى الله ورسوله. ومنهاج الله هو المصدر الأوّل لعرض هذا الربط، عرضاً يجمع بين سنن الله في الكون والحياة، وبين آيات الله المبثوثة في الكون، وبين واقع الإنسان وأحداث الحياة.

وعندما يبحث الناس اليوم حقوق الإنسان في الهيئات الدولية، والمراكز المختلفة، يحصرون هذه الحقوق في «الرغيف» وسائر المظاهر الماديّة. ويشوِّهون الحرِّية أو يقتلونها عندما يجعلون من حقوق الإنسان حريّةً تطلق شهواته من أيِّ عقال، وتفلت أهواءه من أي قيود، إلا عقال المصلحة المادية الآنية، ومصالح الظالمين المعتدين في الأرض.

وينسون في حمأة هذا الوحل الذي ينزلون إليه ويغوصون فيه، أن أهم حقوق الإنسان هي حماية فطرته التي فطره الله عليها دون أن تتشوّه أو تُدْفَع إلى الانحراف.

إن حماية هذه الفطرة هي أول مسئوليات المجتمع والأُمة، بمختلف مراكزها ومؤسساتها. فهي أول مسئوليات المؤسسات التربوية والعلمية، ومؤسسات الإدارة والقانون، ومؤسسات الاقتصاد والمال، وسائر مؤسسات الأُمة.

وهي كذلك أول مسئوليات البيت، مسئوليات الوالدين، وهما محاسبان على هذه المسئولية العظيمة، دون أن يُسقط ذلك مسئولية الفرد نفسه، ومسئولية مؤسسات الأُمة.

الفصل الثاني

التوحيد وآيات الله في الكون

١ - ايات الله في الكون تدل على وحدانية الله، وتحمي فطرة الانسان وإيمانه :

لقد كانت الفطرة مستودع الإيمان الذي غرسه الله فيها، حتى يكون الإيمان مسئولية كل إنسان مكلف، فلا يُقبَل عذر من إنسان مات على الشرك أو الكفر.

ورحمة الله واسعة، وسعت كلَّ شيء. إنها رحمة الخالق بخلقه، رحمة العليم الحكيم الخبير، رحمة القوي العزيز، رحمة الرؤوف الغفور الرحيم.

﴿... قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ (الأعراف : ١٥٦)

وكان من رحمة الله الواسعة بعباده أن هيّأ لهم أسباب حماية الإيمان الذي فُطِروا عليه، حتى يظل الإيمان في رعاية حانية، عادلة أمينة، لا يؤثر عليه إلا عمل ابن آدم وما كسبت يداه، كما سنشرح في فصل مقبل إن شاء الله. ولكننا هنا نعرض باباً من أبواب حماية الإيمان ورعايته، باباً يَسَّره الله لعباده كلهم، في جميع العصور.

لقد جعل الله آياته مبثوثة في الكون كله. وجعل كل آية دالة على وحدانيّته وقدرته. وجعل هذه الآيات في نفس الإنسان، في أنمله، يديه، رجليه، جسده، قلبه، عقله، وكل ناحية في كيانه. وجعله الله ميداناً مفتوحاً حتى تقوم الساعة، ليظل الإنسان يجد فيه الآيات المتجدِّدة التي ترعى الإيمان وتحنو عليه، تغذيه وتنمِّيه. ويظل الإنسان يبحث في كيانه وبنائه، وتنهض علوم الطب والنفس، والتربية والصحة، وعلوم أُخرى تمتدُّ وتتجدَّد، لتكشف كلَّ يوم عن آية جديدة، حتى كأن الإنسان عالم ممتدّ من الآيات لا يكاد ينتهي :

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الذاريات : ٢٠، ٢١)

وفي الأرض آيات ممتدة كذلك. آيات تتجدَّد أمام الإنسان وهو يسعى في الأرض يبحث هنا وهناك. آيات في الزهرة والشجرة والثمرة، في البحار والأنهار، في الجبال والسهول، في طبقات الأرض، في الرياح والأمطار، في حركة الأرض ودورانها، في

ذلك كله وكثير غيره، حتى كأن الأرض تموج بالآيات التي تتفتَّح أمام الإنسان وهو يمضي مع العصور والأجيال.

والسموات آيات بيّنات. آيات ممتدة تظل تحمل الإعجاز المتجدِّد الممتدّ، لتدل كل آية على التوحيد. وآيات في ما بين السماء والأرض. ويعرض المنهاج الرباني هذه الآيات عرضاً معجزاً يقرع كل طاقات الإنسان الخيّرة، يُحرّك التقوى، ويُنبِّه الإيمان. يحرك العاطفة والشعور، والفكر والتصور، والتأمل والتدبّر، حتى يخشع أولو الألباب، ولنستمع إلى قبسات من كتاب الله:

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾. (الروم: ١٧ ـ ٢٤)

وقبسات أخرى:

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ (النحل: ٣ ـ ١٤)

آيات بينـات ممتـدة في الكـون، في السمـوات والأرض: الإصبـاح والإمساء، والظهيرة والعشي، كل وقت يحمل معه آيات دالة على عظمة الخالق المدبّر للكون. الله الخالق البارىء المصور، خلقكم من تراب، وخلق لكم من أنفسكم أزواجاً، واختلاف اللغات، واختلاف الليل والنهار، ونوم الإنسان وسعيه، والبرق والمطر، كلّ ذلك آيات بينات تمضـي على سنن الله، لله الخالق المدبر. هكذا تعرض الآيات من سورة الروم لتقرع طاقات الإنسان كلها وتوقظها، ليتأمل ويتدبّر.

والآيات من سورة النحل تطوِّف في الكون لتعرض صوراً أُخرى، وآيات أُخرى، لترى الكون غنيّاً بالآيات مليئاً بالشواهد، في كلِّ ما قرب منك أو نأى وابتعد، خلق السموات والأرض، خلق الإنسان من نطفة، خلق الأنعام، والمطر والزرع والزيتون والنخيل والأعنـاب وسـائـر الثمـرات، والليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والبحر وما فيه من لحم طريٍّ وما فيه من حلي، وما تجري فيه من فلك، كل ذلك آيات مبثوثة في الكون.

وانظر إلى هذا الإعجاز مما يتجاوز علم محمد ﷺ وما يتجاوز علم الناس كلهم آنذاك وعلمهم لعصور تالية طويلة.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

(الفرقان: ٥٣)

علمٌ وحقٌّ وبيان. حق ثابت مطلق، مايزال الإنسان يبحث في أسراره، ويغوص في خفـاياه، لتنجلي أمامه آيات ممتدة جمعتها هذه الآية الكريمة. ويمضي الإنسان ليضع مؤلفات عن هذه القضية، وليقيم أبحاثه ودراساته.

وكذلك:

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(يس: ٣٨ ـ ٤٠)

آية معجزة لايزال الإنسان في أبحاثه مقصِّراً دون حقائقها الكاملة، لاهثاً في آفاق الكون الممتدّ، يبحث ويتأمل، والغيب يتسع أمام الإنسان، والمجهول يزداد!

وآيات أخرى:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ (الحجر: ١٦ - ١٨)

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الحجر: ٢١، ٢٢)

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ (الطارق: ٥ - ٨)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

(المؤمنون: ١٢ - ١٦)

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ..... ﴾. (لقمان: ١٠)

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

(فصلت: ١١)

ولنأخذ قبسات من أحاديث رسول الله ﷺ:

عن أبي سعيد الخدري: سئل رسول الله ﷺ عن العزل فقال: «ما من كل الماء يكون الولد. وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء» (رواه مسلم)[1]

عن عبدالله بن مسعود قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة في ذلك مثل ذلك. ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد. فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» (رواه الشيخان)[2]

---

(١) صحيح مسلم: كتاب النكاح (١٠). باب (٢٢). حديث (١٤٣٨/١٣٣).

(٢) صحيح مسلم: كتاب القدر (٤٦). باب (١). حديث (٢٦٤٣/١).

عن المغيرة بن شعبة أنه قال: «انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم. [وفي حديث سفيان ووكيع. . . . «فقال الناس: انكسفت لموت إبراهيم»]. فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا حتى تنكشف. . .» (رواه مسلم)[1]

وعن أبي ذر قال كنت مع النبيّ ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال: ياأبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش (فتستأذن في السجود فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها اطلعي من حيث جئت فتطلع من مغربها) فذلك قوله: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾».
(رواه البخاري والترمذي)[2]

ويمضي المنهاج الربانيّ يعرض آيات الله في الكون عرضاً يطرق قلب الإنسان وعاطفته وفكره، يطرق فطرته حتى تصحو على حقيقة عهدها مع الله، عهد الإيمان وميثاقه. وهذا العرض يقدم لنا الحقائق الكلية المطلقة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. (فصلت: ٤١، ٤٢)

٢ ـ بين الحقائق المطلقة والحقائق النسبية:

فحقائق منهاج الله هي حقائق كلية مطلقة، أما جهود الإنسان وأبحاثه فإن وصلت إلى شيء من الحقيقة فإنها تصل إلى حقيقة جزئية لا تنهض لتكون حقيقة كلية في الكون. فكتاب الله ليس كتاب رياضيات، فلا تجد فيه معادلات رياضية، ولا كتاب فيزياء فلا تجد فيه القوانين الجزئية. ولكنه ذكر من عند الله، يعرض الحقيقة الكلية، ليتأمل فيها الإنسان ويتدبَّر، ثم ينطلق في الكون ليبحث، فيجد من الجزئيات ما

(١) صحيح مسلم: كتاب الكسوف (١٠). باب (٥). حديث (٩١٠/٢٣، ٩١٥/٢٩).
(٢) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن (٦٥). سورة يس (٣٦). باب (١). سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن (٤٨) باب (٣٧). حديث (٣٢٢٧). النص للبخاري وما بين القوسين للترمذي.

يرتبط بالحقيقة الكلية ارتباط إيمان وتدبّر. وتظل جهود الإنسان تنمو، وتظل النظريات التي يبلغها خاضعة لإحدى القواعد التالية: فهي إما ناقصة فتستكمل بعضها الجهودُ البشريّةُ في نموِّها وتطورها، وهي إما باطلة يثبت خطؤها مع متابعة جهود الإنسان، فتُلغَى وتُسْتَبدَل بها نظريات جديدة، وهي إما تحمل بعض الخطأ فتجرى محاولات تعديلها، ولذلك نُسَمِّي الحقائق في منهاج الله: «الحقائق المطلقة». ونُسمِّي ما يبلغه الإنسان بجهده اصطلاحاً: «حقائق نسبية» لنُفَرِّقها عن الحقائق التي ترد في منهاج الله والتي وصفها الله بأنها لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

وقد جعل الله السموات والأرض وما بينهما ميداناً ممتدّاً لجهود الإنسان وتأمله وتدبره:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ (لقمان: ٢٠)

وهذا العرض في منهاج الله لآيات الله في الكون يهدف كما ذكرنا لإيقاظ الفطرة في الإنسان ليخشع قلبه وينيب. وكذلك فإن الله مدّ الآيات في الكون، وسخَّر ما في السموات والأرض، حتى يظَلَّ الإنسان يرى آية بعد آية، تدعو إلى الإيمان والتوحيد، حتى يتبينّ للإنسان أنه الحقّ:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت: ٥٣)

من هذه الآيات الممتدة في الكون، ومن هذا العرض الربّانّي المعجز في منهاج الله لآياته في الكون، نرى كيف يصبح هذا وذاك مصدراً دائمًا غنيّاً للفطرة، يوقظ فيها قوى الإيمان والتقوى والتوحيد، مصدراً يظل يعمل بصورة أبديّة مستمرّة، لا ينضَبُ عطاؤه ولا ينقص، ولا يتوقف إلا إذا ظلم الإنسان نفسه فأوقف سعيه وتأمله وتدبُّره. ومن هنا نرى أهمية مصاحبة منهاج الله مصاحبة عمر وحياة، ذلك لأنه نبع غنّي يظل يمدّ الإنسان بريّه وروائه، ويربط الإنسان بالكون وبآيات الله فيه، مادام الإنسان يسعى للأخذ منه، قبل أن تجف الفطرة وتذبل قواها وتقواها.

ولابد من أن نؤكد هنا، ولا بأس من التكرار، أننا هنا نعرض قبسات لتذكُّر وتنبّه،

وهي قبسات لا تعطي الصورة الكاملة والعرض المتناسق. ولا يستطيع أحد من البشر أن يعرض هذا الأمر عرضاً متكاملاً متناسقاً، كما يعرضه منهاج الله. فلابد إذن من أن يعتبر المؤمن أن منهاج الله هو الذي يجب أن يعود إليه ليجد هناك ما لا يمكن أن يجده في مكان آخر، عرضاً ربانياً معجزاً. وحين يتابع المؤمن مصاحبة منهاج الله يجد أن الآيات تتفتح له مع المتابعة والمصاحبة، ويظلُّ عطاء المنهاج الربانّي عطاء غنيّاً مع الزمن، ويظل منهاج الله نفسه يفتح آفاق الكون، ويظل يحمي الفطرة ويغذيها.

٣ ـ منافذ الانسان على الكون :

وقد جعل الله للإنسان منافذ على آيات الله في الكون. جعل له السمع والبصر والفؤاد يُطلُّ من خلالها على الآيات المعجزة في الكون، على الآيات البيّنات. وهذه المنافذ كلُّها متصلة بالفطرة، تستقبل من الكون ثم تصبُّ في فطرة الإنسان نوراً وهدى وتوحيداً.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. (الملك : ٢٣)

نعمـة سابغـة ظاهـرة، نعمة تقدم للإنسان آيات الله تتجدد وتمتدُّ مع الأجيال والعصور، حتى يسمع فيخشع ويرى فيبصر، ويتأمل فيتدبر.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾
(السجدة : ٩)

وفي هذه الآية من سورة السجدة تفصيل أوسع لما ورد في الآية من سورة الملك: ﴿أنشأكم﴾. فأتت الآية هنا ببعض ظلال الإنشاء والخلق: ﴿سواه ونفخ فيه من روحه﴾. وفي سورة الإسراء ظلال جديدة أيضاً:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.
(الإسراء : ٣٦)

وارتبط هنا السمع والبصر والفؤاد بمسئولية الإنسان، حتى يكون ما يصله عن طريق هذه المنافذ موضع مسئولية وحساب. وكذلك ليعلم الإنسان أنَّ لهذه المنافذ

حدوداً. فإنها تستطيع أن تبلغ بعض الأمور. وهناك أمور أخرى هي خارج حدودها فلا تُسأل عنها، وما عليها أن لا تتبعها أو تقفوها.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل : ٧٨)

وهـذه المنـافذ مرتبطة بالفطرة، تُودعُ فيها ما تستقبله حتى تؤثر فيها بإذن الله، فيتحـرك الإيمان والتقـوى وآيات التـوحيد، وقواعد العهد والميثاق مع الله سبحانه وتعالى. فإذا تعطلت هذه المنافذ سُدَّتْ ومُنِعَتْ مواردها من أن تصل الفطرة، فتذبل قوى التقوى فيها، وتجفّ وتنحسر. ويصبح الإنسان بعد ذلك كالأنعام بل هو أضل:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾. (الأعراف : ١٧٩)

ونلاحظ في الآيات السابقة أن كلمة «السمع» تأتي على صيغة المفرد، وهكذا تأتي في جميع القرآن الكريم، فلا تجد لفظة الجمع «الأسماع». وأما كلمتا البصر والفؤاد فتأتي حيناً على صيغة المفرد وحيناً على صيغة الجمع، على حسب ما يتطلب السياق والخطاب. ففي سورة الإسراء جاء اللفظ كله على صيغة المفرد، حيث كان الخطاب موجهاً للمفرد: ﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم...﴾ ولا مجال من حيث المعنى للتعدد، فإن الجنس والنوع هو مدار الحديث أكثر مما هو القدرة الخاصة بهذا وذاك. وفي الآيات الأخرى نجد الخطاب للجمع: ﴿هو الذي أنشأكم...﴾، ﴿والله أخرجكم...﴾. ومن هذا الخطاب للجمع نشأ التعدد مع «الأبصار» و«الأفئدة».

ولعل من ظلال هذه التعابير أن مجال التنوع والتمايز بالنسبة للسمع قليل أو غير معتبر. «فالسمع» لا يرتبط به من حيث هذه اللفظة تقدير وتدبر وتأمل، فهو واحد لدى الجميع. أما كلمة البصر فتختلف عن كلمة الرؤية. فقد تكون الرؤية واحدة، ولكن «الإبصـار» يختلف من رجل لآخر، ذلك لأن اللفظة هنا لا تعني مجرد النظر والرؤية، ولكنها تحمل ظلال التدبُّر والاعتبار. وكذلك لفظة «الفؤاد» و«الأفئدة»، كما وردت في الآيات السـابقـة وفي غيرها. ويَتكرَّر هذا الأُسلوب من التعبير مع هذه

الكلمات في القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة : ٦، ٧)

٤ ـ سنة الله الثابتة في الكون والحياة :

ومما يجب أن نلتفت إليه في هذا المجال هو السنن الربانيّة الثابتة في هذا الكون. وهذه السنن الثابتة نجدها في مجال النجوم والأجرام السماوية، ومجال الرياح والأمطار، وميدان النشأة والخلق، وسائر ميادين الكون مما نشأ عنه في حياة الإنسان علوم شتى، علوم آخذة بالتزايد والنمو. ويظل الإنسان يبحث في هذا الكون المسخَّر له كما عرضنا قبل قليل، ليكتشف سنناً من سنن الله في هذا الكون. ويكتشف طرفاً من الحقيقة المطلقة التي يعرضها منهاج الله. ولا تنحصر هذه السنن في باب أو أبواب من الكون والحياة، ولكنها ممتدة في الكون كله، ممتدة في الحياة كلها، ممتدة مع العصور والأجيال. وهذه السنن الثابتة تمثل آيات من آيات الله تدفع إلى التأمل والتدبر والإيمان. ومن بين هذه السنن ما يجرى في حياة الإنسان على الأرض، وما يمضي في حياة الأمم والشعوب، مما أنشأ حتى اليوم علوماً كثيرة، مازالت ماضية لتكتشف تفاصيل أوسع وأدق في هذا الميدان أو ذاك. ويشير القرآن الكريم إلى مثل هذه السنن إشارات تدعو إلى العبرة والتأمل، واليقظة والتدبر:

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ (الإسراء : ٧٧)

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب : ٦٢)

﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر : ٤٣)

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الفتح : ٢٣)

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الروم : ٩)

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الأنعام : ١١)

إن هذه السنن الثابتة في الحياة تمثل آيات بيّنات تدل على وجود الله وعلى وحدانيته . إن هذه السنن الثابتة جزء من الآيات البيّنات في الكون . يعرض لنا القرآن الكريم القدر الذي يعلم هو سبحانه وتعالى أنه قدر كاف لنا . ويفتح لنا كذلك آفاق الكون ، حتى تمضي في البحث والدراسة ، والتأمل والتدبّر ، ونصل إلى طرف من سنن أخرى تقوم عليها علوم البشر من فلك ، وطب ، وهندسة ، واجتماع ، وسكان ، وتربية ، وعلم نفس ، واقتصاد ، وجيولوجيا ، وغير ذلك من العلوم الممتدة ، والآخذة بالازدياد والاتساع .

وإن ما يمضيه الله في هذا الكون ، وما هو من حكمته سبحانه وتعالى وكلماته ، وما هو من أمره وعلمه ، هو ممتد واسع لا يحيط به الإنسان أبداً ، ولا يحيط إلا بشيء قليل منه :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . (الإسراء : ٨٥)

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ . (الكهف : ١٠٩)

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان : ٢٧)

ميدان واسع للإنسان ، للإنسان في جميع عصوره وأزمانه حتى تقوم الساعة . ميدان واسع للإنسان في جميع مستوياته . ميدان واسع للإنسان في جميع أجياله وأجناسه . ميدان واسع للإنسان ليظلّ ينهل من ينابيعه الغنيّة ريّاً وإيماناً ، ويظل ينمو بإيمانه ، أو ينهض ليوقظ إيمانه الغافي ، أو يوقظ فطرة أو يعالجها ، ذلك كله قبل أن يوافيه الأجل . فإذا وافاه الأجل فلات ساعة مندم :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠)

ويعرض منهاج الله من السنن الثابتة ما يعلم أنه كاف للإنسان ليتدبر ويخشى. ويعرض منهاج الله هذا التصور عرضاً معجزاً كذلك لا نستطيع هنا إلا أن نعرض

قبسات منه، حتى ينهض المؤمن إلى منهاج الله فيجد النور والبشرى والحقَّ المتكامل ليتأمل ويتدبَّر، فيخشع وينيب.

٥ ـ الاعجاز في الخلق والتدبير :

وعندما يتأمل الإنسان في صفحة الكون والحياة، يجد الإعجاز في الخلق والتدبير، إعجازاً يطرق كل طاقات الإنسان طرقاً ممتداً لا يتوقف، طرقاً يمتد إلى الفطرة لتستيقظ من غفوتها على إيمان وتوحيد، وعهد مع الله وميثاق. والتأمل والتدبر لا يعني الجلوس والاسترخاء ولكنه يعني السعي والبحث والدراسة والعمل في هذا الميدان، على مصاحبة صادقة لقضية الإيمان والتوحيد. فتنكشف عندئذ للفطرة هذه السنّة أو تلك، مع ما تحمله من تذكير وإنابة.

ولا يقف الإعجاز عند حدود إيراد حقيقة مما نسميه اليوم «علماً»، ومما لم يكن معروفاً للناس، آنذاك. إن منهاج الله كله علم، وكل آية فيه هي علم حق. وقد عَرَّف رسول الله ﷺ العلم في حديثه الشريف:

عن عبدالله بن عُمَر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «العلم ثلاثة، فما وراء ذلك فهو فضل، آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة».

(رواه أبو داود وابن ماجة)[1]

إن الإعجاز لا يقف عند مجرّد إيراد هذه الحقيقة العلمية التي عرفنا بعض ظلالها اليوم في أبحاثنا الدنيوية، ولكن الإعجاز يمتد إلى هذه الصياغة الربّانيّة التي تعرض الحقيقة المطلقة على نحوٍ يَضُمُّ في ثناياه جهود البَشرِ كلهم حتى تقوم الساعة. ولنأخذ مثلاً على ذلك حتى نوضح ما نهدف إليه:

﴿.... وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ....﴾ (لقمان : ١٠)

فكلمة «**رواسي**» هنا، وكلمة «**أن تميد بكم**»، هاتان الكلمتان تضمان جهود الإنسان كلها وهو يضع كل يوم نظرية تشرح رُسُوَّ الجبال في الأرض، ومدى عمقها،

(١) سنن أبي داود: كتاب الفرائض (١٣). باب ما جاء في تعليم الفرائض (١) حديث رقم (٢٨٨٥). سنن ابن ماجه : المقدمة ـ باب (٨) ـ حديث رقم (٤٢).

ومـدى ارتفـاعهـا، وأثـر ذلـك في حركـة الأرض، والأنهار، والأمطار، والوديان، والسهول، وغير ذلك. وتظل جهود الإنسان النامية تدخل في إطار هذه التعبيرات الـربّانيّة المعجزة. التي تمثل الحقيقة المطلقة الشاملة، الحقيقة المطلقة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وتظل جهود الإنسان تمثل حقائق جزئية أو نسبيّة لا يمكن أن تحمل هذا الوصف الربانـيّ: «**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**»، ولكنها حقائق نامية، تظل في مقياس الإنسان حقيقة يعتمد عليها في نموّه وتطوره، فقد تنضم إلى حقائق أخرى مثلها لتكوّن صورة أوسع، أو تنال شيئاً من التعديل لتكـون أقـرب إلى الصـواب، أو تُلغى لثبوت بطلانها كلّية. ولقد شهدت العلوم البشرية هذه النماذج كلها في حركة نموّ العلم وتطوره.

٦ ـ الفطرة السليمة بطهرها وتقواها ترى وتبصر:

إن هذه الآيات المبثوثة في السموات والأرض، مفتوحة للقلب المؤمن ليرى فيها الآيات التي تنميّ إيمانه وتزيد من خشوعه ويقينه، ذلـك حين يتدبَّرها المؤمن، وحين ترتبط هذه الآيات مع فطرته السويّة، وحين يصاحب التأمل والتدبر ذكر الله ذكراً دائمًا، كما مر معنا في آيات كريمة سبق عرضها.

ولكن الفطرة المريضة المنحرفة، الفطرة التي غلب فجورها على تقواها، قد لا تدرك هذه الآيات، حين يُغلَقُ السمْعُ والأبصارُ، وتُسَدُّ المنافذ لفساد الفطرة. وعلى قدر الانحراف في الفطرة تغلق أبواب السمع والأبصار، وتتعطل الأفئدة عن عملها.

إن هذه الآيات المبثوثة في الكون، في كل ناحية منه، آيات بيّنات تدل على وجود الله. ولكن إدراك هذه الآيات إدراكاً يغذي الإيمان وينميه، أو يوقظه ويدفعه، لا يتم إلا إذا كانت الفطرة قادرة على استقبالها عن طريق السمع والأبصار والأفئدة.

وكـان من رحمة الله بعباده أن حفظ لهم الفطرة على صورة تظل تعمل وتستقبل وتدرك، حتى لو تعطل جزءٌ منها بعمل الإنسان السيء ونشاطه الفاسد. تظل الفطرة تعمـل برحمـة الله الـواسعـة، مهـما حطم الإنسـان منها بفجوره، ومهما أفسد منها بمعـاصيه. تظل تعمل مادام فيها رمق بسيط، حتى تفسد كلها، وتتحطّم كلُّها،

بصورة كلية، بعمل الإنسان وفجوره وفساده وكفره. وفي هذه الحالة فقط تتعطل قوى إدراك الإيمان واستقبالـه، ولا يعطلها إلا كفر الإنسان على إصرارٍ وكبرٍ وعناد. لا يعطلها شيء إلا عمل الإنسان نفسه حين يبلغ بفجوره هذا الحد البعيد من الكفر والشرك والإلحاد، وحين تمتدُّ به الآثام والمعاصي حدّاً يغشى الران معها قلب الإنسان كله.

ونحن لا نستطيع أن نُحصي على كل إنسان عمله، حتى نحكم عليه وعلى مستوى فطرته. ولكن الله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، هو وحده يستطيع أن يُحصي كل صغيرة وكبيرة، وهو وحده الذي يقضي بالحق، فيقضي لهذا أن يموت على الكفر جزاءً عادلاً حقاً لا ظلم معه، ويقضي لهذا أن يموت على الإيمان جزاءً حقاً عادلاً.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾
(غافر : ٢٠)

إن الله سبحانه وتعالى يقضي بما يشاء، ومشيئته هي الحق والعدل، لا ظلم معها أبداً.

وسواء أعلمنا وجه العدالة هنا أو هناك أم لم نعلمها، فإن ذلك لا يعطل العدالة ولا يغيّر من الحق شيئاً. إن مسيرة الحياة كلها، ونشاط الكون كله لا يتعطل بجهل الإنسان أو علمه. فالأرض لها حركتها، والشمس لها حركتها، والنجوم والكواكب وسائر الأجرام السماوية، ماضية في حالتها لا تتوقف على علم الإنسان بها أو جهله بها. والحق في الكون يمضي لا يعطله جهل الإنسان أو علمه. وسنّة الله ماضية، والله غالب على أمره.

ومن طريف ما أذكـر مما دار بيني وبـين بعض المتشككين من نقاش حول هذه القضايا، قضايا الإيمان والتوحيد، والربوبية والعبودية، أن قال أحدهم ذات ليلة وهو ينظر إلى السماء: لو أنّ الله كتب في السماء «لا إله إلا الله محمد رسول الله» بخط كبير يقرأه جميع الناس ويبقى في جميع العصور لآمن الناس كلهم.

ولم أُناقشه في حرفية هذا التصور. ولكني سألته: «إذا كنت تريد أن يقرأها جميع الناس مع مختلف مستوياتهم وأجناسهم في جميع العصور، فبأي لغة تريد أن تُكتَب».

فبهت وأطرق. ثمّ تابعتُ معه: نعم إن فكرتك جميلة. والله سبحانه وتعالى كتبها. ولكن كتبها بلغة يفهمها جميع الناس مع مختلف مستوياتهم وأجناسهم في جميع العصور. إن الله سبحانه وتعالى كتبها بلغة واضحة ليس في السماء وحدها، ولكن في الأرض وفي نفسك وفي كل مكان. إنها الآيات البيّنات المبثوثة في هذا الكون الممتد، إنها أحداث الحياة، إنها حركة الريح ونزول الأمطار، إنها في الموت، في الخصُوبة، في الربيع، في الشتاء، إنها في كل حركة وسكون:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (لقمان: ٢٠)

إن ما طلبت مكتوب حيثما ملت وتوجهت. إنه مكتوب ولكن المهم من يقرأ. . . !

فأطرق ثانية وقال: «صدقت».

إن الكون كله، إن الإنسان نفسه، إن التاريخ، إن هذا كله كتاب مفتوح، كل كلمة فيه تقول «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

إن التوحيد جليٌّ على صفحة الكون، وفي الإنسان، لتظل آيات الله تقرع قلب الإنسان في جميع العصور، والأمكنة:

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الذاريات: ٢٠ ـ ٢٣)

وكذلك:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾.

(فصّلت: ٥٣، ٥٤)

هذه الآيات المبثوثة في الكون كله، أينما سرت، أينما نظرت، يراها المؤمن، يرى في كل حركة آيةً بيّنة على التوحيد والإيمان بالله الواحد القهار. إن الإنسان ينظر بعينيه فيرى، ولكنّ البصيرةِ هي التي تبصر، والقلب هو الذي يخشع أو يستكبر. وتظلّ هذه الآيات تتجدَّد مع كلِّ يوم، وتزداد مع السنين، وتزدحم في ما يكتشفه الإنسان في هذا الكون، ليكون ذلك كله حجة على الإنسان إذا كفر وأنكر، وقوة له إذا آمن واعتبر. الكون مفتوح للناس كلهم ليروا آيات الله بيّنة جلية، فالفطرة السليمة النقية، والحواس الطاهرة، والفؤاد النقيُّ، يرى ويبصر ويعي ويعتبر. وأما من اندفع في الأعمال غير الصالحة، وجرى وراء الآثام والمعاصي، والفسق والفجور، فإن هذه المنافذ تتعطل شيئاً فشيئاً، حتى إذا بلغت الآثام حدّاً معيناً، تعطّلت المنافذ كلها لدى الإنسان حتى لا يعود يرى آيةً ولا عِبْرَة، فتظلم الحياة أمامه، وتطبق عليه الفتنة ويطويه البلاء:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (المطففين: ١٤ ـ ١٧)

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكت في قلبهِ نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صُقِلَ قلبُه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانو يكسبون﴾».

(رواه الترمذي وقال حسن صحيح)[1]

والرَّيْن: الطَّبعُ والدَّنس. ران ذنبه على قلبه: رَيْناً ورُيوناً، غَلَب. وران بك وعليك. رانت النفس: خبُثت وغثّتْ.

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾. (الكهف: ٥٧)

إنها الآثام والمعاصي، إنها ما كسبت أيديهم، إنها أعمالهم هم، فما كان الله

(١) سنن الترمذي: كتاب التفسير (٤٨). باب (٧٥). حديث (٣٣٣٤).

ليظلمهم، وما كان الله ليظلم أحداً:

﴿ . . . وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾. (النحل : ١١٨)

ولذلك كان ما يصيب الفاسقين والكافرين حقاً عدلاً من عند الله جزاءً بما كانوا يكسبون. وجاء التعبير القرآني ليؤكد هذا المعنى، ويجلو هذه الصورة:

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس : ٣٣)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة: ٦، ٧)

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾.

(النحل : ٣٦)

وهكذا تتناسق الصورة الإيمانية في قلب المؤمن، وتترابط المعاني، وتتجلي الآيات مشرقة بينة، في الكون، في نفسه، في الآفاق، في التاريخ، وتغلق هذه الأبواب على الفاسقين والكافرين والمنافقين.

ولا تنحصر آيات الله في ما قد نراه في السماء والأرض، وفي الآفاق كلها، ولكن حياة الإنسان على الأرض، مسيرة الفرد الواحد، وحياة الأمة والشعوب، هذه كلها تحمل آيات بيّنات تشرق بالتوحيد وبجلال الإيمان. ولذلك ألحّ الله سبحانه وتعالى على أن يسير الإنسان في الأرض، فينظر في سير الغابرين، وحياة السابقين، متأمِّلاً متدبِّراً حتى يعتبر فيخشع وينيب. وأما الكافر الذي سُدّت المنافذ إلى قلبه بآثامه وبما كسبت يداه، فإنه يدبر ويستكبر:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾.

(آل عمران : ١٣٧)

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (النمل : ٦٩)

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (العنكبوت : ٢٠)

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ

وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ (الروم : ٩)

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ . (يوسف : ١٠٩)

﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج : ٤٦)

﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴾ . (غافر : ٢١)

﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴾

(محمد : ١٠)

ومع كل آية من هذه الآيات الكريمة عبرة يراها المؤمن في الأرض، حين يتدبَّر سيرة الذين سبقوا. ففي الآية الأولى سنن ثابتة لله يمحق بها المكذبين، وفي الثانية تمضي السنن على المجرمين. وفي الآية الثالثة يرى المؤمن كيف بدأ الله الخلق وكيف ينشيء النشأة الآخرة، ويرى قدرة الله فهو على كل شيء قدير. ثم تأتي السُّنَّة الماضية، كما تعرضها الأية الرابعة، لتبيِّن لنا أن الله لا يظلم الناس، ولكنهم يظلمون أنفسهم بأعمالهم، وما كانت قوتهم ولا ثرواتهم تمنع من أن تمضي عليهم سنة الله. وتربط الآية الخامسة مسيرة الإنسان في الأرض مع الرسالة التي تعاقب الأنبياء والمرسلون على حملها وبيانها للناس، وتُبيِّن أنه مهما كان في الدنيا من متاع فالدار الآخرة خير للمتقين وتأتي الآية السادسة لتكشف لنا كيف أن الكافرين لا يرون هذه العبر والآيات، فلا قلوب لهم يعقلون بها ولا آذان يسمعون بها.

وفي الآية السابعة والآية الثامنة تأكيد على أن الله سبحانه وتعالى يأخذ الناس بذنوبهم، وبما كسبت أيديهم.

هذه قبسات من كتاب الله تعرض لنا طرفاً من آيات الله في الأرض، في ميدان محدَّد،

ميدان المسيرة البشرية على الأرض، يعرضها الوحي الكريم عرضاً مرتبطاً بالتوحيد، بالإيمان، عرضاً ربانياً معجزاً، عرضاً يحمل التناسق والتكامل مع منهاج الله كله.

ولو أردنا أن نحدِّد ميادين هذه الآيات المعروضة في الكون على نحو يعين على التدبُّر والتأمل، لوضعنا ذلك في النقاط التالية:

١ - الآيات المعروضة في السماء، الآيات الثابتة مع الدهر، المعروضة للإنسان، لكل الناس، كالشمس والقمر والنجوم وغير ذلك.

٢ - الآيات المعروضة في الأرض، ثابتة مع الدهر، يراها الناس جميعهم في النبات والحيوان وسائر المخلوقات، من بحار وجبال وأنهار وصحاري وغير ذلك.

٣ - الآيات المعروضة ثابتة مع الدهر للناس كلهم في ما يراه الناس من حركة الكون: كالليل والنهار، والفُصُول، والرياح والأمطار.

٤ - الآيات الثابتة المعروضة مع الدهر للناس كلهم في تاريخ الإنسان على الأرض.

٥ - الآيات البينـات في الإنسان ذاته، في خلقه ونفسه وطعامه وشرابه، ونفسه وحركته ونشاطه، في نومه ويقظته.

٦ - ما يبلغه الإنسان بمشيئة الله من خلال دراساته وأبحاثه في كل ميدان من الميادين السابقة.

من هنا نرى أن الآيات الدالة على التوحيد مبثوثة في الكون كله، في كل ميدان وكل حركة، حتى أصبحت جلية لكل إنسان، للقاعد وللساعي، وللعامل والعاطل، للقوي والضعيف، للغني والفقير، للناس جميعاً، حتى لا يكون عذر لأحد يوم القيامة أن يقول لم أر ولم أسمع ولم أشاهد.

لقد كانت الآيات ملء عينيه، حجة عليه، أو قوة له:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا

مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾
(آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩٤)

آيات بينات، آيات حق: خلق السموات والأرض، اختلاف الليل والنهار، آيات يدركها أولو الألباب، الذين يذكرون الله على كل أحوالهم، والذين يتفكرون ويدركون أن الله لم يخلق هذا باطلاً، لم يخلقه دون تدبير منه سبحانه وتعالى، ودون حكمة منه سبحانه وتعالى، ودون نظام وسنن ربّانية كونية. إنه الحق بتدبير الله وحكمته وسننه. هذه الآيات المبثوثة في الكون كأنها تنادي الناس جميعاً: أن آمنوا بربكم كأنها تردِّد نداء الأنبياء والمرسلين: أن آمنوا بربكم! كأنها تردد نداء خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ: أن آمنوا بربكم، كأنها تردد آيات القرآن الكريم: آن آمنوا بربكم. إنه نداء عظيم يملأ الكون كله، نداء ينادي للإيمان بالله، للتوحيد، فكيف لا يسمعه الإنسان. إنه نداء يملأ الكون فتسمعه الفطرة السوية النقية، الفطرة التي تفتح منافذ السمع والبصر إلى الفؤاد، ليعي الفؤاد فيفكر ويتدبر، ويخشع وينيب.

إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها هي التي تتجاوب مع هذه الآيات البينات المبثوثة في الكون، الآيات البينات الدالة على التوحيد، الدالة على أنه: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير». إنّها آيات بينات دالة على ذلك، ناطقة بذلك، منادية بذلك، نداء مدوياً يملأ الكون كله.

هنا تتعامل الفطرة مع الكون، ومع الآيات المبثوثة في الكون. أما من ماتت فطرته، وسُدَّت منافذه فأنى له أن يسمع هذا النداء العظيم. أما أصحاب الفطرة النقيَّة السليمة فإنهم يظلون مع تفكيرهم وتأملهم، مع ذكرهم لله، يظلون يقولُون: ربَّنا. . . ، ربَّنا. . . ، ربَّنا. . . !

إن الكون كله ينادي للإيمان، يردد نداء الأنبياء والمرسلين، يردد نداء القرآن الكريم، يردد نداء الفطرة السليمة في الإنسان. كلُّ ما في الكون يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وكل ما في الكون يسجد ويخشع لله رب العرش العظيم، فكيف لا يخشع الإنسان ولا يسجد، كيف يستكبر؟!

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾
(الحج : ١٨)

كل ما في الكون خاشع ساجد، وكثير من الناس كذلك يسجدون ويخشعون، وهم المؤمنون، وكثير أيضاً يستكبرون فيحقُّ عليهم العذاب من عند الله. إنه عذاب حق لا ظلم معــه، إنهم استحقـوا هذا العـذاب بما كسبتـه أيديهم، فما كان الله ليظلمهم، فقد حرَّم الله الظلم على نفسه، وحرَّمه على عباده، وأصبح الحقُّ هو نظام الكون كله، حق وعدل، وحكمة ومشيئة ربّانية غالبة، وتدبير رباني في الكون كله، لا يعطله جهل من جهل، ولا يؤثر فيه علم من علم. إنه تدبير الله الذي يقضي بالحق:

﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾
(غافر : ٢٠)

فإذا كان الله سبحانه وتعالى خلق عباده على الفطرة، على دين الفطرة، على الإيمان والتوحيد، على دين الإسلام، فإنه لم يترك هذه الفطرة دون رعاية وحماية منه سبحانه وتعالى. وحين سبقت كلمة الله فجعل الحياة الدنيا دار ابتلاء وتمحيص، يختبر فيها الناس وتجلى فيها معادنهم، وتقوم الحجة على كل إنسان قبل أن يموت، حين سبقت كلمة الله فجعل هذا الإبتلاء سنّة ثابتة من سننه في خلقه وعباده في الحياة الدنيا، فإنه سبحانه وتعالى جعل برحمته آيات الكون راعية للإنسان، حانية على الفطرة، تمدّها بالرِّيِّ والغذاء، حتى تبقى على سلامتها وقوتها، فتنجو من البلاء برحمة الله، وتنجح في الابتلاء، حتى تتنزل عليها رحمة الله فيثبِّتها على الإيمان والتوحيد رحمة منه سبحانه وتعـالى. أما من غلبه هواه، واتبع شهوته، وأحاطت به خطيئته وما كسبت يداه، فيسقط في البلاء والابتلاء، حتى يستحقَّ عقاب الله عدلاً منه سبحانه وتعالى لا ظلم معه أبداً.

وتظل آيات الكون رحمة منه سبحانه وتعالى، آيات بينات تدعو الناس إلى الإيمان، شاهدة على أن الله لا إله إلا هو، سبحانه وتعالى عما يشركون علوّاً كبيراً.

وتمتدُّ رحمة الله على عباده، رحمة حانية، رحمةً تظلُّ ترعى فطرة الإنسان التي فُطِر عليها، فبعث الله الأنبياء والمرسلين وأنزل معهم الكتب، وختمهم بمحمد ﷺ، وأنزل عليه القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، وتعهَّد الله بحفظ الذكر، بحفظ كتاب الله!

وإلى الفصل المقبل لنتفيّأ بظلال هذه الرحمة الحانية!

الفصل الثالث

الأنبياء والرسل والكتب المنَزَّلة

في الصفحات السابقة أوضحنا عدة قضايا رئيسية في طريق الدعوة، نوجزها بما يلي:

أولاً: إن قضية الإيمان هي القضية الأُولى في حياة كل إنسان في هذه الحياة الدنيا، وهي الحقيقة الكبرى في الكون، ولابد من إبراز هذا الأمر وأنت تدعو الناس ليقدِّروا خطورة ما تدعو إليه.

ثانياً: إن الإيمان قضية كل إنسان في كل عصر. فلا تقتصر قضيته على العلماء والعباقرة، ولا على جنس دون جنس، ولا جيل دون جيل، ولا على عصر دون عصر. ورحمة الله وعدله قضت أن يجعل سبل الإيمان ميسرة للناس كلهم، حتى يكون حسابهم على أساس من هذا اليسر الذي قضاه. لذلك كان الإيمان قضية فطرة وبداهة. فالفطرة هي العامل المشترك في جميع البشر والأجناس والعصور. والحياة الدنيا هي الفسحة الوحيدة أمام الإنسان ليجلو موقفاً يتحمل فيه خطورة مسئوليته، في الحياة الدنيا وبعد الموت.

ثالثاً: إن العبادة ظاهرة ممتدة في تاريخ البشريّة كلها، على امتداد العصور، وتباعد الأماكن. وإن امتداد هذه الظاهرة على هذا النحو، وتعدّد أشكال العبادة، يشير هذا كله إلى أن العبادة كلها ذات أصل واحد، وأن هذه الأشكال المختلفة انحرافات عن الأصل الواحد. والانحرافات التي نشاهدها اليوم، في واقعنا المعاصر، عن الإسلام الذي حفظ الله أصله فينا دليل على ذلك.

رابعاً: إن الأُلوهية والربوبيّة وجلالها تحمل هذه كلها معاني وتصوراً يتعارض مع هذه الانحرافات، التي لا تدلّ على جلال الأُلوهية بقدر ما تدل على شرك وتضارب.

خامساً: قضت رحمة الله أن يبث آياته في الكون كله لتكون آيات مبيّنات على وحدانيته، توقظ الفطرة الغافية، وتعالج الفطرة المريضة، وتنمي الإيمان في الفطرة

السلمية، ذلك كله حتى تَرُدَّ هذه الآياتُ البيّناتُ الناسَ إلى حقيقة الإيمان.

كانت هذه القضايا كلها هي محور الحديث في الصحفات الماضية. وأحببنا هنا أن نوجزها لنذكرِّ بها ولنثبِّتها في القلوب.

١ ـ بعث الله الأنبياء والمرسلين ليخاطبوا الفطرة أيضا:

وكـذلـك قضت رحمة الله الواسعة أن يبعث لهم الأنبياء والرسل، حتى يوقظوا الفطرة الغافية كذلك، ويعالجوا الفطرة المريضة، ويدفعوا الفطرة السليمة إلى آفاق الإيمان، وجلال التوحيد، وجمال العبودية لله والتسليم المطلق له:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣١)

فبعث الله الأنبياء والرسل رحمة من عنده وفضلاً ومنَّة. بعثهم مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتب ليقوم الناس بالقسط.

منـذ أن نزل آدم عليه السـلام إلى الأرض، نزل مؤمناً بالله، وبلغ الرسالة إلى ذريته، ومضت ذرية آدم أُمةً واحدة على الإيمان، تعبد ربّاً واحداً. وظلّ الناس كذلك أُمة واحدة دينهم الإسلام لا دين لهم غيره.

ثم قضت مشيئة الله أن يختلف الناس بعد ذلك فريقين:

فريق مؤمن وفريق كافر، وكان هذا باباً من أبواب سنة الاختلاف التي أرادها الله في الحياة الدنيا، ابتلاء منه لعباده وتمحيصاً لهم. من أجل ذلك بعث الله النبيين منذرين للكافرين ومبشرين للمؤمنين:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

(البقرة: ٢١٣)

ويظل المؤمن ماضياً مع الحق بإذن الله يهديه الله إلى ذلك بإيمانه، وبرحمة الله له.

ويتأكد المعنى في أكثر من موضع في كتاب الله:

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (يونس: ١٩)

وتؤكد كتب التفسير أن الناس كانوا أُمة واحدة على دين واحد هو الإسلام، حتى انحرف بعضهم فعبد الأصنام، فبعث الله نوحاً عليه السلام أول رسول إلى أهل الأرض. والآية في سورة يونس توضح المعنى الوارد في الآية من سورة البقرة وتؤكده.

وكذلك ما جاء في صحيح البخاري:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع النبيّ ﷺ في دعوة فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه ونهس منها نهسة وقال: «أنا سيد القوم يوم القيامة هل تدرون بمن يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس، فيقول بعض الناس ألا ترون إلى ما أنتم فيه، إلى ما بلغكم، ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم. فيقول بعض الناس أبوكم آدم فيأتونه فيقولون: ياآدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنّة، ألا تشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيته نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون يانوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسمّاك الله عبداً شكوراً أما ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى ما بلغنا، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله نفسي نفسي ائتوا النبي ﷺ، فيأتونني فأسجد تحت العرش فيقال يامحمد ارفع رأسك واشفع تشفّعْ وسلْ تعطه. قال محمدُ بن عبيد لا أحفظ سائره» (رواه البخاري)[1]

إذن كان الناس أُمة واحدة، وكان نوح عليه السلام أول الرسل إلى الأرض، وكان الرسل مبشرين ومنذرين.

منذ ذلك التاريخ البعيد، حين بدأ انحراف الناس عن دين الفطرة وصفاء الإيمان، بدأ المنحرفون من فاسقين وكافرين ومنافقين يطرحون أسئلة الريبة والشك، ويجادلون في جهل ومراء، ويسألون البرهان على وجود الله سبحانه وتعالى.

وتوالى الرسل، ورفع الله بعضهم درجات لحكمة هو يعلمها، ومضى اختلاف الناس على أنبيائهم ابتلاء من الله سبحانه وتعالى وتمحيصاً لعباده. واشتد الاختلاف حتى أصبح اقتتالاً:

(١) صحيح البخاري: كتاب (٦٠) باب (٣).

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

(البقرة : ٢٥٣)

نعم! ﴿**ولكن الله يفعل ما يريد**﴾. وإرادته هي الحق والعدل، والعلم والحكمة، لا تتأثر ولا تتغير بعلم الإنسان أو جهله. فالله غالب على أمره وسنته ماضية.

لقد بعث الله رسله بالبيّنات. ومع كل رسول كانت بيّنته وحجته، لتردَّ على الكافرين من قومه، ولينذر ويُبشّر:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

(الحديد : ٢٥)

﴿**وأرسلنا رسلنا بالبينات...**﴾ بيّنات تقوم بها الحجة، وبرهان قاطع. وكانت الآيات البيّنات تختلف في بعض نواحيها من رسول إلى آخر. فقد جاء موسى بتسع آيات بينات، تقتضيها الدعوة في ذلك العهد، وجاء عيسى بآيات بيِّنات أخرى، وفضِّل كلُّ نبيٍّ بآياته التي جاء بها. ولكن جميع الأنبياء والرسل جاءوا بقضية واحدة: هي قضية التوحيد، قضية أن لا إله إلا الله، وجاءوا كذلك يشهدون بأن محمداً ﷺ سيكون خاتم النبيين والمرسلين. ويؤكد القرآن الكريم القضية الواحدة للأنبياء والمرسلين في أكثر من سورة. ففي سورة الأعراف:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

(الأعراف : ٥٩)

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

(الأعراف : ٦٥)

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(الأعراف : ٧٣)

وهكذا تظل القضية واحدة مع جميع الرسالات، واضحة حاسمة. ومع كل رسول

أو نبـيّ آيات بينات.

وأنزل الله معهم الكتاب، وأنزل معهم الميزان حتى تقوم حياتهم بالقسط والحق والأمانة.

• وكان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة. ثم كان محمد ﷺ رسولاً ونبيّاً للعالمين:

عن جابر بن عبدالله الأنصاري رضـي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحد قبلي. كان كلُّ نبـيّ يبعث إلى قومه خاصَّة، وبُعثتُ إلى كل أحمر وأسود. وأُحلتْ لي الغنائم، ولم تحلَّ لأحد قبلي. وجعلتْ لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيما رجلٍ أدركته الصلاة صلى حيث كان. ونصرت بالرُّعْب بين يدي مسيرة شهر. وأُعطيت الشفاعة» (رواه مسلم)[1]

وفي القرآن الكريم:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . .﴾ (الأعراف: ١٥٨)

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: ٢٨)

فكان كل نبـيّ يُرسل إلى قومه خاصة، وبعث الله في كل أُمة رسولاً. وسواء أعرفنا نحن الرسل أم لم نعرفهم، فلا تتغيّر الحقيقة، ولا يقوم صدقها على معرفتنا بها. إنه أمر فوق علم البشر وفوق بحوثهم ودراساتهم. إنه من علم الغيب، ولا يعلمه إلا الله:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾. (النحل: ٣٦)

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥)

---

(١) صحيح مسلم: كتاب المساجد (٥). حديث (٣/٥٢١).

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴾. (الملك : ٨، ٩)

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (فاطر : ٢٤)

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

(يونس : ٤٧)

هذه قبسات من كتاب الله، وقبسات من أحاديث رسول الله ﷺ، تكشف لنا الحقيقة اليقينيّة، الحقيقة التي لا يمكن الوصول إليها بالبحث والتنقيب، وبجهود الإنسان وحده، ولكنها من علم الغيب أنبأنا الله بها، وقام كلُّ ما حولنا من آثار التاريخ، ومن بقايا الشعوب والأمم وإنتاجها، والسيرة النبويّة الخالدة، قام هذا كله يشهد لهذه الحقيقة الربانية. وهي جزء من الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

هذه الحقيقة تقرر أن الله سبحانه وتعالى بعث رسلاً مبشرين ومنذرين إلى جميع الأمم والشعوب على ظهر البسيطة، وكان أولهم نوحٌ عليه السلام، وكان كل نبيّ يرسل إلى قومه خاصة مع الآيات البيّنات، وبُعِث محمد ﷺ، خاتم النبيين والمرسلين إلى الناس كافة، إلى العالمين، إلى الإنس والجن.

٢ ـ أنزل الله الكتاب مع بعض الأنبياء والرسل :

أنزل الله معهم الكتاب. فحرَّفَتْ بعض الأُمم كتابها، وبقي لنا آثار من التوراة والإنجيل على ما فيها من التحريف والتبديل والإخفاء. وتعهد الله للناس بحفظ ما أوحى به إلى نبيه محمد ﷺ ـ قرآناً وسنة ـ منهاجاً ربانياً يبقى حتى تقوم الساعة، نوراً وبرهاناً للمؤمنين، وحجّةً على الكافرين.

فبالإضافة إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي الحجة الأُولى والبرهان الأول، قامت الآيات البيّنات في الكون تثبتّ ما في الفطرة من أُسس الإيمان، وتوقظ الفطرة الغافية، وتقوِّم الفطرة المنحرفة. وكذلك جاءت الرسل والأنبياء لهذه الغاية ذاتها رحمة من عند الله، وأنزل معهم الكتب السماوية كذلك رحمة من عنده وبرهاناً

وحجة . ولقد ذكر القرآن الكريم عدداً من المرسلين ، وذكر بعضاً من الكتب المنزلة :

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾

(النساء : ١٦٣)

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

(الأنبياء : ١٠٥)

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

(المائدة : ٤٤)

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (المائدة : ٤٦)

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (المائدة : ٤٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ .

(النساء : ١٧٤)

هذا بُرْهان من عند الله ، وهو نور مبين ، وهو هدى وموعظة ، وهو بُشرى وشفاء .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر : ٩)

هذا هو القرآن الكريم وسنة رسول الله محمد ﷺ ، المنهاج الرَّباني ، الفرقان :

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(الأعراف : ١، ٢)

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (الفرقان : ١)

وبهذا تكون الحجة القاطعة ، والبيان الكامل ، والبرهان والنور ، قد استُكمِل وتمّ . فلا حجة بعدئذ لأحد . لقد امتدت رحمة الله فجعل الكون كله آيات ، وجعل الآيات

في نفس الإنسان، ثم بعث النبيين والمرسلين مبشرين ومنذرين، حتى لا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل:

﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ (النساء: ١٦٥)

٣ ـ لا حجة للناس على الله بعد الرسل:

لا حجّة للناس على الله بعد الرسل أبداً. كيف يكون لهم حجة وقد جعل الله الإيمان فطرةً فطرهم عليها؟ وجعل من رحمته آيات بيّنات تشير إلى التوحيد الخالص، آيات بينات في السماء والأرض وما بينهما، آيات في الإنسان نفسه، في خلقه وتكوينه وأعضائه، في نفسيّته وتفكيره وعقله، وكذلك في تاريخ الإنسان، آيات بينات لا تنتهي ولا تنفد أبداً! ثمّ جاءت الرسل بعد ذلك كله لتبشِّر وتنذر، لتذكِّر وتعظ، لتوقظ وتنبِّه. ثم كانت الحجة القاطعة مع خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، قرآناً عربياً غير ذي عوج، نوراً وبرهاناً وشفاء وهدى وموعظة وذكرى، ومهيمناً على الكتاب كله. فأنّى لأحد أن تكون له حجة على الله. اللهم يامقلب القلوب ثبّتْ قلوبنا على دينك. إنك حق ودينك حق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لقد تبيّن لنا من الآيات الكريمة السابقة أن الله سبحانه وتعالى بعث في كلّ أُمة رسولاً لينذر ويبشر، ليوقظ وينبه، ليعين وليعلم. فما من أُمة في الأرض إلا جاءها رسول يبلغها أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، على سنّة منه سبحانه وتعالى وحكمة وعدل، حتى تنقطع حجة كل إنسان يوم القيامة، بعد أن أرسل الله الرسل:

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (المؤمنون: ٤٤)

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ (الزمر: ٧١)

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ (الملك: ٨ ـ ١١)

فاستمع إلى هذه الأسئلة المحددة . . . ﴿**ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟! . . .**﴾ وكذلك ﴿**. . . ألم يأتكم نذير؟!**﴾ وكانت الإجابة واضحة جلية: ﴿**قالوا بلى . . .**﴾، وكذلك: ﴿**قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزَّل الله من شيء . . .**﴾.

وواقع الإنسان اليوم، وواقعه فيما علمنا من ماضيه وتاريخه، يؤكد هذه الحقيقة. فإذا جمعنا بين قضية العبادة، وقضية الأُلوهية والتوحيد، وقضية الرسل، ثم قضية الانحراف، ظهرت لنا حقيقة ما نجده في واقعنا اليوم، وفي ما علمناه من التاريخ. فاليونان والرومان والهند والصين، وغيرها من الأُمم والشعوب، حيث تجد الأصنام لديهم والأوثان، وأشكالاً متعددة هنا وهناك من العبادة، هؤلاء الأقوام جميعهم يقدِّمون لنا في تاريخهم وفي واقعهم اليوم الدليل بعد الدليل على أن الأصنام ونماذج العبادة ليست إلا صوراً متنوعة للانحراف عن الأصل الواحد من التوحيد، وأن الله بعث إليهم الأنبياء والمرسلين برسالة التوحيد الخالص، وأنهم قد بُلِّغوا رسالة ربهم، فآمن من آمن، وكفر من كفر، ثم انحرف الناس عن التوحيد، كما انحرفوا اليوم في واقعنا المعاصر، حيث أصل التوحيد قائم في الإسلام في كتاب الله وسنة نبيه، في المنهاج الرباني، محفوظاً بحفظ الله وعنايته. إن واقعنا اليوم، والإسلام دين قائم ورسالته محفوظة، ليفسّر لنا كثيراً من مظاهر التاريخ، ومظاهر الانحراف. وليؤكد لنا ما تؤكده الآيات الكريمة من أن الله بعث في كل أُمة رسولاً أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. وستظل جهود الإنسان في البحث والتنقيب تكشف ما يؤكد هذه الحقيقة، وكفى بكتاب الله وآياته شاهداً ومؤكداً. ولكننا نورد هذه الأدلة لمن ساوره الشك، أو اقتربت منه فتنة، أو وقع فيها.

وهكذا نجد كيف أن القضايا التي عرضناها أخذت تترابط فيما بينها، وتتناسق على نحو محكم جليّ: فالتوحيد والعبادة، والانحراف، ومعنى الأُلوهية، وفطرة الإنسان وما وضع الله فيها من الإيمان والتوحيد، وآيات الله في الكون وهي تخاطب الفطرة السوية وتربط التوحيد بالإنسان والكون، والرسل والأنبياء والكتب المنزلة، هذه كلها تتناسق في قلب الإنسان المؤمن تناسقاً كاملاً، ويعرضها منهاج الله عرضاً ربانياً معجزاً

حتى لا يبقى لأحد عذرٌ أو حجَّة في شرك أبداً.

٤ ـ بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنزل القران مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه :

لقد خُتم الأنبياء والمرسلون بمحمد ﷺ. وهذه وحدها آية معجزة من آيات الله، جلية مشرقة، تظل تزداد ألْقاً وإشراقاً مع الزمن، وتزداد قوة ويقيناً، حجّةً قائمة على المشركين إلى يوم القيامة وأنزل الله القرآن الكريم على عبده محمد ﷺ، كما أنزل الكتب السابقة، ولكن ليكون الحجة الباقية أبد الدهر، وليحمل النور والبرهان، وليخاطب الناس أجمعين، والعصور والأجيال، حتى تقوم الساعة. وسيظل منهاج الله ذكراً يحفظه الله، لا يصيبه تبديل ولا تحريف، ولا يصيبه نقص ولا ضياع. وإذا أراد الله أمراً فلا رادَّ لأمره ولا لقضائه، والكون كله خاضع لأمر الله. وجاء القرآن الكريم بناء على ذلك مهيمناً على الكتب السماوية كلها، جامعاً لكل ما يحتاجه الخلق، مفصلاً كل تفصيل، حتى لم يعد للكتب السماوية السابقة إلا أن تكون حجة على الذين حرّفوا فيها وبدّلوا فيها.

سيظل منهاج الله بين أيدي الناس ليقدم الحجة والنور والبرهان على صدق رسالة التوحيد، وجلال الألوهية، وعزة العبودية لله رب العالمين. ولقد سبق أن ذكرنا الآية الكريمة من سورة المائدة، ولكننا نُعيدها لأهمية هذا الموضوع، مع آيات أُخرى:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (المائدة: ٤٨ ـ ٥٠)

أنـزلـه الله بالحق! وكذلك أنزله مصدقاً لما بين يديه من الكتاب! وكذلك أنزله مهيمناً عليها. ولهذه الأسباب كلها أمر الله سبحانه وتعالى نبيه أن يحكم بينهم بما أنزل

الله عليه، بالقرآن، بالوحي المتنزّل من عند الله على محمد ﷺ، ونهاه عن أن يتبع أهواءهم! وبيَّن أن الله بعث الأنبياء وأنزل الكتب السماوية ابتلاء منه سبحانه وتعالى وتمحيصاً.

هذا القرآن الكريم سيظل الحجة الجامعة لدى الإنسان أبد الدهر، وسيظل النور والبرهان، والشفاء والموعظة، وسيظل كما وصفه الله سبحانه وتعالى وصفاً لا يستطيع أحد من الناس بلوغه. ولكننا لابد من أن نشير إلى نقاط رئيسية:

أولاً: مع إعجازه في كل أُموره حتى إنه لا يستطيع أحد من الإنس أو الجنّ أن يأتي بمثله أو بعشر آيات من مثله، مع هذا الإعجاز جعله الله ميسّراً للذكر. ولقد سبق أن ذكرنا الآيات الكريمة من سورة القمر بهذا المعنى ونعيدها هنا:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠)

ثانياً: يستطيع كل إنسان أن يأخذ من كتاب الله قدر وسعه الذي سيحاسبه الله عليه، وطاقته التي وهبها الله له. وأول ما يحتاجه الإنسان هو أن يعرف اللغة العربية، التي لم تعد مجرد لغة قومية للعرب وحدهم، وإنما أصبحت، بالوحي المتنزِّل والرسالة المبلَّغة، لغة الإنسان، لغة المؤمنين المتعبِّدين، لغة الإسلام، لغة العصور والأجيال. وسيحفظها الله مع حفظه للذكر.

ثالثاً: يعرض كتاب الله نظاماً كاملاً للإنسان، يربط جميع ميادين حياته، ليقوم هذا النظام على التوحيد، ولترتبط قواعده كلها بالتوحيد.

رابعاً: يقدم كتاب الله الحجة البالغة للردِّ على المشركين على مختلف مذاهب الكفر والشرك والإلحاد التي تقوم في واقعنا المعاصر.

خامساً: لهذه الأسباب كلها يجب أن يكون القرآن مع كل إنسان مؤمن صحبة عمر وحياة، لا تتوقف تلاوته ودراسته، وتدبّره وحفظه أبداً. وتظل بذلك بركته وخيره مع الإنسان في قلبه وبصره وسمعه، وبدنه وعافيته، وصحته ومرضه، وقوته وضعفه، زاداً لا غناء له عنه أبداً في جميع أحواله[1].

---

(١) يراجع كتاب دور المنهاج الربّاني في الدعوة الإسلامية، وكتاب منهج المؤمن بين العلم والتطبيق.

قد يعترض بعضهم على أننا نأتي بالبينة والحجة من كتاب الله وسنة نبيه. وقد يقول قائل كيف نقنع المشركين بحجة من كتاب لا يؤمنون به. ونردُّ على هؤلاء بأن القرآن الكريم جاء ليردّ على المشركين والكافرين، وقدّم الحجة ضدَّهم وهم كانوا لا يؤمنون به. وهي حجة من عند الله، فهي أصدق حجة وأبلغ. ومازالت دعوى المشركين اليوم مثل دعواهم في الماضـي، لم تتبدل إلا بألوانها وأصباغها.

وكـذلك فإن التجربة في ميدان الدعوة بينت أن خير حجة تسوقها، وخير بيان تقدمه هو من كتاب الله وسنّة رسوله. فهي الحجة التي لا تُردُّ إذا وفّق الداعية إلى اختيار الآية أو الحديث مما يصلح لهذا أو ذاك.

وعنـدما نذكر كتاب الله فإننا نعني أن سنة رسوله ﷺ جزء لا يتجزأ من المنهاج الرباني. وفي الوقت نفسه نعتبر أن المنهاج الرباني يتألف من ثلاثة عناصر لا تفترق أبـداً: القرآن الكريم، سنة الرسول محمد ﷺ، اللغة العربية التي جاء بها القرآن وجاءت بها السنّة.

ولا يتعارض هذا مع ما يمكن أن يقدِّمه الداعية المؤمن من آيات الله البيّنات في السموات والأرض، أو مما يكشف عنه العلم والجهد البشريّ من دروس وعبر، ومن آيات بينات في الكون وفي حياة الإنسان، ليكون ذلك كله خاضعاً لتوجيه القرآن الكـريم. ولا يتعـارض هذا مع ما يمكن أن يسـوقـه الداعية من تجارب في حياة الإنسان، أو من عبر مَرَّ هو بها، ليوضّح بذلك حجةً وبرهاناً، ويكشف عن ظلال آيات كريمة وأحاديث شريفة. وبذلك يظل نهج المؤمن وهو يدعو نهجاً منطلقاً في نور وإشراق، غنيّاً بالزاد، قوياً بالحجة. ويظل نهج المؤمن بذلك نهجاً يصوغه منهاج الله على قوة ويقين، ووضوح وجلاء.

القرآن الكريم، كتاب الله المنزل على عبده محمد ﷺ، الفرقان، البرهان، النور المبين، أنزله الله سبحانه وتعالى حتى يتدبّر الناس آياته وحتى يتذكر أولو الألباب:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ (ص: ٢٩)

ولا نستطيع أن نصف كتاب الله بأحسن مما وصفه الله سبحانه وتعالى، أو بأحسن مما وصفه رسول الله ﷺ. ولقد ذكرنا بعض الآيات في وصف كتاب الله، والآيات

كثيرة في هذه الصدد، كلُّ آية تعطي ظّلاً جديداً، أو تزيده تأكيداً. ولنستمع إلى حديث رسول الله ﷺ يصف القرآن الكريم:

عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أما إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنّها ستكون فتنة. فقلتُ: ما المخرج منها يارسول الله؟! قال: كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبَّارٍ قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنتهِ الجنُّ إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد﴾، من قال به صُدِّق، ومن عَمِل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم». خذها إليك ياأعور. أي الحارث الأعور الذي كان يخاطبه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بهذا الحديث.

(رواه الترمذي)[1]

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه» (رواه الترمذي)[2]

بعض الدعاة يحسب أن الفلسفة البشرية أبعد أثراً في الإقناع، أو أن الاستدلال المجرّد بالعلماء الغربيين أقوى حجة. ومع أننا نود أن يخوض كل داعية تجربته، إلا أنني أنصح أن يكون هنالك خُطَّة ونهج توجه أُسلوب الدعوة واختيار الوسائل وأضرب مثلاً على ذلك بتجربة مررتُ بها.

كنت مديراً للإذاعة في محطة إرسال قرب مدينة حمص. وكان يعمل في المحطة مهندس جامعي تشيكوسلوفاكي. وكان معنا أثناء تركيب المحطة، فريق عمل كامل من شركة «تِسلا» التشيكية. فبعد التعارف بدأت فوراً أدعوهم إلى الإسلام، وبدأوا هم يدعونني إلى الشيوعية. وأخذ جدل طويل يدور بيننا استغرق أشهراً مع بعضهم، وأكثر من سنة مع آخرين، حتى استقر الأمر والجدال مع مهندس استمرت إقامته في المحطة. كان من جملة ما قاله لي، حين أخذت حججه تنهار، إنك تغلبني لأن لغتك

(١)،(٢) سنن الترمذي: كتاب فضائل القرآن (٤٦). باب (١٤). حديث (٢٩٠٦)، (٢٩٠٧).

الانجليزية أقوى. ولو حدثتني بالفرنسية لكنت أقنعتك. فأجبته: لا! إن الفرق الأساسي بيننا ليس اللغة فلغتك الانجليزية واضحة غير مضطربة. إن الفرق الأساسي هو أنني درست شيوعيتك فأنا أتكلم معك عن معرفة، وطبعاً درستُ الإسلام. ولكن أنت تنتقد الإسلام وأنتَ لا تعرفه، فتقع في أخطاء جسيمة تضعف حجتك. فلو درستَ الإسلام كما درستَ الشيوعيةَ لكنتَ أقربَ إلى المنهاج العلمي الأمين. فقال: صدقتَ! ولكن كيف أدرس الإسلام؟! قلت له: سأحضر لك ترجمة القرآن الكريم بالفرنسية، باللغة التي تتقنها وتحبها، فوافق فأحضرت له الترجمة. وبدأ بدراستها بشوق ونهم. وكان يعود إليَّ بين الحين والآخر ليسأل في حقوق العمال والمرأة وغير ذلك، حتى أتمَّ دراسة ترجمة القرآن مرّتين. وقبل أن أُغادر حمص، قال لي: «لا أقول لك إني آمنت تماماً بالله، فمازال لي بعض الأسئلة. ولكن أؤكد لك أن هذا الكتاب هو أعظم كتاب قرأته في حياتي كلها. وأنا بحاجة إلى أن أعيد دراسته. وليتني أتعلم العربية لأقرأه بلغته الأصلية، فالترجمة دائمًا أقل من الأصل».

لا أدري ما حاله الآن، فالهداية بيد الله، والإنسان يؤدي واجبه ويدعو إلى الله ورسوله والله يفعل ما يشاء.

وكان من طريف ما دار بيننا من حوار ذات مرة، أن ناقشنا دور المرأة في المجتمع. وعرضتُ له إلى أي حدٍّ تبتذلُ المرأة حين تضطر إلى العمل في تنظيف الشوارع وهي في شيخوختها. أمثلة كثيرة وحوار طويل. ثم قال أخيراً: «لو أن نساء تشيكوسلوفاكيا يرون ما تناله المرأة عندكم من احترام وعدالة وحماية لآثرن كلهنّ الإسلام». قال هذا بعد أن رأى نماذج من الحياة الإسلامية ساعدت على الشرح والتوضيح.

هذا هو أثر القرآن الكريم في رجل غير عربيّ. رجل جامعي مهندس، درس في بلاده فكر قومه وحضارتهم، حتى اعتبروا أنفسهم هم المتقدمين ونحن المتأخرين. نعم، لقد كان هنالك حوار دائم بيننا يساعد على توضيح ما يقرأ، وكان هنالك حوار سابق من آثاره أن شوّقه لدراسة القرآن. لقد كان محور حديثي معه هو التوحيد، الإيمان بالله سبحانه وتعالى، ربّاً واحداً لا شريك له، له الأسماء الحسنى كلها. وكلما كان يطرق موضوعاً جانبياً بالنسبة للتوحيد، هامّاً بالنسبة له، كنتُ أُجيبه بما يشبع

رغبته واهتمامه، ثمّ أربط الموضوع نفسه بالتوحيد من خلال آيات وأحاديث. لقد كانت الآيات والأحاديث أعظم أثراً في نفسه، حين أسوقها في موضوعها من خلال تسلسل منطقي يربط الحجة لتخاطب العقل والقلب والفطرة.

لابدّ من أن نتذكر ونحن ندعو الناس إلى التوحيد، أننا ندعو بشراً مثلنا، خلقهم الله على الفطرة كما خلقنا، يشعرون كما يشعر الناس، يخافون، ويرغبون، ويحبون ويكرهون. يهزُّهم الموت، ويفزعهم القبر، وتثيرهم أحداث الحياة، وتشدُّهم آيات الله في الكون، في السماء، في الأرض، في أنفسهم.

شتان بين داعية يريد أن يسخِّر الدعوة ليمجد هذا الرجل أو ذاك، أو يهاجم هذا وذاك، أو يدعو لعصبية هنا وهناك، شتان بين هذا الداعية وبين من يدعو إلى الله ورسوله، إلى الإيمان، إلى التوحيد. إن العصبية الجاهلية لهذا وذاك قد تستهلك الوقت والجهد والفكر، بينما يظلُّ الناس على جاهليتهم، لم يقتربوا من نور الإيمان. ولكن الناس وقضاياهم، وحاجاتهم وأمور دنياهم، والقضايا الاجتماعية والسياسية كلها يمكن أن تكون مدخلاً إلى التوحيد والإيمان، حين يجعلها الداعية حجّة لحق وبرهاناً على صفاء، أو حين يصبح التوحيد هو منطلق فهم هذه القضايا والحاجات، والأحداث والهموم، بأسلوب مقنع هادىء، تستريح عنده النفوس المكدودة، وتطمئن معه القلوب الخائفة، وتستقر العقول الحائرة التائهة. في ظلال التوحيد وأنداء الإيمان تصان الحقوق كلها، والحاجات كلها، وتدرس قضايا الناس، وتحفظ أعراضهم!

الباب الثالث

بين قضاء الله وقدره وبين مسئولية الإنسان

الفصل الأول

مشيئة الله وقضاؤه وقدره

١ ـ تمهيد :

لقـد عرضنا فيما سبق من الفصول والأبواب بعض جوانب الإيمان، وعدداً من القضايا الأساسية المتعلقة بالتوحيد.

ونودُ هنا أن نذكّر بقضيتين أساسيتين، نحتاج إلى إعادتهما أكثر من مرة، لأهميتهما من ناحية، ولكثرة نسيان الإنسان لهما أو لوقوع الخطأ في تصورهما. وهاتان القضيتان هما:

١ ـ إن الإيمان والتوحيد يمثلان أخطر قضية في حياة كل إنسان، وكذلك في حياة البشرية كلها. وإن الحياة الدنيا هي الفسحة الوحيدة أمام الإنسان ليقرر موقفه، وليتحمـل مسئولية قراره في الدنيا وفي الآخرة. ويوم القيامة لا يغني أحد عن أحد شيئاً، ولا تنفع ندامة، ولا يجدي تلاوم.

٢ ـ إن من أهم شروط الإيمان والتـوحيد أن نؤمن بالله الواحد الأحد، بكامل صفاته وأسمائه لا بجزء منها، ولا بإله تفرزه أهواؤنا المريضة، وشهواتنا المنحرفة. فالله هو الإله الواحد الذي لا إله سواه، وهو على كلِ شيء قدير، فعّال لما يريد، لا يُسأَل عما يفعل وهم يُسألون، إليه ترجع الأُمور، علاّم الغيوب، السميع البصير الحكيم الخبير، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لا يظلم أبداً فقد حرّم الظلم على نفسه، هو ربّ كلِّ شيء وهو رب العرش العظيم، إلى سائر أسمائه الحسنى وصفاته العليا جلَّ جلاله، لا إله إلا هو.

وبغير هذا التصوّر المتماسك المتناسق تنهار كل التصورات، وتتناقض الأفكار وتضطرب.

فالله هو وحدَه الخالق البارىء المصور، هو القادر على أن يخلق ما يشاء كما يشاء حين يشاء. لا يستطيع أحد من خلقه أن يحدَّ أو يقيّد من مشيئته سبحانه وتعالى. ولو شاء الله لخلق الكون كله على نحو آخر، يختلف عما نشاهده في واقع حياتنا. ولكنَّ

مشيئة الله مضتْ وكلمته سبقتْ، فخلق الكون والحياة على النحو الذي نراه، والذي نطالع منه جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، حتى تقوم الساعة، لا نتعلَّم منه إلا بقدر محدود، لا نستطيع أن نجمع علوم الكون كلها في صدورنا أبداً.

هذه هي صفة الخالق، وهي صفة تقتضيها البداهة والفطرة والعقل، وكل قوى الإنسان. وبغيرها لا يكون الخالق خالقاً، ولا الإله إلهاً. وتلك صفات المخلوق، صفات تقتضيها البداهة والفطرة والعقل وكل قوى الإنسان، حتى يكون المخلوق مخلوقاً، وبغيرها تضطرب الموازين وتختلط الأمور، ولا يعود المخلوق مخلوقاً.

الخالق، الإله، الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء كيف يشاء حين يشاء، ولا يسأل عما يفعل، والمخلوق عبد خاضع لله، لا يفعل ما يشاء إلا في حدود ما رسم له مولاه وربّه وخالقه. والمخلوق هو الذي يُسأل عما يفعل، ويحاسبه مولاه وربُّه وخالقه على ما يشاء من عمله.

هذا هو تصوُّر الفطرة السليمة للخالق والمخلوق وللعلاقة بينهما. ولكنَّ هذا التصور يضطرب حين تضطرب الفطرة، فتختلُّ الموازين فيها، فيعلو الكبر والغرور في الإنسان حتى يتجاوز حده في فكره وتصوره، وفي سلوكه المحاسِب أو المعترض أو المنكر، حتى يكاد ينسى أنه عبد مخلوق. وقد يزداد الكبر والغرور إلى حدٍّ تفسد فيه الفطرة فساداً كبيراً حتى يحسب الإنسان نفسه إلهاً، أو يحسب غيره كذلك، فيقع في الكفر.

فمهمة الإنسان المخلوق هي أن يتعرَّف على سنن الله في الكون تعرُّف المتأمل المتدبِّر، تعرّف العابد الخاشع، تعرُّف من أقرَّ بأنه عبد لله، لربه، لخالقه، لا تعرُّف المُدْبر المستكْبر، ولا تعرُّف الذي يريد أن يَسْأَلَ ويحاسِب، أو يجادلَ ويماري، تعرُّف من أَحبَّ الحَقَّ فسعى إليه واتبعه، ونفر من الباطل والهوى.

٢ - أساس التأمل والتدبر:

وأساس التأمل الصادق والتدبّر الأمين أن يتجرد الإنسان من شهواته وأهوائه، ومصالحه الظالمة المعتدية، ومطامعه الفاسدة الشّريرة، فلا يدفعه الهوى إلى عدوان

وظلم، أو إلى غدر وخداع، أو إلى كذب وبهتان، أو إلى جريمة وطغيان، أو إلى آثام ومعاصي تمتدُّ في حياته، وتزيد مع الأيام. هذه الآثام والجرائم كلها تعطل قدرة الفطرة على استقبال الحق والتصوّر الأمين، ثم تعطل بذلك بعض طاقات الإنسان، من عقل وفكر، وتفسد بعض طاقاته الأخرى من عاطفة وشعور، حتى يصبح عاجزاً عن بلوغ الحقيقة المشرقة في الحياة. إن أساس التأمل والتدبّر تجرُّد يُنقِّي الفطرة، فيدفعها لتلتقي مع الكون وسننه، والحياة وآيات الله فيها، لقاءً يفتح القلوب والبصائر لمن كتب الله له الهداية والنور. إن الكون كلَّه مفتوح أمام الإنسان ليجوب آفاقه، وليقيم دراساته، حتى تقوم الساعة، وليظل الكون والحياة مصدر آيات بينات تقرع القلوب والبصائر:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (لقمان : ٢٠)

٣ ـ جعل الله سننه الثابتة رحمة منه على عباده :

وجعل الله في هذا الكون سنناً ثابتة ماضية فيه، ليكون ثبات هذه السنن رحمة من الله على عباده وخلقه، وليكون هذا الثبات مصدر قوة دافعة للإنسان، تدفع خطوه وسعيه في هذا الكون الممتد، لينمو السعي ويتطور ويتجدَّد. فولا هذا الثبات لما استطاع الإنسان أن يخطو خطوة في الكون، ولاضطرب سعيه واختلط عمله، وتاه في سراب بعيد. وجعل الله هذه السنن الثابتة في الكون متناسقة مع الإنسان الذي خلقه، منسجمة مع طبيعته وقدراته، لتمضي الحياة بعد ذلك على سنن ثابتة أيضاً، تراها الأجيال كلُّها، أو يكتشفها جيل بعد جيل. الولادة والموت سنتان ماضيتان تحملان آيات بينات، تقرع البشريّة كلها قرعاً مدوِّياً، حتى لا يبقى عذر لأحد بغفلة. والفطرة التي فطر الله الناسَ عليها جعلها الله قادرة على استيعاب آياته البيِّنات مادامت الفطرة ثابتة طاهرة لم تلوِّثها المعاصي والآثام.

إننا نستطيع، من أجل التوضيح والتيسير، أن نقسم السنن في الكون والحياة إلى ثلاثة نماذج أو أقسام، بما يناسب البحث هنا، خلافاً للتقسيم الذي أوردناه في فصل سابق:

أولاً: السنن الثابتة مع جميع العصور والأجيال، السنن التي يراها الناس كافة والعصـور كلها، فتظل على امتداد الحياة البشرية آيات بينات للناس كافة، ترعى الفطرةَ وتقرع القلوبَ وتذكر الناس، جميع الناس، فالولادة والموت، والشمس والقمر أمثلة على ذلك، ولكن يزداد فهمها مع السنين.

ثانياً: السنن الثابتة التي يمتدُّ اكتشافها مع حياة الإنسان على الأرض، يكتشف كلُّ جيل شيئـاً منها، فتظل بذلك مدداً بالآيات البينات، للأجيال المتعاقبة، تحنو وتقرع وتوقظ.

ثالثاً: السنن الثابتة التي هي جزء من علم الغيب، لا سبيل للإنسان إليه، ولا سبيل إلى اكتشـافهـا بالأبحاث والدراسات، أو المعامل والتجارب. وليس لها من مصدر حقيقي إلا الوحي المتنزِّل على الأنبياء، والفطرة التي فطر الله الناس كلهم عليها، الفطرة التي أودعها الله أسس الإيمان، وزودها بالقدرة على تلقي رسالة الأنبياء والمرسلين، واستيعاب ما يبلِّغونه من علم أوحى الله به إليهم، والإيمان والتصديق به.

خلق الله الكـون كلَّه، والخلق كلَّهم، على السنن التي أرادها سبحانه وتعالى، والتي سبقت كلمته بها، ومضت مشيئته بها. ولو أراد الله لخلق الكون على نحو آخر، يختلف عما نشـاهـده ونراه ولكنَّ كلمته سبقتْ، ومشيئته مضتْ، وحكمته غالبة، وقضاءه حق وعدل:

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ ﴾. (الشورى: ١٤)

نعم! ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى..﴾! إنه الأجل المسمى، إنها السنّة الثابتة التي قضى بها الله ومضت بها مشيئته. ويتأكد هذا المعنى في آية بعد آية:

﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ ﴾ (الشورى: ٢١)

وكذلك

﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ (الأنفال: ٦٨)

وكذلك :

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (يونس : ١٩)

ومع كل آية تقترن ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ بظلٍّ جديد من الظلال. ففي بعض الآيات تقترن هذه «الكلمة التي سبقت» بالاختلاف على الأنبياء، أو الاختلاف بين الناس، أو بعقاب الله.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (طه : ١٢٩)

فقد مضت سنة الله ومشيئته في أن يكون الحساب والعقاب أجلاً مسمى، وأن تكون أعمار الناس كذلك آجالاً محددة، وأن تكون للإمم أيضاً آجال مسمّاة. ولولا سنة الله الماضية ومشيئته الغالبة التي جعلت موعداً محدَّداً وأجلاً مسمى لعقابهم لأنزل الله عقابه عليهم آنذاك، لأنهم يستحقونه.

ولقد سبق أن عرضنا الآيات التي تذكر سنن الله الثابتة، عرضناها من سور: الأحزاب وفاطر والإسراء وغافر والفتح، ونكتفي هنا بالتذكير بآية واحدة من سورة الأحزاب :

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب : ٦٢)

٤ ـ مشيئة الله بين السنن الثابتة والابتلاء :

ومن سنن الله الثابتة في الحياة الدنيا أن تكون الحياة دار ابتلاء وتمحيص للإنسان، واختبار وامتحان له، على سنن لله عادلة ثابتة، حتى لا يخرج أحد من هذه الدنيا إلا وقد مُحِّص تمحيصاً، وقامت الحجة له أو عليه، ذلك كله بعمله وما كسبت يداه. فجعل الله لكل إنسان أجلاً مسمى، وجعل لكل إنسان رزقاً محدداً، وبين الأجل المحدد والرزق المحدد يدور الابتلاء والتمحيص في الحياة الدنيا، حتى لا يُظلَمَ أحدٌ أبداً يوم القيامة، والأدلة قاطعة، والحجّة بينة. ويجلو هذه الصورة آيات كثيرة وأحاديث كثيرة، نقتبس منها حديثاً شريفاً واحداً :

عن أبي أُمامة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نَفَثَ في روعي أنَّ نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب. ولا

يحملنَّ أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته» (رواه أبو نعيم في الحلية)[1]

حديث شريف عظيم! يضع الحقائق جلية، ويبسط بعض السنن الثابتة بسطاً واضحاً: أجل محدود ورزق موعود، وقضاء الله نافذ في هذه السنن وفي غيرها، ومشيئته ماضية في الكون.

فمشيئة الله إذن هي مشيئة الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى كلها. إنها مشيئة العليم الخبير، عالم الغيب والشهادة، العليم بذات الصدور، القادر على كل شيء. إنها ليست مشيئة العبد المخلوق، ولا مشيئة الإنسان الضعيف، ولا مشيئة الهوى المضطرب والشهوات الهائجة، إنها مشيئة الله الذي لا إله إلا هو، وإنها قضاؤه وقدره، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

إن اضطراب التصور لمشيئة الله ولقضائه وقدره، ينشأ عن محاولة إخضاع المشيئة الربانية لضعف الإنسان، ولأهوائه وتصوراته. فحين يتلو بعض الناس قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ۝٣١ ﴾ (الإنسان : ٣٠، ٣١)

حين يتلو بعضهم هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات التي تتحدث عن مشيئة الله، يتساءل في نفسه أو يعلن تساؤله: إذا كانت مشيئة الله هي النافذة الماضية، وإذا كنّا لا نستطيع أن نشاء «**إلا أن يشاء الله**»، فلماذا يحاسبنا الله إذن على أعمالنا التي لم تمض إلا بمشيئة الله؟!

إن هذا السؤال نفسه يدلّ على اضطراب تصوّر «التوحيد»، واضطراب تصور المشيئة الإلهية فربما يتصور بعضهم أن المشيئة الإلهية هي مثل مشيئته هو، أو مشيئة غيره من الناس، مشيئة متغيرة متبدِّلة، مشيئة تتردَّد بين العجز والهوى، وتحركها المصالح وتدفعها الشهوات. وينسى أنها مشيئة رب السموات والأرض ورب كل

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الجامع الكبير) للحافظ السيوطي تأليف محمد ناصر الدين الألباني (ج٢)، (ص: ٢٠٩). حديث رقم (٢٠٨١).

شيء. إنها المشيئة القادرة العالمة العادلة الحكيمة الخبيرة. إنها المشيئة التي لا تظلم أبداً. إنها المشيئة التي تسمو مع جلال الألوهية، مع جلال الحق والعدل والحكمة!
ونورد آية أخرى نعيش في ظلالها، حتى تزداد الصورة وضوحاً:
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ (الشورى: ٧، ٨)

نعم! فريق في الجنّة وفريق في السعير! فهذه مشيئة الله النافذة، وهذا قضاؤه وقدره، وهذه سنته الثابتة في الكون، لن تتبدل ولن تتغيّر! ولو شاء الله لجعل الناس كلهم في الجنّة ولخلق الكون كله على هذا الأساس. ولو شاء الله لخلق الكون كله على سنن أخرى، ولقضى بأن يكون الناس كلهم في النار! ولو شاء لخلق الناس على نحو آخر، ولجعل ولادتهم ونشأتهم ونموَّهم ومصيرهم شيئاً آخر. إن الله قادر على هذا كله وعلى غيره، فهو على كل شيء قدير، وهو الذي يقضي بما يشاء ويختار، فسبقت كلمته ومضت مشيئته في أن تكون الحياة الدنيا دار ابتلاء وتمحيص واختبار، فمن الناس من يخرج منها وقد نجا ونجح في الامتحان، فينال بذلك رحمة الله، فيدخل الجنة **﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾**، ومن الناس من يضلّ نتيجة لما كسبت يداه فيسقط في الامتحان، فيدخل النار جزاءً عادلاً لا ظلم معه أبداً، يدخل النار بما كسبت يداه، وبعد حساب وميزان، وبعد أن تقوم عليه الحجة، بعد أن مُحِّص في الدنيا تمحيصاً كاملاً عادلاً!.

هكذا مضت مشيئة الله وسنته في الكون: لا يدخل أحدُ الجنّةَ بعمله، ولكن يدخلها المؤمنون فقط برحمة الله لهم. فيغفر الله لمن يشاء على حكمة غالبة، ويعفو عن كثير. ويدخل الكافرون النار بأعمالهم، بكفرهم، بما كسبته أيديهم من آثام ومعاصٍ ومظالم وضلال، على حكمة غالبة لله وعدل لا ظلم معه.

فعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: قال رسول الله ﷺ: «سدِّدوا وقاربوا وأبشروا. فإنه لن يُدْخِلَ الجنّةَ أحداً عَمَلُه». قالوا: ولا أنت يارسول الله؟! قال: «ولا أنا. إلا أن يتغمَّدَني الله منه برحمة. واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قلَّ» (رواه مسلم)[1]

(١) صحيح مسلم: كتاب (٥٠). باب (١٧). حديث (٢٨١٨/٧٨).

فالعمل الصالح يجلو القلب فيثبّته على الإيمان. والتوبة والاستغفار، والعبادة والطاعات تصقل القلب وترفع عنه الران، حتى ينالَ العبد بذلك رحمة ربه على مشيئة ربانيّة عادلة، وحكمة غالبة، وقضاء نافذ، وقدر ماض، فيُدخِلُه الله الجنّة برحمته إن شاء. وأما الظالمون فإنهم يدخلون النار بما كسبت أيديهم على عدل حق لا ظلم معه أبداً. ولقد سبق أن عرضنا معنى «الران»، والأحاديث الشريفة التي وردت بصدده.

وسنة أُخرى لله غالبة ومشيئة ماضية وقضاء نافذ، سنّة لله تعرضها لنا آية في سورة الأنعام، وحديث شريف:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ١٦٠)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فيما يروي عن ربه عزَّ وجلّ قال «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثمّ بين ذلك فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعَملَها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة» (رواه البخاري ومسلم)(١)

وهكذا تمضي سنن الله في الكون حقّاً مطلقاً. ويظلُّ الكون كتاباً مفتوحاً، تقرأ فيه الأجيالُ جيلاً بعد جيل، ما يشاء الله لعباده أن يعرفوه، ويأتيهم بعض علم الغيب من عند الله وحياً على رسله وأنبيائه. ونورد سنناً أُخرى لله في هذه الحياة الدنيا، نعرضها قبَسات مِنْ كتاب الله، من القرآن الكريم، لنرى كيف تمضي هذه السنن على ثباتها:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾. (الأنعام: ٢، ٣)

فهذا هو أجل الإنسان، أجل مسمّى عند الله!

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الرقاق (٨١). باب (٣١). صحيح مسلم. كتاب الإيمان (٢). باب (٥٩). حديث رقم (١٣١/٢٠٧).

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

(الأعراف : ٣٤)

وهـذه هي آجال الأمم والشعوب، تمضـي على سنة الله ثابتة، ومشيئة ماضية، وحكمة غالبة، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

(الحجرات : ١٣)

قانون رباني وحق مطلق ماض في الحياة. وكذلك:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

(الحج : ٥، ٦)

وتمضـي مشيئة الله في الكون كلِّه في ما دقَّ وما جلّ، مشيئةً عالمة حكيمة غالبة. وليست مهمة الإنسان أن يعترض على هذه السنّة أو تلك، وإنما مهمة الإنسان أن يتأمل ويتدبّر، وأن يتعلم فيعرف، وأن يرى فيبصر، حتى يخشع وينيب، إن آمن واتقى. أما إن أدبر واستكبر، فلن يرى ولن يبصر، ولكنه سيتحمل هو نتيجة كبره وإدباره.

وتمضـي مشيئة الله في الرزق، في رزق عباده على سنن ثابتة، يعرض كتاب الله للبشريّة كلها قبسات وآيات:

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾

(الشورى : ٢٧)

إنها مشيئة الله تمضـي على علم وحكمة فهو الله العليم الخبير: «**إنه بعباده خبير بصير**». فهو أعلم كيف يبسط الرزق لهذا، وكيف يَقْدُره لذاك، على حكمة غالبة وعدالة ماضية.

وسواءً أعرفنا وجه الحكمة والعدالة أم جهلناها، فإنها ماضية في الكون كله، لا تتوقف على معرفة الإنسان لها أو جهله بها. إنها حق في الحياة ماضٍ لأن الله يقضي بالحق، والذين من دونه لا يقضون بشيء. إن الشمس تشرق وتغرب وتقوم بجميع حركاتها ومسيرتها في الكون قبل أن يعلم الإنسان عنها شيئاً إلا أنها تضيء. ولما زاد علم الإنسَان عنها اليوم قليلاً ما غيّر ذلك من حركتها شيئاً. وقس على ذلك سائر سنن الله في الكون. فهي سنن ماضية سواء أعرفها الإنسان أم جهلها!

إنها مشيئة الله وقضاؤه وقدره! إنَّها مشيئة الأُلوهية بكل ما فيها من وحدانية وجلال، وبكل ما يجب على المخلوقات من تنزيه لها وتسبيح! إنها مشيئة الخالق بكل جلاله وعظمته، وبكل أسمائه الحسنى، وليست مشيئة المخلوق بكل ضعفه وعجزه!

وكتاب الله، القرآن الكريم، يعرض صوراً يخشع أمامها الإنسان، وهو يرى جلال المشيئة الربّانيّة، تجتمع الأسماء الحسنى فيها، وتلتقي على مضيِّ أمرها: العليم الحكيم، اللطيف الخبير، الرؤوف الرحيم، القوي العزيز، المتكبر الجبار، القاهر فوق عباده الذي لا يُسْأل عما يفعل وهم يُسْألون، الواحد الأحد، الصمد، الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى كلها، تجتمع كلها لتبينّ لنا مشيئة الله ماضيةً في الكون، في أصغر أصغر أجزاء ذراته، إلى أكبر أكبر مجرّاته!

هذه هي الأُلوهية وهذه هي مشيئتها!. وتمضي مشيئة الله في الكون كله. ولنأخذ قبسات أُخرى من كتاب الله:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) ﴾ (الحجر: ١٦ - ٢٥)

مع كل آية من هذه الآيات مشيئة لله ماضية في الكون، مشيئة غالبة، مشيئة

جمعت أسماء الله الحسنى في جلال الألوهية وعزّتها، وعظمتها وقدرتها!

ويقف الإنسان المؤمن ليخشع وينيب. ويقف الإنسان العاقل ليتدبّر ويتأمل عسى أن يبصر بإذن الله، وعسى أن تلتقي فطرته مع آيات الكون. وتجتمع هذه الآيات البيِّنات لتبيّن لنا ظلالاً وصوراً وحقائق عن مشيئة الله، حتى نرى التناسق والتكامل والترابط:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ (يونس: ٩٩)

نعم! لو شاء الله لخلق الكون على سنن أُخرى وهو قادر على ذلك، فهو على كل شيء قدير. ولكن الله لم تقض مشيئته بأن يؤمن من في الأرض كلهم جميعاً. لقد اقتضت مشيئة الله سنناً أُخرى في الكون، سنناً اقتضت أن يخلق الله الناسَ كلَّهم على فطرة الإيمان، وأن يلهم النفوس فجورها وتقواها، وأن يجعل الشيطان في حياة ابن آدم ابتلاء منه سبحانه وتعالى، ليغري الشيطانُ ابن آدم، فيسقط بعمله الذي يحاسب عليه، وينجو من ينجو على سنن ربّانيّة، نعلم طرفاً منها، على قدر ما علمنا الله. ويمضي الشيطانُ في غواية ابن آدم، قضاءً من الله وقدراً، فهكذا قضت مشيئته، ولو شاء الله لقضى بغير ذلك، فله الأمر وحده، وإليه ترجع الأُمور كلها، لأن هذه من صفات الأُلوهية وأسمائها الحسنى:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (الحجر: ٣٩ - ٤٣)

هذه هي مشيئة الله! وهذه صورة من صور الابتلاء التي اقتضتها مشيئة الله، ابتلاءً لابن آدم، وتمحيصاً له، واختباراً له. ولو شاء الله لقضى غير ذلك، فهو على كل شيء قدير. ولكن الأمر له، فقضت مشيئته بذلك! فسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله! ومن خلال هذا الابتلاء، يظل ابن آدم مسئولاً عن عمله، محاسباً عليه، يلقى جزاءه أو عقابه. واستمع إلى آيات الله وهي تصف هذا الابتلاء:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم

مِن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(إبراهيم : ٢٢)

إن جلاء هذه الآية يكشف سنة الله التي اقتضتها مشيئته في هذا الكون. اقتضت هذا الابتلاء للإنسان. ونظل نذكر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين**﴾. إنه الإيمان والتوحيد، إنها الفطرة السليمة، وما أودعها الله من أسرار وطاقات، تحفظ ابن آدم بمشيئة الله، بالسنن التي فرضها في هذا الكون، من أن يقع ضحية للشيطان، إلا من رضي هو أن يتبع الشيطان عن غواية وضلال، بعد أن فسدت فطرته وانحرفت بما كسبت يداه.

٥ ـ مشيئة الله في عدالتها وحكمتها :

وهكذا نجد أن الصورة آخذة بالنمو والتناسق والترابط، لتعرض لنا «مشيئة الله وقضاءه وقدره» من خلال قبسات من القرآن الكريم، ومن خلال أحاديث رسول الله ﷺ.

ويستحيل علينا أو على أحد من البشر أن يعرض تكامل مشيئة الله على تناسقها وتكاملها، إلا القرآن الكريم، إلا منهاج الله، فهو وحده الذي يعرض الصورة المتناسقة المتكاملة، على جلالها وعظمتها. ونمضي لنطالع سنناً لله أُخرى، نجدها في أحاديث رسول الله ﷺ:

فعن عبدالله قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: قال: «إن أحدكم يجمع في بطن أُمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثمَّ يبعث الله ملكاً فيؤمَر بأربع: برزقه وأجله وشقيٌّ أو سعيد. فوالله إن أحدكم أو الرجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أَهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» (رواه البخاري)[1]

(١) صحيح البخاري. (فتح الباري ـ طبعة دار المعرفة) كتاب القدر (٨٢). باب (١). حديث (٦٥٩٤).

سنة جليّة، سنة من سنن الله ماضية في الحياة. ويقدِّر الله لكل عبد من عباده أربع كلمات: الرزق والأجل والشقاء والسعادة. وفي رواية أبي داود في سننه: «**فيكتب: رزقه وأجله وعمله، ثم يكتب شقيّ أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح**.....» وكذلك في صحيح مسلم[1].

فالكلمات الثلاث التي قدّرها الله على كل عبد من عباده لا تكون هي موضع الحساب والجزاء. فلا يعاقب الله عبداً ولا يجزيه لأنه فقيرٌ أو غنيّ. فالفقر والغنى ابتلاء من الله وكذلك الأجل. ولا يُعَاقبُ العبدُ ولا يُجْزَى لأنه طبيب أو مهندس أو غير ذلك. ولكنه يحاسب على ما عمل في فقره وغناه، وعمره وكيف أفناه، وعمله وكيف أمضاه. ثم يُكتب شقيٌّ أو سعيد. وذلك على أساس ما فعل برزقه وعمره وعمله، كما سنبين في الفصل المقبل إن شاء الله.

ويتعذَّر فهم حقيقة هذا الحديث الشريف إلا إذا أدركنا حقيقة تصور المشيئة الإلهية وخصائصها التي علَّمنا إياها الله سبحانه وتعالى، والتي تفرضها الفطرة السليمة والعقل المتوازن الأمين.

ولعله من المناسب هنا، قبل أن نضرب أمثلة أُخرى، أن نوجز أهم صفات المشيئة الإلهية كما عرضناها في الصفحات السابقة، ليقوم فهم الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة على أساسها:

١ - إنها مشيئة الله التي تجمع أسماءه الحسنى وصفاته سبحانه وتعالى.

٢ - إنها مشيئة الله الذي هو على كل شيء قدير، فعّال لما يريد، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

٣ - إنها مشيئة الله، مشيئة عادلة لا ظلم معها أبداً، فقد حرّم الله الظلم على نفسه، وحرّمه بين عباده.

٤ - إن عدالة المشيئة لا تتوقف على معرفتنا لوجه العدالة أو عدم معرفتنا.

٥ - إنها مشيئة الله، مشيئة تحمل العلم الكامل والحكمة. فمع كل قدر يقدره الله

---

(١) صحيح مسلم: كتاب القدر (٤٦). باب (١). حديث (٢٦٤٣/١). سنن أبي داود: كتاب السنّة (٣٤). باب القدر (١٧). حديث (٤٧٠٨).

حكمة ماضية، سواءً أعرفنا هذه الحكمة أم لم نعرفها.

كان لابـد من إيجاز هذه النقاط، لنتذكرها قبل أن نستعرض القسم الثاني من الحديث السابق، حيث يقول رسول الله ﷺ: «**فوالله إن أحدكم أو الرجل يعمل بعمل أهل النار...**» وفي رواية لمسلم «... **إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس...**».

وقد يضطرب تصور المسلم إذا لم يفهم معنى الحديث على أساس التوحيد، وعلى أساس ما عرضناه. فالرجل يعمل بعمل أهل الجنة، هكذا نحن نراه في ميزان الحياة الدنيا. نراه كريمًا شجاعاً ذا نجدة إلى غير ذلك من الصفات، فهل عرفنا نيّته، هل علمنا ما يخفي صدره، هل علمنا ما خفي علينا من شره وفساده؟! نحن نحكم عليه بظاهر الأمر، ولكن الله يحكم عليه بميزان عادل لايظلم أبداً.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٤﴾
(التغابن: ٤)

إن المؤمن حين يقرأ هذا الحديث يدرك بوضوح أن الله لا يظلم أبداً، فإذا قضى على عبد أن يدخل النار كان قضاؤه عادلاً حكيمًا قام على علم يحيط بالكون كله، وعلى ميزان دقيق. وكذلك شأن الرجل الآخر الذي يقضـي له الله بدخول الجنة فهو قضاء عادل فيه رحمة الله بعبده المؤمن. وحين يتذكر المؤمن هذه المعاني، يدرك حينئذٍ أن له حدوداً لا يستطيع أن يتجاوزها لأنه مخلوق، ولأن ميزانه مهما دقَّ لا يقوم على علم دقيق كاف. ومـع كل قضاء يقضيه الله حكمة ماضية لا تتأثر بمعرفتنا أو جهلنا، وعدالة مطلقة، وميزان دقيق يقوم عليه الكون كلُّه.

وحديث آخر:

عن علـيٍّ رضـي الله عنه، قال: كُنَّا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله. ومعه مخصرة. فنكّس فجعل ينكث بمخصرته. ثم قال: «ما مِنكم من أحد، ما من نفس منفوسة، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنّة والنار. وإلا وقد كُتِبَتْ شقية أو سعيدة» قال فقال رجل: «يارسول الله! أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟» فقال: «من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة. ومن كان من أهل الشقاوة، فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة». فقال: «اعملوا فكلٌّ ميسَّر. أما أهل السعادة فييسَّرون لعمل أهل

السعادة. وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة. ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدَّق بالحسنى فسنيسِّره لليسرى. وأما من بخل واستغنى. وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾» (رواه البخاري ومسلم وأبو داود)[1]

إنها السنّة الإلهية، والقانون الربّاني، سنّة تعمر الكونَ على حكمة ماضية مع كل حدث في الكون ومع كل قدر. وتشرق في قلب المؤمن عظمة هذه السنن وجلالها وصدقها، وهو يقرأ الآيات والأحاديث. ومحور الحديث الشريف السابق «**اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له**». ثمَّ تأتي الآية الكريمة: «**فـأمَّا من أعطى واتقى وصدَّق بالحُسْنَى فسنيسّره لليسرى**». فتفسير «**أعطى واتقى وصدّق بالحسنى**» هو «**اعملوا**»، وأما «**فسنيسّره لليسرى**» فتفسيرها: «**كلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له**».

٦ ـ مشيئة الله في قضائه وقدره :

وكيف لا يكون الأمر كذلك، والله سبحانه وتعالى هو خالق كُلِّ شيء، وهو مدبِّر كلِّ شيء، وهو بكلِّ شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، له الأسماء الحسنى كلها. فمن يقدِّر مصير كلِّ إنسان إلى الجنة أم إلى النار إن لم يكن الله وحده؟ وكيف يمضي الكون إن لم يقدر الله وحده مصير كلِّ شيء على علم وقدرة وحكمة وعدالة وميزان دقيق؟

وحين نقرأ الحديث الشريف السابق يجب أن نستجمع ما أوجزناه قبل قليل عن مشيئة الله: فهي مشيئة عادلة لا تظلم أبداً، حكيمة ماضية حكمتها، قادرة على كل شيء، مشيئة تجمع الأسماء الحسنى لله سبحانه وتعالى. وحين يكتب الله مكان كل نفس من الجنّة أو النار فإنما يكتبها على عدل منه سبحانه وتعالى، ورحمة وسعت كل شيء، وحكمة ربّانية. ولا ينشأ الاضطراب في نفس الإنسان حين يقرأ مثل هذه الأحاديث والآيات إلا حين يضطرب تصوّر التوحيد، ويغيب عن البال أن الإيمان بالقدر جزء أساسيٌّ من التوحيد وتصوره. وبغير هذا التصور الذي يربط القدر مع

(١) صحيح البخاري: (فتح الباري ـ طبعة دار المعرفة) كتاب القدر (٨٢). باب (٤). حديث (٦٦٠٥). صحيح مسلم: كتاب القدر (٤٦). باب (١). حديث (٢٦٤٧/٦). سنن أبي داود: كتاب السنة (٣٤). باب القدر (١٧). حديث (٤٦٩٤).

التوحيد لا يستقيم تصور أبداً، ويضطرب تصوّر الأُلوهية والربوبية، ويضطرب تصور العبودية. إن هذا الاضطراب ينشأ كذلك حين يريد الإنسان أن يخلع على الأُلوهية صفات العبد. فهو يريد من الله أن لا يقدِّر مصير كل إنسان، لأن هذا «التقدير» يتعارض في ميزانه البشريّ المضطرب فقط مع محاسبة الله لعبده «الإنسان». أما في ميزان «التوحيد» وحقيقة «القَدَر» فلا يوجد تعارض أبداً. وسبب هذا التعارض الظاهري في بعض النفوس هو أنها تُريد أن تُخْضِعَ «الغَيبَ» «والدار الآخرة»، «والساعة»، «والبعثَ والحساب»، لتصوّراتها البشريّة ولموازينها الدنيوية. ولكنّ الغيبَ كُلَّه هو من أمر الربوبيّة في عظمتها وجلالها، والأُلوهية في سموّها وتفرّدها، يقف أمامها الإنسان المخلوق المؤمن عابداً خاشعاً، يتدبّر ليتَعلَّم، ويفكّر ليخشع، لا ليعترض في كبر وغرور.

ويذهب بعضهم، من خلال كبرهم وغرورهم، مذاهب شتَّى في تساؤلاتهم المتناقضة، ثمّ يضعون من عند أنفسهم تصوّرات مضطربة متناقضة، ويسوقون تعبيرات لأفكارهم تلك ينزلونها منزلة الحق المطلق. وهم في ذلك لا يعتمدون إلا على عقولهم المحدودة، وعلومهم المحدودة، وأعمارهم المحدودة، وبيئتهم الضيّقة المخنوقة. ولو وقفوا عند نصوص القرآن وبيانه عن الغيب، مصدقين خاشعين، لكان ذلك أتقى وأنقى. ولقد كان صحابة رسول الله ﷺ يفعلون ذلك عن وعي وتصديق ويقين.

فعن ابن الديلمي قال: أتيت أُبّي بن كعب فقلت له: وقع في نفسي شيء من القدَر، فحدثني بشيء لعلّ الله أن يذهبه من قلبي. قال: «لو أن الله عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه عذَّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم. ولو أنفقت مثل أُحد ذهباً في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار». قال:ثمَّ أتيت عبدالله بن مسعود فقال مثل ذلك، ثمَّ أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، قال: ثم أتيت زيد بن ثابت فحدَّثني عن النبيّ ﷺ مثل ذلك (رواه أبو داود وابن ماجة)[1]

(١) سنن أبي داود: كتاب السنّة (٣٤). باب في القدر (١٧). حديث (٤٦٩٩). وابن الديلمي =

فانظر إلى هذا الفهم الواحد للصحابة، فَهْمٌ غرسَتْه مدرسة النبوّة، وغرسَتْه آيات وأحاديث دون أدنى تأويل وتبديل. ما أحوجنا اليوم إلى هذه المدرسة وخصائصها، وإلى هذا الفهم وعمقه، وإلى تدبّر كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ شيء بقدر حتى العجز والكيس» (رواه مسلم وأحمد)[1]

فإن كان العجز من قدر الله، فإن الله لا يأمر عباده به، ولا يدعو له دينه. فالقَدَر إذن ليس هو أمر الله إلى عباده، ولا هو منهاجه الذي يدعوهم إليه ويحاسبهم على مقدار اتباعهم له. إن القدر هو السنن الربّانية التي وضعها الله لهذا الكون، والقوانين التي يخضع لها الإنسان، والقوانين التي يخضع لها غير الإنسان. فكل ما في الكون يخضع لنظام خاص وضعه الله سبحانه وتعالى. حركة الشمس، شروقها وغروبها، هي من قدر الله. نزول الأمطار وانقطاعها هي من قدر الله، مرض الإنسان وعجزه هو من قدر الله، صحته وقوته من قدر الله. واستمع إلى آيات الله في كتابه العزيز توضح هذه الصورة:

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ (القمر: ٤٩، ٥٠)

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ (القمر: ١١ ـ ١٣)

فكل شيء خلقه الله جعل له سنّة وقانوناً ونظاماً يخضع له. وكُلُّ نظام وقانون يمضي في الكون بأمر من الله، فما أمره إلا كلمح بالبصر. وهذه الأمطار نزلت من السماء، وهذه الأرض تفجرت عيوناً، فالتقى الماء من هنا ومن هنا في وقت مقدَّر محسوب، وكميات مقدَّرة محسوبة، ومكان مقدر محسوب، وكلُّ شيء مهما كان صغيراً

= هو أبو بُسْر. ومنهم من يقول أبو بشْر. اسمه عبدالله بن فيروز. وأخرجه ابن ماجة: المقدِّمة. حديث (٧٧). باب في القدر.

(١) صحيح مسلم: كتاب القدر (٤٦). باب (٤). حديث (١٨/٢٦٥٥). الفتح الرباني. كتاب القدر (٣). باب (١) حديث (٣). المجلد (١). (ص: ١٢٢).

أو كبيراً فإنه مقدَّر ومحسوب. ووراء ذلك كله حكمة كبيرة ربانية، تنهض كل قوى الكون لتحقيقها.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

(الحجر : ١٩ ـ ٢١)

هكذا يكون قدر الله سبحانه وتعالى: ﴿... من كلِّ شيء موزون﴾. كل شيء يقدر تقديراً، ويحسب حساباً، ويوزن وزناً. نعم! كل شيء بقدر. كلُّ شيء ينزله الله فهو من خزائنه سبحانه وتعالى، وينزِّله بقدر معلوم محسوب. واستمع أيضاً إلى هذه الآيات الكريمة تعرض قدر الله في دقته وحسابه ليمضي مع الزمن كله، حتى تقوم الساعة:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

(فصلت : ٩، ١٠)

وقدَّر فيها أقواتها تقديراً دقيقاً، تقدير ربِّ العالمين، رب كل شيء وكذلك:

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (الأعلى : ٢، ٣)

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (الواقعة : ٦٠)

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ (يونس : ٥)

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ (الفرقان : ٢)

﴿... وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ...﴾ (المزمل : ٢٠)

﴿... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ (الطلاق : ٢، ٣)

هكذا يكون قدر الألوهية، قدر الله، قدر يصدر عن خالق كل شيء، ربِّ كل شيء، عليم بكل شيء، قدير على كل شيء، فعَّال لما يريد. وكان مما أراده الله

سبحانه وتعالى، ومما كان من قدره، أن جعل الحياة الدنيا دار ابتلاء للإنسان، يخضع فيها لسنن ربانية، وقوانين ماضية، وقدر غالب، ليُمحَّص الإنسان من خلالها ويبتلى، ولتقوم الحجّة له أو عليه، فيدخل الجنّة أو النار. وتمضي آيات كتاب الله تشرح قَدَر الله وقضاءه، وتبيّنه بياناً شافياً كافياً للإنسان المؤمن، بياناً جَليّاً حقّاً، من خلال منهاج رباني، قرآناً وسنة، تتناسق آياته وتتكامل في صورته المعجزة.

٧ ـ من مشيئة الله وقدره أن جعل دائرة للانسان يحاسب فيها على عمله:

فمن قدر الله أن جعل الله دائرة محدَّدَة لعمل الإنسان، يحاسب فيها الإنسان على عمله بميزان ربّانيٍّ عادل دقيق. ولا يستطيع الإنسان أن يحيط بقدر الله كُلِّه، ولا بسننه في الكون كُلِّها. فمن قدر الله وسننه ما يَراه الإنسان ماثلاً أمامه على مرّ العصور والأجيال حتى تقوم الساعة، كالولادة والموت، والشمس والقمر. ومنها ما يكتشفه الإنسان جيلاً بعد جيل، ومنها ما هو من علم الغيب لا يمكن للمخلوق أن يعرفه إلا من الوحي المتنزِّل من عند الله، الوحي الذي يتلقاه الأنبياء والمرسلون، فيبلغونه إلى أقوامهم، الوحي الذي ختم برسالة محمد ﷺ ليكون نذيراً للعالمين.

ولا يستطيع الإنسان أن يحيط بذلك أبداً لأنه مخلوق، خلقه الله سبحانه وتعالى بقدرات محدودة فيه وطاقات ضعيفة:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨)

ومن دلائل ضعفه علمه المحدود:

﴿ ... وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٥)

وكذلك عمره المحدود، ومكانه المحدود، وجهده المحدود. والإنسان معرّض إلى الخطأ والزلل:

قال رسول الله ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».

(رواه الترمذي وابن ماجة وأحمد)[١]

---

(١) سنن الترمذي: كتاب (٣٨). باب (٤٩). حديث (٢٤٩٩). سنن ابن ماجة: كتاب (٣٢). باب (٣٠). حديث (٤٣٠٥). واللفظ له. الفتح الرباني: كتاب التوبة (٧١). حديث (١٣). (ج١٩). (ص: ٣٣٧).

والإنسان فيه تقوى وفجور. فحين يغلب فجوره تضطرب الموازنة في فطرته، وتغلبه الشهوة والمصالح والأهواء، فلا يستقيم على حقٍّ أو عدل أو ميزان أمين.

لذلك كانت القضية الهامة في حياة الإنسان أن يعرف حدوده التي خُلق لها. أن يعرف حدوده في فكره وفي عمله وسعيه. ثم يظل الإيمان والتوحيد أساس ضبط طاقاته وسلوكه، فلا يَسأل سؤالاً عن إنكار أو اعتراض، وإن سأل فإنما يسأل ليتدبَّر آيات الله التي يؤمن بها، وليخشع بين يدي الله مصدّقاً. ذلك لأنه لا يحقُّ لهذا الإنسان الضعيف، مع كل أسباب ضعفه التي ذكرناها، لا يحقُّ بداهة لهذا المخلوق أن يتطاول فينكر قدَر الله الخالق البارىء الذي له الأسماء الحسنى كلها، أو يعترض عليه. فإذا أنكر قَدَرَ الله فكأنمّا أنكر الألوهية وأنكر ما يجمع صفاتها كلها وأسماءها الحسنى كلها.

والله سبحانه وتعالى، الله الذي له الأسماء الحسنى كلها، تقتضي ألوهيته وربوبيته أن يكون بكل شيء عليم، يعلم من سيكون مؤمناً ومن سيكون كافراً، ومن سيكون منافقاً. وتقتضي ألوهيته أن لا يتعارض علمه سبحانه وتعالى مع عدالته ورحمته. فهو عادل برّ رحيم. ولكن لا يُشترط أن ندرك نحن كلَّ مظاهر عدله ورحمته، وإنما يمكن أن نبحث عنها ونحن مؤمنون، موقنون، خاشعون. نبحث عنها في آيات الله في الكون، وفي الآفاق كلها. وبغير ذلك لا يستقيم إيمان وتوحيد، ولا عبودية صادقة لله سبحانه وتعالى.

ولو نظرنا في دائرة الدولة في أي بلد في العالم. كيف نتصور أن هذه الدائرة دائرة ناجحة إذا لم يكن مديرها قادراً على تصريف أمورها كلها بعلم، وقدرة، وكفاءة، وعدالة؟! وكلما ازداد علم المدير ازدادت قدرته على تصريف الأمور بحكمة أوسع. وكذلك كلما زادت موهبته، وكلما زادت وسائله، وكلما صدق أعوانه له وخضعوا له. وأنّى للخادم البسيط في الدائرة أو العامل أن يسأل المدير العام أو يحاسبه على نهجه وقوانينه، أو يتدخل في شئون إدارته.

فإذا كان هذا حال الخادم مع رئيسه في الدائرة، وكلاهما بشر، فكيف يكون الحال بين العبد المخلوق، والله الخالق؟ ولله المثل الأعلى.

ولا تتعارض عدالة الله مع قدرة الله سبحانه وتعالى. وإنما تتناسق القدرة والعدالة وسائر الأسماء الحسنى تناسقاً وتكاملاً. وإنما ينشأ الاضطراب في تصوّر الإنسان فقط، لاضطراب فطرته. وأما في واقع الكون فالله جلّ جلاله هو ربّ السموات والأرض، هو رب العرش العظيم، هو رب كل شيء. فهو قادر سبحانه وتعالى على أن يفعل ما يشاء ﴿فعّال لما يريد﴾، لا يقيِّد مشيئته شيء أبداً. فقلوب عباده كلهم بين إصبعين من أصابعه يصرفها كيف يشاء:

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنّ قلوب ابن آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرِّفه كيف يشاء.» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم! مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك.» (رواه مسلم)[1]

٨ ـ الألوهية والربوبية تقتضي المشيئة المطلقة القادرة:

هذه هي الأُلوهية. وهذا هو الله ربّ العالمين. وقدرة الله هذه هي قدرة الأُلوهية الخالقة القادرة على كل شيء. ولا يجد الإنسان صعوبة أبداً في تصوّر هذه القدرة والإيمان بها. ولكنّ الاضطراب ينشأ حين يفصل الإنسان بين هذه القدرة وبين عدالتها في تصوره هو، وأما في الكون فمشيئة الله ماضية تجمع بين القدرة والعدالة والعلم والحكمة وسائر الأسماء الحسنى، لا يعطلها جهلنا بها. فالله سبحانه وتعالى قادر على أن يصرف القلوب كلها كما يشاء، وهو سبحانه وتعالى يصرِّف القلوب كلها حقّاً كما يشاء، ومشيئته هذه عادلة عالمة حكيمة، فأين التعارض في ذلك بين القدرة والمشيئة!؟ ولا يمكن أن تكون المشيئة إلا لله وحده سبحانه وتعالى. ولابُدَّ للكون من هذه المشيئة المطلقة التي لا يحدُّها شيءٌ أبداً، المشيئة القادرة، العالمة، الحكيمة، العادلة، فلله الأسماء الحسنى كلها. وتظل كلمة أُبّي بن كعب في الحديث الذي أوردناه قبل قليل عن ابن الديلمي، تظل كلمته تمثل الإيمان الصافي: «**لو أنّ الله عذّب أهل سماواته وأهل أرضه عذَّبهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم**» وكذلك كانت كلمات غيره من الصحابة.

ولقد حجّ آدم موسى في ذلك:

(١) صحيح مسلم: كتاب القدر (٤٦). باب (٣). حديث (٢٦٥٤).

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجّ آدم وموسى.فقال موسى: «ياآدم أنت أبونا. خيبتنا وأخرجتنا من الجنة». فقال له آدم: «أنت موسى. اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده. أتلومني على أمر قدَّره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟!» فقال النبي ﷺ: «فحجّ آدمُ موسى. فحجّ آدم موسى.» (رواه مسلم) [1]

نعم! فحجّ آدمُ موسى عليهما السلام. ولا تعني كلماتُ آدم من إنكاره على موسى اللوم والعتاب، أن آدم عليه السلام لم يكن مخطئاً. فقد جاء نصُّ القرآن بذلك:

﴿ ...وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ (طه: ١٢١)

ذلك لأن تقدير الله لهذا الأمر أو ذاك لا يتعارض مع المحاسبة من الله. فإن حساب الله لخلقه هو من القدر، هو مما قدَّره الله ومضت به مشيئته، وهو قدر يحمل معه العلم والحكمة والقدرة والعدالة التي لا تظلم أبداً.

وإذا قضى الله على رجلٍ أن يموت كافراً. فإن قضاءه حق عادل لا ظلم معه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ ﴾ (البقرة: ٦، ٧)

فالله وحده يعلم ما فعلَ هذا وما فعل ذاك. وهو وحده القادر على أن يقضي بين عباده بالحق. فإذا قضى على رجل أن يموت على الكفر فإن قضاءه حق عادل لا ظلم معه أبداً:

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس: ٣٣)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧ ﴾ (يونس: ٩٦، ٩٧)

نعم! حقّت كلمة ربك عليهم. لأن الله يقضي بالحق، والذين من دونه لا يقضون بشيء. إن الله يقضي بالحقِّ عن علم وحكمة وعدل لا ظلم معه أبداً. وقضاؤه سبحانه وتعالى ماضٍ نافذ، لا يعطله جهلنا، ولا تساؤلنا، ولا اعتراضنا. إنه الله رب كل شيء، خالق كلِّ شيء، ونحن عبادٌ مخلوقون!.

وكذلك قد يرى أحد الناس حادثة مؤلمة، سيارة مثلاً تقتل طفلاً مارّاً. فيتساءل

---

(١) صحيح مسلم: كتاب القدر (٤٦). باب (٢). حديث (٢٦٥٢).

بينه وبين نفسه، أو يصرح: لماذا قضت مشيئة الله أن يموت الطفل على هذه الطريقة المفجعة، لتترك غصة في صدر والده وصدر أمه. وقد يتجاوز الرجل هذا الحد من التساؤل إلى الاعتراض، كأن الحادثة لا رحمة فيها ولا عدالة. اعتراض على مشيئة الله. !

اعتراض من غرٍّ جاهلٍ، له علم محدود جداً بهذه الحادثة وغيرها، وعلم محدود بالطفل والسائق وبكل ما يتعلق بالحادث. فلا حقَّ له إذاً بالاعتراض بسبب قصوره وجهله هذا، فإن اعترض فقد تجاوز حده. أما إن تألم للحادث وحزن، فقد استجاب لفطرة وطبيعة ولا حرج في ذلك. ولو دعا الله واستغفر وأناب لبلغ الغاية وأصاب وأفلح إن شاء الله.

وهو مخطىء باعتراضه كذلك لأنَّ اعتراضه هو على قدر الله، الله الذي يعلم وحده كلَّ شيء، القادر على كل شيء، العليم الحكيم، الخبير الرحيم، الرؤوف السميع البصير، العادل الحق الذي لا إله إلا هو، له الأسماء الحسنى كلها. فإن كان الرجل مؤمناً فاعتراضه متناقض مع سلامة الإيمان، وإن لم يكن مؤمناً فاعتراضه مردود عليه!

ومثل هذه الأحداث تحمل أكثر من تحليلٍ. فهي من ناحية ترتبط بالظروف المادية التي أدت إلى الحادث مباشرة، ومن ناحية أخرى فهيٍ ترتبط بمشيئة الله وحكمته، بسننه الماضية في الكون، بقضائه وقدره. أما الناحية الأولى فيمكن أن نجري عليها دراسات لتنظم حياتنا، ونطوِّر وسائلنا في المرور والطرق وغير ذلك، ولتنهض علوم وفنون في حياة الإنسان، تساعد على تنظيم شئونه. وأما الناحية الثانية فإنها يجب أن تدفع القلوب المؤمنة لترى آيات الله ماضية في الكون فتخشع وتنيب.

ولما يحدث في حياة الناس من سرعة في الاعتراض على المشيئة الإلهية في مثل هذه الأحداث، فقد أنزل الله سورة الكهف لتوضّح أن وراء كل حادث حكمة لله غالبة، ولتعرض مشيئة الله وقضاءه من خلال التوحيد. وكذلك فهنالك سور أُخرى تعرض هذه القضية عرضاً معجزاً من خلال التوحيد، متناسقة مرتبطة في منهاج الله مع كل أحكامه وقواعده.

ونعرض هنا قبسات من سورة الكهف لتوضح ما عرضناه آنفا. ولكن هذه القبسات على أهميتها لا تغني عن ضرورة عودة القارىء الكريم إلى كتاب الله، إلى سورة الكهف كلها، ليرى عظمة الإعجاز والتناسق.

تعرض سورة الكهف قصة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام، حين رغب موسى أن يتبع الخضر ليتعلم منه رشدا:

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف: ٦٦)

فاشترط الخضر أن يصبر موسى ولا يتعجل بالسؤال والاعتراض على ما لم يحط به خبرا. وهنا تُقرِّر الآيات الكريمة هذه القاعدة العظيمة من أنه لا يحقُّ لأحد أن يعترض على ما لا يعلم وما لم يحط بخبره وظروفه:

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾.
(الكهف: ٦٧، ٦٨)

ولكن موسى عليه السلام يتعهد بالصبر والطاعة. ثم يشترط الخضر على موسى أن لا يسأل عن شيء حتى يحدِّثه الخضر عنه:

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (الكهف: ٧٠)

ثم ينطلق الخضر وموسى عليهما السلام. والخضر يمثل هنا قدر الله وقضاءه فيما يفعله. فهو لا يفعل شيئاً إلا بأمر الله. فيخرق السفينة ويعترض موسى ثم يعتذر عن اعتراضه. ويقتل الخضر عليه السلام غلاماً ويعود موسى عليه السلام إلى الاعتراض. ولنستمع إلى هذه الآيات الكريمة:

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾
(الكهف: ٧٤ - ٧٦)

وينطلقان فيريان جداراً يريد أن ينقض فيقيمه الخضر ويصلحه مع أن أهل القرية رفضا إطعامهما. ويعترض موسى عليه السلام. ويقول الخضر:

﴿قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾. (الكهف: ٧٨)

ثم يأخذ الخضر عليه السلام يوضح الحكمة الربّانية في كل عمل قام به، فيقول عن الغلام:

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۝ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (الكهف : ٨٠، ٨١)

هذه إذن حكمة الله في قضائه الذي نفذ في الغلام. وأنى لموسى عليه السلام أن يعلم ذلك، أو أن يعلم تفصيلات أخرى لم تذكرها الآيات الكريمة، وأنى لغيره أن يعلم ذلك. فكيف يكون حق الاعتراض مع جهل بالسنن التي تجرى، والتفصيلات الكثيرة التي تغيب، والتي لا يحيط بعلمها إلا الله. ويختم الخضر عليه السلام حديثه:

﴿ . . . وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾. (الكهف : ٨٢)

ونرى أنّ بعض الناس يخطىء في فهم هذه الأحداث وفي فهم المشيئة الإلهية والقضاء والقدر من ناحيتين على الأقل:

أولاً: حين يناقشون ذلك على أساس ما يسمونه «الفلسفة»، ويحاولون أن يجعلوا من عقل الإنسان وقدراته طاقاتٍ أعلى مما خلقت عليه. يحاولون أن يجعلوا منها طاقات تجمع علوم الكون كلها وتحيط بكل شيء، وأنّى لها ذلك؟ ولا يعترفون بضعفهم وعجزهم بل يدفعهم الكبر إلى ظلمات شتّى. إنهم هم الذين يحارون أمام مسألة رياضية أو فيزيائية، أو أمر اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي، أو غير ذلك، يريدون أن يتطاولوا بغرور خادع ليحاولوا جاهدين أن يدركوا بعقولهم ما لا يستطيعون إدراكه، وما لم تُخلق عقولهم له. وفي الوقت نفسه ينسون أُسس التوحيد، وسلامة الفطرة، فلا يخشعون ولا ينيبون.

ثانياً: يحاول بعضهم أن يناقش هذه القضايا معزولة عن التوحيد، مستقلة عن الإيمان وقواعده، حتى كأنها قضايا مستقلة بذاتها، معزولة عن جذورها وساقها وفروعها، متجاهلين صفات الألوهية وأُسس التوحيد وأسماء الله الحسنى. فتضطرب التصورات وتختلط.

لا يستطيع العقل البشريّ أن يلم بأطراف أكبر قضية ممتدة في الكون والزمان، ولا

هو مكلف بذلك. فمشيئة الله وقدره وقضاؤه، ذلك كله ليس محصوراً في الإنسان وحده، كما يتوهّم بعضهم. ولكنها مشيئة ممتدّة إلى آفاق الكون كله، تحمل معها قضاء الله وقدره، وحكمته وسننه، فى كل جزء صغُرَ أو كبر في الكون، ممتدَّة مع العصور والأجيال كلها:

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(الأنعام : ٥٩، ٦٠)

جولة هائلة في الكون تربط الأزمان والعصور، وتربط الدنيا بالآخرة وتربط الغيب بالمشهد!

وجولة أُخرى:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾.　(الزمر : ٥، ٦)

جولة مذهلة رائعة بين السموات والأرض، بين الليل والنهار، والشمس والقمر، والآجال المسماة، مع الخلق، خلق الإنسان والأنعام، والأرحام في بطون الأمهات، جولة تربط ذلك كله بالتوحيد، بالإيمان بالله الواحد الأحد، الخالق المصور له الأسماء الحسنى، له الملك.

إذا كان هذا هو التصوُّر الذي نفهَمه عن القضاء والقدر، تصوراً نابعاً من التوحيد، وإذا كان كل شيء هو بقدر الله في هذا الكون حتى العجز والكيس، فهل الإيمان بالله الواحد الأحد، بل هل الله سبحانه وتعالى، يأمر الناس أن يعجزوا، أن يتراخوا، أن يقبعوا دون أن يسعوا في أرض الله؟!

إن الله سبحانه وتعالى يأمر عباده بأن يعملوا، كما مرَّ معنا في الحديث السابق عن

عليٍّ رضـي الله عنه، الحديث الذي يقول فيه رسول الله ﷺ ردّاً على سؤال طرحه أحدهم: «**اعملوا فكل ميسَّر**». وفي رواية أخرى: «**اعملوا فكل ميسَّرٌ لما خلق له**». لقد سأل الصحابة رضـي الله عنهم: «**فلمَ نعمل؟ أفلا نتكل؟**» قال: «**لا! اعملوا! فكلٌّ ميسَّر لما خلق له**». نهيٌ: «**لا!**»، وأمرٌ: «**اعملوا**». وتوضيح بعد ذلك.

ويمضـي أمر الله إلى عباده بالعمل والسعي:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.
(الملك: ١٥)

كذلك:

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾
(التوبة: ١٠٥)

أمر حاسم بالعمل والسعي! وتمضـي آيات الله تقرن العمل بالإيمان، حتى تكاد تشعر أنهما شيء واحد، وأن الإيمان يتطلب العمل ويستوجبه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾
(يونس: ٩)

ولا يأمر الإيمان بأيّ عمل! كلا! إنه يأمر بالعمل الصالح: ﴿**وعملوا الصالحات**﴾.

واستمع إلى حديث رسول الله ﷺ يبين ذلك أيضاً:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا. ولكن قل: قدَّر الله. وما شاء فعل. فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان» (رواه مسلم)[1]

فهنا جاء النهيُ جلياً عن العجز «**ولا تعجز**». وأما في الحديث السابق عن ابن عمر رضـي الله عنهما «**كلُ شيء بقدر الله حتى العجز والكيس**». فالعجز في حديث ابن عمر يأتي من خلال قدر الله، من خلال سننه الماضية في الكون، من خلال نظامه الذي فرضه على الكون وقانونه الذي أمضاه وكلمته التي سبقت.فإن مرض الإنسان

(١) صحيح مسلم: كتاب القدر (٤٦). باب (٨). حديث (٢٦٦٤/٣٤).

فعجـز فمرضه سنة من سنن الله، يمرض بقدر الله ويعجز بقدر الله. ولكن هذا المرض وهذا العجز لا يكونان موضع حساب بين يدي الله لمجرد المرض والعجز الناتج عنه. أما العجز الذي يحاسَب عليه فهو العجز الذي يقصِّر فيه عن واجب أمره الله بالنهوض إليه. والعجز كله والمرض كله، والابتلاء والحساب، هذا كله هو من قدر الله، حيث يحمل قدر الله عظمة القدرة الربّانية وجلال العدالة.

٩ ـ عدالة الالوهية وحكمتها تقتضي أن يكون كل شيء بقدر الله:

فكلُّ شيء في الكون هو من قدر الله. ولكن لا يحاسب الله عباده على كل ما قدّره. وإنما يحاسبهم على ما قدّره عليهم من تكاليف، وعلى ما أودع فيهم من طاقات للقيام بها، وما هيأ لهم من الظروف مما يعين على سلامة أدائه والوفاء به، يحاسبهم من خلال علم ربّانيّ كامل، وقدرة ربّانية شاملة، وحكمة ماضية، ورحمة واسعة، وسنن قدّرها للحساب والجزاء على عدل مطلق حق، فكان ذلك كله هو من قدر الله وقضائه ومشيئته.

ويمضـي منهاج الله يعرض قضية القدر مرتبطة مع التوحيد، أساساً من أُسسه، مرتبطة مع منهاج الله ارتباط تكامل وتناسق، حتى لا يكاد يستقيم معنى التوحيد بغير القضـاء والقدر، وبغير المشيئة الإلهية النافذة.

يخشع المؤمن في خشية ورهبة أمام آيات الله البيّنات وهي تعرض كل أُسس الإيمان عرضاً ربّانياً معجزاً، في جلاء ووضوح. فمن التوحيد، من الألوهية وجلالها، من كل أسمائها الحسنى وصفاتها، تمضـي مشيئة الله في الكون كله، ويمضـي قضاؤه وقدره سبحانه وتعالى، آيات بيّنات!.

لهذا كله كان الإيمان بالقضـاء والقدر، خيره وشره، أساساً من أُسس الإيمان، وشرطاً من شروط التوحيد، لا ينفصل أبداً. وقد جاء حديث رسول الله ﷺ يجلو لنا ذلك:

عن عمر بن الخطاب رضـي الله عنه، قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرَى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبـيِّ ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على

فخذيه. وقال: «يامحمد! أخبرني عن الإسلام». فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت، إن استطعت إليه سبيلا» قال: «صدقتَ» قال: فعجبنا له، يسأله ويُصدِّقه. قال: «فأخبرني عن الإيمان». قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: «صَدقتَ». قال: «فأخبرني عن الإحسان». قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرني عن أمارتها. قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة، رعاء الشاء، يتطاولون في البنيان». قال: ثم انطلق، فلبثت ملياً، ثمَّ قال لي: «ياعمر! أتدري من السائل؟» قلت الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» (رواه البخاري ومسلم)[1]

جاء الحديث الشريف ليقرر أُصولاً عظيمة في التوحيد، وليقرر أن القدر، خيره وشرّه، جزءٌ من التصور الإيماني المتكامل المتناسق وغياب تصور القدر عن التصور الإيماني، يجعل التصور الإيمانّي مضطرباً قلقاً غير سليم. والاعتراض على القدر خروج عن الإيمان وانحراف شديد.

ولقد أورد «الإمام مسلم» هذا الحديث في صحيحه في كتاب الإيمان، وروى له مقدمة تذكر كيف بدأ الحديث بالقدر. فقد جاء في هذه المقدمة ما يلي:

عن يحيى بن يَعمر قال: كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجُهنّي. فانطلقت أنا وحميد بن عبدالرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر. فوُفِّق لنا عبدالله بن عمر ابن الخطاب داخلاً المسجد. فاكتنفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله. فظننتُ أن صاحبي سيكل الكلام إلي. فقلتُ. أبا عبدالرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقفَّرون العلم (يطلبونه ويتبعونه)، (وذكر من شأنهم). ويزعمون أن لا قدر وأن الأمر أُنُف (أي مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى. وإنما يعلمه بعد وقوعه). قال: «فإذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أني بريء منهم،

(١) صحيح البخاري: كتاب (٢). باب (٣٧). صحيح مسلم: كتاب (١). باب (١). حديث رقم (١/٨).

وأنهم برآءُ مني. والـذي يحلف به عبدالله بن عمر، لو أن لأحدهم مثل أُحدٍ ذهباً فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر. ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب، فأورد الحديث السابق.

وإني لأرجو أن يكون العرض في هذا الفصل قد أوضح بصورة مبدئية منزلة القدر في الإيمان، ومعنى مشيئة الله، ومعنى القدر، وملامح مما يرسمه لنا منهاجُ الله من خلال قبسات عرضناها. وفي منهاج الله، قرآناً وسنة، العرض الأوفي والأكمل.

إن الخوض في هذا الموضوع كثير المزالق، المزالق التي يضعها الشيطان أمام الناس ليفتنهم عن جادة الإيمان. ولكنّ الداعية المؤمن يستطيع بحماية الله له أن ينجو من مثـل هذه الفتنـة، وأن يعرض القضية من خلال الآيات والأحاديث. ويمكن أن ننصح الداعية المؤمن عند عرضه هذه القضية بخمسة أمور رئيسية:

١ ـ أن يكون زاده من منهاج الله كافياً يسمح له بعرض القضية من خلال آيات وأحاديث.

٢ ـ أن لا يعـرض قضية القـدر ولا يناقشها قضية مستقلة معزولة عن التوحيد وقـواعـده، والإيمان وأُسسـه. وإنـما يكشف في حديثـه قوة ارتباط القدر بالتوحيد وبالتصور الإيماني.

٣ ـ أن لا يسمح بتحويل القضية إلى قضية فلسفية تخضع لأهواء البشر وعقولهم المحدودة، وتنعزل عن الغيب الذي وضعه الله في فطرة ابن آدم، كما شرحنا هذا قبل قليل.

٤ ـ أن لا يبدأ بمناقشة هذه القضية منذ البداية. وإنما يمضـي على خُطة ونهج، يستوعبان موضوع القدر في مرحلته المناسبة. وتقوم الخطة على أساس من منهاج الله، وعلى أساس فهمه لمن يدعوه إلى الإيمان والواقع الذي يعملون فيه، وكذلك يستعين بالنهج العام الذي نرسمه في هذا الكتاب.

٥ ـ أن لا يحصر مفهوم القدر في أحداث حياة الإنسان على الأرض، وإنما القدر تصوُّرٌ يشمل الكون كله، بجميع أبعاده، كما ذكرنا سابقاً.

بهذه القواعد نأمل أن يفتح الله على الداعية المؤمن، الذي يحمل الزاد الكريم من

منهاج الله آيات كريمة وأحاديث شريفة، بما يعينه على تبليغ دعوة الله إلى الناس، وتبليغ التوحيد بتصوره القرآني الحق.

لقد كان التصور القرآني الصافي للقضاء والقدر ولمشيئة الله ثابتاً في صدور صحابة رسول الله ﷺ، مشرقاً في قلوبهم، نقياً من وسوسات الشيطان. فما ثارت في نفوسهم أسئلة إلا وجدوا حَاجتهم جلية في كتاب الله وسنّة رسوله، حتى اطمأنّت قلوبهم ورضيت نفوسهم، فأسلموا لله رب العالمين.

ولقد عرضنا في حديث ابن الديلمي الذي رواه مسلم كيف كانت إجابة الصحابة واحدة لا تختلف، واضحة لا تضطرب.

ولذلك جاء الأمر بهجر المكذبين بالقدر:

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لكلِّ أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنّة عاقٌّ ولا مدمن خمر ولا مكذب بقدر» (رواهما أحمد)[1]

ولذلك أيضاً كان الإيمان بالقضاء والقدر باباً من أبواب سعادة الإنسان وفلاحه:

فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سعادة ابن آدم استخارته الله، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضاه الله، ومن شقوة ابن آدم تركه استخارة الله، ومن شقوة ابن آدم سخطه بما قضاه الله عز وجل» (رواه أحمد)[2]

نعم إنه من سعادته. فالإيمان بالقضاء والقدر يعطي جوهر معنى التوحيد، وحقيقة معنى الإسلام والاستسلام لله سبحانه وتعالى. إنه استمساك بالعروة الوثقى لا انفصام لها:

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾
(لقمان: ٢٢)

ومن يسلم وجهه إلى الله فقد أسلم أمره كله، وتوكل على الله حق التوكل، وأناب إلى الله أصدق إنابة. كيف لا؟! وقد عرف ربّه، عرف أنه هو الله لا إله إلا هو له

(١) الفتح الرباني: كتاب القدر (٣). باب (٥). حديث (٣٨)، حديث (٤١).
(٢) الفتح الرباني: كتاب القدر (٣). باب (١). حديث (١٤).

الأسماء الحسنى كلها.

وهذا إبراهيم عليه السلام يناديه ربه، يخاطبه ويقول له: أسلم! واستمع إلى آيات الله:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. (البقرة: ١٣٠، ١٣١)

تشعرك هذه الآيات الكريمة بمعناها وظلالها بعظمة الاستسلام لله، عظمة فيها عزة المؤمن وهو يستسلم ويسلم لرب العالمين، ويشعرك كذلك بالراحة الكبيرة، والاطمئنان الواسع، والسعادة الغامرة، وأنت تسلم وتلجأ إلى القوي العزيز، الذي لا حول ولا قوة إلا به، سبحانه وتعالى عما يشركون.

ويأتي الحديث الشريف يبرز جوهر سعادة المؤمن:

فعن صُهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن. إنَّ أمره كله خير. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له. وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له» (رواه مسلم وأحمد)[1]

هذه هي الحقيقة! «... **وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن**...» أحداث الدنيا عامة للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم. كلهم يتعرَّضون للبلاء بأنواعه، ولكن المؤمن وحده يظل على خير دائم في السّراء والضراء. سعادة ممتدة في حياة المؤمن، تزداد وتنمو، مع نموّ الإيمان، حتى يدخل الجنة ويحل عليه رضوان الله، فذلك ذروة السعادة! والحمد لله رب العالمين. يامقلب القلوب ومصرفها ثبّت قلوبنا على دينك، وتوفنا مسلمين.

١٠ ـ موجز يؤكد النقاط الهامة في تصور المشيئة والقضاء والقدر:

ويمكن في ختام هذا الفصل أن نعرض موجزاً لنؤكد بعض النقاط التي نراها هامة، ولنؤكد التصوُّر كله. ويمكن أن نوجز التصور بنقاط خمس تعين على ربط الموضوع وجمع عناصره:

(١) صحيح مسلم: كتاب (٥٣). باب (١٣). حديث (٢٩٩٩/٦٤). الفتح الرباني: كتاب القدر (٣). باب (١). حديث (١٥، ١٦). (ج١). (ص: ١٢٨).

أولاً: فهم الإنسان وفَهْمُ أهمِّ خصائصه وقدراته:

فهو مخلوق وليس بخالق، وهو يولد ويموت فعمره محدود، وعلمه محدود، له شهواته وغرائزه وأهواؤه، وهو ضعيف. ولكن أهم مصادر قوته فطرته إذا بقيت سليمة نقيّة لتحمل الإيمان والتوحيد في تصوّره الصادق. أما إذا ارتكب آثاماً ومعاصي فإنها تترك على قلبه الران. وكلما زاد ذلك اضطرب التصور بما كسبت يداه حتى تحقَّ عليه كلمة الله أنه لا يؤمن، عدلاً منه سبحانه وتعالى. والإنسان عبد مخلوق يُسْأل ويحاسَب.

ثانياً: التصور الصادق للألوهية، لله ولأسمائه الحسنى كلها:

فهو الخالق الذي يَسْأل ويحاسِب. فلا يُسْأل ولو كان يُسْأل لتناقض ذلك مع خصائص الألوهية. وهو على كل شيء قدير، فعَّال لما يريد، عليم خبير حكيم، مشيئته نافذة وهي مشيئة الحق والعدل لا تظلم أبداً. وهي لا تتأثر بعلمنا أو جهلنا. لله الأسماء الحسنى كلها. وحتى يستقيم الإيمان لابد من الإيمان بصفات الله وأسمائه الحسنى كلها معاً دون أن نسقط منها شيئاً. وعلمه سبحانه وتعالى مطلق غير محدود، وحكمته مطلقة، وعدالته مطلقة، قضت مشيئته أن يقوم الكون كله على ميزان أمين دقيق في الدنيا والآخرة، وفي جميع أرجاء الكون الممتد.

ثالثاً: أن ندرك معنى مشيئة الله ومعنى سننه:

فهي المشيئة المطلقة التي يقررها سبحانه وتعالى. ولقد سبقت كلمته ومضت مشيئته في خلق هذا الكون وفي خلق الإنسان على سنن نعرف منها شيئاً ونجهل منها الكثير. وجعل الله ما شاء من سننه ثابتاً رحمة بعباده حتى تمضي حياتهم نامية متطورة. وجعل الله الحياة الدنيا دار ابتلاء وتمحيص، وجعل فيها الشيطان مصدر ابتلاء للإنسان. ويخرج الإنسان من هذه الدنيا وقد محِّص تمحيصاً عادلاً وقامت الحجة له أو عليه، على ميزان رباني دقيق. ولا تتعارض سنن الله فيما بينها، ولا تتعارض أسماء الله الحسنى وصفاته ومشيئته أبداً. ولا تتأثر هذه كلها بعلم الإنسان أو جهله لها. فمشيئة الله لا تتعارض مع علمه المطلق ولكنها تتناسق كل التناسق، ولا يتعارض علمه المطلق سبحانه وتعالى مع عدله المطلق، وحكمته المطلقة، وإنما

يتناسق هذا كله في نظام رباني، وفي قضائه وقدره.

رابعاً: أن ندرك مهمة الإنسان:

تنشأ مهمة الإنسان من مشيئة الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى. فهو عبد لله مخلوق يجب أن يدرك ويقرّ بعبوديته لله إقرار خضوع وخشوع ليكون هذا هو جوهر الإيمان والإسلام. فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلقه وحدَّد له مهمته التي سيحاسب عليها، وحدّد له أجله ورزقه. وتدور مهمة الإنسان هذه في إطار تعبيرات أربعة:

العبادة، الخلافة، الأمانة، العمارة، ومن هذه التعبيرات وميادينها يكون من واجبات الإنسان أن يقوم بالمهمات التالية:

١ ـ أن يحمي فطرته من أن تنحرف حتى يظل إيمانه وتصوره سليمًا. وأهم وسائل الحماية: الذكر والعمل الصالح والشعائر وملازمة منهاج الله.

٢ ـ التأمل والتدبر في آيات الله في الكون لتظل هذه راعية لفطرته.

٣ ـ أن يمضي في الكون ليتعرف على سنن الله، ليعيها ويفهمها ويستفيد من ذلك في رعاية إيمانه وتنمية حياته لتحقيق مهمته في الحياة، فيضبط أهواءه وشهواته في مجراها النظيف.

٤ ـ أن يصدِّق بالرسل والأنبياء وبالنبي الخاتم محمد ﷺ وبكتاب الله المهيمن المبين.

٥ ـ أن يخرج من ذلك كله بتصور واضح للإلوهية وجلالها ولعبوديته وحدودها.

٦ ـ أن يعرف مهمته وحدوده فلا يتجاوزها.

٧ ـ أن يسلم لله رب العالمين إسلاماً كاملاً، يجلوه سلوكه وكلمته ومواقفه.

خامساً: أسباب الخطأ في التصور:

١ ـ تكليف عقل الإنسان بما لا يطيق، وبما لم يخلق له، ودخوله أجواءً فوق مسئوليته وحدوده وطاقته.

٢ ـ محاولة الإنسان أن يخلع على الألوهية الخالقة بعض صفات العبد المخلوق، فينشأ انحراف خطير في تصور التوحيد والألوهية.

٣ ـ محاولة الإنسان أن يخضع الدار الآخرة والغيب كله لقوانين الحياة الدنيا وتصوراتها وموازينها، ولكنَّ الغيب كله، مامضى منه مثل خلق الكون، وماهو آت، كالدار الآخرة، كل هذا له قوانين خاصة غير قوانين الحياة الدنيا.

الفصل الثاني

مسئولية الإنسان وحسابه

١ - عدالة الألوهية وحكمتها في نظام الكون تقتضي مسئولية الانسان في دائرته المحددة له :

لقـد رأينا في الفصل الأول أنّ التوحيد يمثّل القضيّةَ الأُولى في حياة الإنسان، والحقيقـة الكـبرى. وكان مصدر تصورها ونقطة انطلاقها هو حقيقة الموت التي لا يستـطيع أحـد إنكارها. ومن هذه الحقيقة تمتد حقيقة أُخرى تقرر أن الإنسان لا يستطيع بعد الموت أن يصلح من أمره، أو أن يعود عن خطأه، أو أن يتوب. إنه لا يستطيع أن يعود إلى الحياة الدنيا ثانية ليستأنف درباً أصحَّ ومنهجاً أقوم. إن الحياة الدنيا هي الفرصة الوحيدة للإنسان ليقرِّر فيه رأيه وموقفه ونهجه، ثمَّ ليتحمل بعد ذلك مسئولية ما يقرره. من هذا المنطلق تمتد الحقائق وتتجمع حتى تتكوَّن القضيةُ الأولى والحقيقة الكبرى في حياة البشريَّة كلها، كما عرضنا تفصيل ذلك في الفصل الأول.

وكذلك لو نظرنا إلى واقع هذا الكون، إلى واقع الدنيا، كما نراها وندرسها، وكما يتبينّ لنا في مسيرة الأبحاث والعلوم، لو نظرنا إلى ذلك لتبين لنا أنَّ كل شيء في هذه الحياة يخضـع إلى نظام محدَّد وسنن ثابتـة. ولـولا ذلك لما استطعنا دراسة شيء ولا استطعنا بلوغ حقيقة. فإذا كانت الحياة بجميع نواحيها تخضع إلى نظام محدَّد وسنن ثابتة، فكيف نستثني حياة الإنسان من ذلك. فهي أيضاً تخضع إلى سنن ثابتة سواء أعرفناها نحن، أم عرفتها الأجيال المقبلة، أم بقيت سراً في عالم الغيب. ومن أهم مظاهر النظام والسنن أنها تحمل معها العدالة والميزان والحكمة. وقد ندرك طرفاً من الحكمة وقد لا ندرك. ولكن وجود السنن والنظام يفرض وجود العدالة والميزان والحكمة.

ففي هذه الحياة الـدنيا لو استعرضنا أحداثها، لوجدناها تكشف لنا مع النظرة الأُولى الفـوضى والاضـطراب: هذا غني وهذا فقير، هذا يموت بهذه الطريقة أو

بتلك، وذاك يولد، حروب ومظالم ومجازر، وهكذا. ولكن مع مسيرة الأبحاث والعلوم تظهر لنا بعض السُّنن وأطراف من الحكمة حتى نرى ملامح النظام المتماسك في الحياة وملامح السنن الثابتة. ومثل ذلك تجده عندما تنظر في السماء ليلاً ترى النجوم للوهلة الأولى موّزعة هنا وهناك على غير انتظام. حتى إذا تأملتَ وتدبّرتَ، جاءتك الأبحاث تكشف نظامَ النجوم والكواكب والقوانين الثابتة التي تخضع لها. فكما أنّ علم الفلك يكشف بعضَ ملامح النظام بين النجوم والكواكب، فكذلك تكشف علوم السكان والاجتماع وغيرهما بعضَ ملامح سنن الله في الحياة البشرية.

نخرج من ذلك إلى أن في حياة الإنسان على الأرض نظاماً وسنناً ثابتة، وأنَّ النظام والسنن يقضيان بتوافر الموازنة والميزان، والعدالة والحكمة، وبدون توافر ذلك لا يعقل أن تستمر السنن ولا يُعقل أن يمضي النظام إلاَّ على اضطراب، وسوء موازنة وعدم عدالة، وخلو من حكمة، حتى يفسد الكون كُلّه.

فإذا كان هنالك رجل ظالم طاغ غنيّ ذو سلطة ونفوذ، ورجل فقير ضعيف مظلوم، استبد به الغنيُّ فظلمه وآذاه، ثمَّ ماتا قبل أن تُسوَّي الحسابات بينهما، وقبل أن تُرَدَّ الحقوق إلى أصحابها، وقبل أن تستقرَّ العدالة، إذا تمَّ هذا، وانتهت القصة على هذا الوضع الظالم، فأين عدالة السنن في الحياة، وأين سلامة الميزان في الكون؟! وأين النظام؟!

من هذا السؤال نَرى أنه إذا لم تُسوَّ العدالة في هذه الحياة الدنيا بين الظالم والمظلوم، فإنَّ السنن إذن ممتدة إلى ما بعد الحياة الدنيا، وما الموت إلا جزء من هذه السنن. إن النظام الكونيَّ والسننَ الثابتة لا تنتهي عند موت أحد من الناس، ولكنها تمتدُّ في واقع هذا الكون حتى تتحقَّق العدالة والأمانة وسلامة الميزان، وحتى تتحقق الحكمة اللازمة للسنن الثابتة وللنظام الكوني الثابت. إن هذا الامتداد هو الحياة الآخرة، هو البعث والحساب، هو التسوية النهائية لكلِّ مظلمة وقعت مهما كانت صغيرة! إنه الحقُّ الذي قامت عليه السموات والأرض!

إلى هذا الهدف العظيم يوجه القرآن الكريم أنظارنا وقلوبنا وهو يعرض الحكمة الربّانية في الكون، والنظام الربّانيّ، والسنن الربانيّة. واستمع إلى آيات الله تعرض

امتداد النظام الكوني وسننه حتى تتحقق العدالة والحكمة، حين تمتدّ السنن ويرجع الناس جميعاً إلى الله سبحانه وتعالى، وترجع الأُمور كُلُّها، كُلُّها إليه:

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾.

(يونس : ٤)

هكذا تمتدُّ السنن الثابتة والنظام: ﴿**إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقّا...**﴾، ﴿**إنه يبدأ الخلق ثم يعيده**﴾ هكذا يمتدُّ النظام حتى تتحقق سلامة الميزان والعدالة والحكمة: ﴿**... ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون**﴾. حكمة ربانية عظيمة، وقانون ثابت، وعدالة وحق وميزان.

هكذا اكتملت الصورة واطمأنَّت النفس إليها، وتناسقت مع حقائق الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وتماسكت قواعد الإيمان على قوة ومتانة.

سيُسَوَّى الحساب، وينتهي الخلق كلهم إلى فريقين: فريق في الجنّة وفريق في السعير:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(يونس : ٧ ـ ١٠)

هذه الحقيقة العظيمة والسنّة الربانيّة الغالبة، يؤكد عليها القرآن الكريم في سورة بعد سورة، ويعيدها مع ظلال جديدة في كل مرة، حتى تطرق قلب الإنسان من كلٍّ نواحيه، وتملأ طاقاته بظلالها وامتدادها.

ومن هذه الحقيقة الكبيرة يتبدىء تصوُّر مسئوليةِ الإنسان، حتى لا تكون حياة الإنسان هَمَلاً، ولا تكون سُدى:

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾

(القيامة : ٣٦)

كيف يُتْرك الإنسان سدى؟! لا يُعقَل هذا! ثمَّ يسوق القرآن الكريم الحجَّة القوية على ذلك حين يعرض السنن الثابتة في هذا الكون، ثم يتساءَل كيف يمكن أن تتوقف هذه السنن الثابتة دون أن تُحقِّق غايتها وحكمة الله فيها بالبعث وما يتبع ذلك من حساب وجزاء:

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ (القيامة: ٣٧ ـ ٤٠)

بلى! إنه قادر على أن يحيي الموتى! إنها سنّة ثابتة وقانون ثابت وحكمة غالبة. إنها امتداد السنن الكونية حتى يرجع الخلق كلهم إلى ربهم، وحتى ترجع الأمور كلها إلى الله سبحانه وتعالى، وحتى يستقرَّ الكون في سننه التي تنتهي بتحقق العدالة والميزان والحكمة، فيصبح للسنن الثابتة والنظام الثابت معنى من الثبات، وحكمة من الاستمرار.

وانظر إلى التعبير في الآية السابقة من سورة يونس: ﴿**أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون**﴾ نعم! بما كانوا يكسبون! إنَّهم دخلوا النار بعملهم، بما كسبت أيديهم، بعدالة ربانيّة، وميزان أمين ربانيّ!

وينقل القرآن الكريم نظر الإنسان وعقله وقلبه إلى السموات والأرض كلها، ليرتبط هذا الامتداد بتلك الغاية النهائية والحكمة الغالبة والسنّة الربانيّة الثابتة:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (النجم: ٣١)

ويربط هذه الغاية والحكمة بموقف عظيم ومشهد هائل، إنه يوم القيامة حيث يتصدَّع الناس من الهلع والفزع، وحيث لا نجاة ولا أمن إلا بالدين القيم، دين الله:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (الروم: ٤٣ ـ ٤٥)

وفي الآيات الكريمة التي تعرض لنا امتداد النظام الكوني وسننه حتى تتحقق الغاية والحكمة والعدالة، في هذه الآيات وفي غيرها كذلك تتقرر حقيقة هامة: وهي

أن الكافرين، أهل النار، يجزون بعملهم، بما كسبت أيديهم، لا ظلم أبداً. ولكن المؤمنين لا يدخلون الجنة بعملهم، وإنما بفضل من الله ورحمة.

ففي الآية من سورة النجم: ﴿... **ليجزي الذين أساءوا بما عملوا. ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى**﴾، وكذلك في الآية من سورة الروم: ﴿**ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله...**﴾. وهذا ما عرضناه في الفصل السابق بتفصيل أوسع.

وتتأكد سنة الله وحكمته في آيات ممتدة في كتاب الله. ففي سورة غافر تتركّز النظرة كذلك على «يوم التلاق» لنرى هناك الحكمة الغالبة والعدالة الربانية:

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (غافر: ١٥ - ١٧)

لا ظلم اليوم! لا ظلم أبداً، فهنا تمتد سنن الكون حتى تبلغ هذا الموقف العظيم، يُجلى فيه العدل، ويقوم فيه الحساب، ويبرز فيه الميزان. هنا في هذا اليوم، «يوم التلاق»، تُجْزَى كل نفس بما كسبت، فالمجرمون يدخلون النار عدلاً منه سبحانه وتعالى بما كسبت أيديهم لا يظلمون، وأما المؤمنون فتحفُّهم رحمة الله فَيدْخُلون الجنَّة بفضل من الله ورحمة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(الأنعام: ١٥٩، ١٦٠)

هكـذا يُجْزَى أهل السيئات. لا يجزون إلا بما كسبوا. وهكذا يُجْزَى أهل الإحسان، يُجْزَون بفضل من الله ورحمة، بالحسنى، يُضَافَ لهم أجر الحسنات. ولقد مَرَّ معنا في فصل سابق حديث رسول الله ﷺ عن ابن عباس فيما يروي عن ربه: **«فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة»**.

هذه سنة من سنن الله ترتبط مع غيرها من سنن الله ليمضي النظام الرّباني في الكون يحمل معه السنن الثابتة والميزان الأمين، والعدل الذي لا ظلم معه والحكمة الغالبة. ويظل هذا النظام المتمكن في الكون مرتبطاً بفطرة الإنسان التي فطره الله عليها، حيث يتجمع كل ما أودعه الله في هذه الفطرة ليكُوْنَ التوحيد والإيمان بكامل شروطهما محور الفطرة وأساسها، ولتظلَّ آيات الله في الكون تُذكِّر وتنبِّه، ولتظل الرسل تدعو وتبشر وتنذر، وليظل كتاب الله حُجَّةَ الله على خلقه إلى يوم القيامة.

رأينا فيما عرضناه أساس التصور لمسئولية الإنسان. رأيناها وهي ترتبط مع النظام الثابت والسنن الماضية، ورأيناها مشرقة آياتٍ بيناتٍ في كتاب الله. وتمضي آيات الله لتؤكد مسئولية الإنسان. ولنأخذ قبسات من كتاب الله تعرض لنا هذه المسئولية بظلال متعددة:

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ (النجم: ٣٦ ـ ٤١)

نعم! ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يُرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾. نعم! بهذه السنن الربانيّة الثابتة يتكامل النظام حتى يحقق الغاية والحكمة والعدالة وكذلك:

﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الصافات: ٢٤)

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٣)

وكذلك:

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (الزخرف: ٤٤)

وتمضي الآيات الكريمة تؤكد مسئولية الإنسان، ومع كل آية ظلال ممتدة. ففي سورة النمل:

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل: ٨٩، ٩٠)

وفي سورة يس :

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (يس : ٥٣ , ٥٤)

وهكذا تمتدّ ظلال المسئولية، مسئولية الإنسان عن نيته وهمسته ونجواه، ورأيه وموقفه وعمله :

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ . (الأنعام : ٣)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المجادلة : ٧)

وكذلك :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾ (هود : ٥)

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ (البقرة : ٢٨٤)

إذن تنبع مسئولية الإنسان في الحياة الدنيا من ضرورة يقتضيها النظام الثابت والسنن الثابتة، حين تمتد لتستكمل غايتها وحكمتها، وتحقّقَ كامل عدالتها الربانية. فتصبح مسئولية الإنسان جزءاً من قضية التوحيد والإيمان بالله الواحد القهار. وترتبط بذلك مع سائر خصائص الفطرة التي فطر الله الناسَ عليها. إنها ترتبط بالنظام الكونيّ المقرَّر، بعدالته وحكمته وتماسكه وتكامله، وتناسقه وإعجازه.

واستمع إلى الآيات في سورة الجاثية تكشف عظمة الميزان وغلبة الحكمة الربّانية :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الجاثية : ٢١، ٢٢)

هنا يخشع قلب المؤمن ويخبت لله سبحانه وتعالى، والآيات تجلو له الحقّ كأنه فلق

الصباح، بيّناً قوياً. توضح الآيتان الكريمتان عدالة النظام الربّاني: **﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات...﴾** إنه خطاب للعقل، للقلب، للفطرة، لكل طاقات الإنسان. وكذلك تسوق هذه الآية الكريمة بُشرى للمؤمنين وهم يطمئنون إلى عدالة الميزان وحكمته، فلا يضيع إيمانهم و لا يضيع عملهم الصالح. إنها بشرى لا تكاد تعدلها بشرى أُخرى في حياة المؤمن كلها. ثم توضح الآية الثانية حكمة النظام وحكمة خلق السموات والأرض عرضاً يأخذ بمجامع النفوس والقلوب، حتى كأنها ترى الحقّ والعدالة والحكمة مشرقة أمامها جليّةً غنيّةً، متماسكة متناسقة: **﴿... ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾**.

ومن هنا نرى ضرورة أخذ التصوّرات الإيمانية والتوحيد من منهاج الله، ليكون منهاج الله صحبة عمر وحياة يمدُّ الإنسان دائمًا بالنور والزاد والقوة في درب الحياة، فلا يضعف بإذن الله. وهل هنالك مصدر آخر يفعل مثل ذلك؟! أبداً لا مصدر لدى البشريّة كلها يطلق هذا النور القويّ إلا منهاج الله قرآناً وسنة. وإن ما يقدمه منهاج الله للإنسان هو أعظم ما يحتاجه الإنسان. إنها القضية الأُولى، إنها قضية التوحيد والإيمان من خلال منهاج رباني كامل متناسق، يجمع ميادين الحياة كلها.

كان لابدّ من هذا الاستطراد والتذكير والتكرار لخطورة هذه القضية، ولشدَّة ما أغفلها الناس في واقع حياتهم بالرغم من وضوحها وجلائها، ولشدة حاجة الناس إليها.

ويعرض كتاب الله هذه القضية، قضية مسئولية الإنسان وحسابه، من خلال منهاجه المتكامل، من خلال البعث والحساب، من خلال الأمانة التي حملها الإنسان، ومن خلال التوحيد:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ (الأحزاب: ٧٢، ٧٣)

حمل الإنسان هذه الأمانة وسيحاسب عليها. سيحاسب عليها لأن حكمة الله وعلمه، وعدالته ورحمته، ولأن مشيئته قضت ذلك. ويبينّ الله لنا من حكمته ما

يشـاء: ﴿ليعـذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنـات. . .﴾، وليتم عذاب الله ولتمتـد رحمتـه عدلاً منـه سبحـانه وتعالى بعد الحساب، وبعد أن تقوم الحجة على كل إنسان أو تقوم له.

﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾! علم لا يبلغه الإنسان، ولا يبلغ منه إلا ما يشاء الله له أن يبلغه، ورحمة لا يبلغ مداها الإنسان إلا بقدر ما يعلّمه الله منها.

وإنَّ عرض هذه الأمانة على السموات والأرض والجبال يحمل لنا ظلال المسئولية التي ألقيت على الإنسان وحده، المسئولية التي خلق الإنسان ليحملها هو، ولم تخلق السموات والأرض والجبال لحملها. ولله في كل خلقه حكمة غالبة ومشيئة ماضية وقدر نافذ.

٢ - مشاهد من الحساب يوم القيامة:

وسيقف الناس لهذا الحساب فرادى، فرداً فرداً لا ينفعهم الشركاء أبداً:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

(الأنعام: ٩٤)

صورة مذهلة ليوم الحساب، صورة مذهلة حين يقف الإنسان وحده عاجزاً تخلى عنه كل الشركاء الذين كان يعبدهم من دون الله وانكشف له عجزهم وهوانهم، وترك خلفه كل ما أنعم الله عليه في الدنيا ابتلاءً منه سبحانه وتعالى.

واستمع إلى هذه الآيات الكريمة من سورة مريم في مشهد يأخذ بالنفوس رهبة وخشية:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

(مريم: ٨٥ - ٩٥)

من حقيقة التوحيد ينبع التصوّر كله. من حقيقة التوحيد تنشأ عبودية الإنسان لربه

وخالقه ومولاه: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا﴾. ومن هذه العبودية تقوم مسئولية الإنسان وتدور محاسبته، ومنها تتحدد مهمته.

ومشهد آخر يربط الدنيا بالآخرة، يربط العمل في الدنيا بالحساب ونتيجته في الآخرة:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

(الانفطار : ٩ - ١٩)

سجل دقيق أمين لكل عمل الإنسان: ﴿وإن عليكم لحافظين. كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون﴾.

ويشتد المشهد وتقوى حركته مع هول الساعة والحساب، حتى يفرّ المرء من أخيه وأُمه وأبيه . . . !

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

(عبس : ٣٣ - ٤٢)

ويمضي كتاب الله يعرض مشاهد البعث والحساب والجنة والنار، حتى يتضح أن هذا الحساب جزء من نظام ربّاني متماسك، وجزء من مشيئة ربانيّة ماضية. يعرضها عرضاً معجزاً ممتداً بظلاله ومعانيه:

٣ - عدم تعارض مسئولية الانسان مع قضاء الله وقدره :

وتدور قضية المسئولية، مسئولية الإنسان في الحياة الدنيا، على هذا النحو الدقيق في منهاج الله، قرآناً وسنة، حيث يعرض منهاج الله ارتباط هذه المسئولية بسنن الله الثابتة في الكون ونظامه الممتدّ، نظامه الذي قضى به الله وحده لا شريك له، نظامه الذي شاءه الله ومضتْ به مشيئته، نظامه الذي قدَّره الله وقرَّره. على هذا النحو يعرض منهاج الله مسئولية الإنسان، ويعيد في عرضها بظلالها المتجدِّدة حتى لا يبقى عذر لأحد، أو سؤال لمستوضح. إلا المجادل، المعاند، المتشكِّك الذي أصابته فتنة

في قلبه بما كسبت يداه هو وحده، فغلب على قلبه الرّان. هذا الإنسان، في مثل هذه الحالة، تجده يعاند ويجادل ويسأل: «إذا كان الله كتب على فلان أن يفعل كذا وكذا فلماذا يحاسبه والله قادر على أن يكتب على فلان أن لا يفعل». هذا السؤال التاريخي الذي ضجّت به الفلسفات والكتب والمكابرون. ولم يكن لهذا السؤال مسوِّغ مع وضوح الإيمان، واستقامة التصور، وارتباط الإنسان في تصوّره بمنهاج الله وبفطرته التي فطره الله عليها.

وإذا كنا نردُّ على هذا السؤال هنا فلأنه متردِّد في الأوهام والأذهان، فنحاول بإذن الله أن نجلو الصورة على ضوء ما عرضناه سابقاً من كتاب الله وسنة نبيّه، بنقاط محددة سهلة إن شاء الله.

أولاً: إن قضايا الإيمان والتوحيد قضايا متماسكة كلها فيما بينها ومتماسكة مع منهاج الله، فلا ندرس قضية معزولة عن أسس التوحيد والإيمان، فمثل هذا العزل والفصل تناقض وظلم وتشويه لحقائق الإيمان والتوحيد، ومخالفة للفطرة السويّة، ومخالفة للعقل في الحدود التي كلفه الله به.

ثانياً: إذا كتب الله على أحد من عباده أن يفعل أو أن لا يفعل، فهي مشيئة الله وقضاؤه وقدره، فلا شيء في هذا الكون كله، مهما صغر أو عظم، يمضي على غير مشيئة الله. إنها دائمًا مشيئة الله وعلمه وقضاؤه وقدره، إنها قاعدة لا تغيب أبداً عن أي شيء أو حدث في هذا الكون. وإن هذا التصوّر جزء رئيسي من قواعد الإيمان والتوحيد.

ثالثاً: إذا سألنا مثل هذا السؤال ونحن نؤمن بالله سبحانه وتعالى، فإننا نتناقض بهذا السؤال مع حقيقة الإيمان والتوحيد، ذلك لأننا نؤمن بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، بكامل صفاته سبحانه وتعالى وأسمائه الحسنى لا بجزء منها، ولا نترك منها شيئاً فالله لا يُسأل عَمّا يفعل وهم يُسألون. ومشيئة الله هي مشيئة العلم والعدل والحكمة. فقد عَلِمَ الله عن عمل عبده ما لا نعلمه نحن، فكتب عليه شيئاً، وقضى عليه أمراً، وقدّر له قدراً، عن علم وعدل وحكمة. فما أصاب الرجلَ كان حقّاً وعدلاً، وكان الرجلُ يستحقُّ ذلك في ميزان ربّاني دقيق أمين، وحكمة غالبة، وعدالة

ماضية. وإذا جهلنا نحن وجه العدالة أو الحكمة فإنَّ جهلنا لا يبطل وجودها ومضيّها ونفاذها.

رابعاً: إن مشيئة الله سبحانه وتعالى وقضاءه وقدره، في أيِّ حادث من حوادث هذا الكون، جزء من النظام الكونيّ الثابت وسننه الماضية. إنه ليس قضاء معزولاً. بل هو مرتبط بالنظام لأنّ الله سبحانه وتعالى قضى بهذا الارتباط وشاءه وقدَّره، فأصبح نافذاً لا يعطله شيء أبداً.

خامساً: لو شاء الله خلاف هذا النظام لفعل، ولقدَّر نظاماً آخر وسنناً أُخرى، فهو على كُلِّ شيء قدير، فعّال لما يريد. ولكنه سبحانه وتعالى سبقَتْ كلمته وغلبت حكمته ومضت سنته فلا رادَّ لذلك أبداً.

سادساً: إنّ مهمة الإنسان أن يتعلم ما يستطيع من سنن الله في الكون، ومن نظامه النافذ بمشيئة الله وقضائه وقدره، وأن يتأمّل في حكمة الله ويتدبّر قدر وسعه وطاقته، دون أن يُعطي هذا التعلُّم والتدبّرُ والتأملُ الحقَّ للإنسان في محاسبة السنن أو الاعتراض عليها، أو أن يسأل الله ما يفعل وما لم يفعل:

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأنبياء : ٢٣)

نخلص من ذلك إلى أن قواعد الإيمان والتوحيد متناسقة، مترابطة متماسكة، وأن سنن الله في الكون كذلك متناسقة متماسكة، كما أرادها الله بمشيئته وقضائه وقدره.

وسنن الله في الكون نستطيع أن نعرف بعضاً منها بالقدر الذي يشاء الله لنا أن نعرفه:

﴿ . . . وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ . . . ﴾ (البقرة : ٢٥٥)

٤ ـ سنن الله المتعلقة بالانسان ودوائرها :

إننا نستطيع أن نعرف هذا القَدْر من السنن من مصادر ثلاثة يسَّرَها الله بمشيئته للإنسان، من واقع حياة الإنسان ومما يشاهده مع توالي العصور والأجيال، ومما نبلغه بالسعي والبحث والتأمل والتدبّر في الحياة الدنيا، على سنن هيأها الله للإنسان بمشيئته سبحانه وتعالى، ومما علمنا إياه الله بالوحي المتنزِّل على الأنبياء والرسل الذين

خُتِموا بمحمد ﷺ، فجاء القرآن الكريم مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه.

وبصورة عامة نستطيع أن نوجز السنن الكونية الربّانية الخاصة في حياة الإنسان بدوائر أو مراحل أربع، دون أن يعني ذلك فصلها أو عزلها عن سنن الكون كله، فسنن الكون مترابطة متناسقة في نظام رباني مضت به مشيئة الله سبحانه وتعالى. فنضع هذا الموجز والتقسيم للإيضاح ولتيسير التصور والعرض:

الدائرة الأُولى: هي دائرة عالم الغيب والذرّ، حيث لا يصلها بحث الإنسان ولا سعيه ولا علمه، ولكنها هي مما يعلمنا إياه الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم وسنة نبيه محمد ﷺ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ (الأعراف: ١٧٢)

وكذلك:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ (الحجر: ٢٦)

وتمضي الآيات الكريمة تفصل ما شاء الله أن يفصل في خلق الإنسان، مما لا نجد ضرورة أن نذكرها هنا. وإنما نكتفي بهذا القدر من القبسات للإشارة والتوضيح.

الدائرة الثانية: في واقع الحياة الدنيا، حيث يُخلق الإنسان من نطفة، من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، ويفصل كتاب الله وسنة نبيّه ما شاء الله أن يفصِّل من سنن هذه المرحلة. وترتبط هذه المرحلة بالمرحلة السابقة على نحو يعلمه الله. ونأخذ من كتاب الله قبسات تشير إلى سنن هذه الدائرة أو المرحلة. ونأخذ الآيات من سورة الحج حيث تربط المرحلتين معاً، وتربطهما بالدائرة أو المرحلة الثالثة والدائرة أو المرحلة الرابعة، ربطاً ربانياً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ من

بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ ﴾ (الحج : ٥ ـ ٧)

هذا الربط بين جميع المراحل يأتي ليشعرك كأنها كلها مرحلة واحدة، لشدة تماسكها وترابطها وتناسقها: ﴿. . . **من تراب**. . .﴾ فهي من سنن الدائرة الأولى، ﴿. . . **ثم من نطفة**. . .﴾ من سنن الدائرة الثانية، ثم ﴿. . . **ومنكم من يتوفى**. . .﴾ من سنن الدائرة الثالثة التي سنعرضها. ثم تأتي الدائرة الرابعة ببعض سننها: ﴿. . . **وأنه يحيى الموتى. . . وأن الساعة لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور**﴾.

ترتبط الـدوائر الأربع هنا حتى تبدو كأنها دائرة واحدة يكون فيها الإنسان على حالاته كلها. ويقف القرآن الكريم، والسنّة النبوية مع كل دائرة من هذه الدوائر الأربـع، يعرض بعض سننها وقوانينها عرضاً ربانياً معجزاً. ويمضـي الإنسان في أبحاثه وتأمله ليكتشف ما شاء الله له أن يكتشف من الدائرة الثانية والثالثة.

الدائرة الثالثة: في واقع الحياة الدنيا حيث تبتدىء هذه الدائرة مع ولادة الإنسان وتنتهي بوفاته. وهي المرحلة التي سنقف معها بعد قليل. ويعرض كتاب الله بعض سنن هذه المرحلة والدائرة، عرضاً يتناسق مع نظام الكون وسننه ويرتبط به. ومصدر العلم عن هذه الدائرة هي المصادر الثلاثة: الواقع الذي نشاهده، والأبحاث التي نجريها، والوحي المتنزّل على الأنبياء والمرسلين.

الدائرة الرابعة: وهي التي تبتدىء من الموت وتمتدُّ حتى الدار الآخرة. ومصدر العلم عنها كتاب الله وسنّة نبيه، فهي كلها من علم الغيب، لا يصل إليها بحث الإنسان وسعيه، ولا تجاربه ومختبراته، ولا موازينه ومقاييسه.

في الدائرة الثالثة تنشأ مسئولية الإنسان لتكون جزءاً من سنن ثابتة ونظام رباني ثابت سبقت به كلمته، ومضت به مشيئته، وغلب به قضاؤه وقدره وحكمته، ووسعته رحمته. والله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق ما يشاء!

٥ ـ سنة الابتلاء في الحياة الدنيا:

لقد قضت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن تكون الحياة الدنيا بالنسبة للإنسان دار

ابتلاء وتمحيص. فجرت سنن الله في الحياة الدنيا، ومضت مشيئته، ومضى قضاؤه وقدره حتى تتناسق وتترابط كلها في نظام ربّاني يحقّق سنَّة الابتلاء والتمحيص في حياة الإنسان، وحتى تقوم الحجة على كل إنسان يوم القيامة، فيجري الحساب على ميزان ربّاني عادل دقيق أمين، يسجّل كل همسة ونجوى، وكلمة وعمل للإنسان، تسجيلاً دقيقاً دونه كل تسجيلات الإنسان اليوم.

فيحاسَب الإنسان على أعمال وقضايا جعلها الله من مسئولياته في الحياة الدنيا، ولا يحاسب على قضايا لم يجعلها الله من مسئولياته. فالغنيُّ لا يثاب بالأجر الحسن لأنه غنيّ، ولكن يحاسب ويسأل كيف جمع ماله أمن حلال أم حرام، ويُحاسَب كيف أنفق ماله. ولا يعاقَبُ الفقير لأنه فقير، ولكن يُحاسَبُ كيف سعى وبذل، وكيف جدَّ واتقى. والغنيّ مُبْتلى بغناه، والفقير مبتلى بفقره، والعالم مبتلى بعلمه، والقويّ مبتلى بقوته. وتمضي سنّة الابتلاء على كل إنسان، والله أعلم بكلِّ عبد من عباده، فهو أعلم كيف يبتليه ويمحصه، ليُكشفَ معدنه وحقيقة نفسه وحقيقة رأيه وموقفه، وحقيقة عمله وسلوكه، وليقيم الحجة عليه والبينة الصادقة الناطقة:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾. (ق: ١٦ ـ ١٨)

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

(يس: ٦٥)

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(فصلت: ٢٠ ـ ٢٢)

ويفصل القرآن الكريم في أكثر من سورة هذا الابتلاء في الحياة الدنيا، ودقة التمحيص وعدالة الميزان والحساب يوم القيامة. وبالإضافة إلى ذلك فإننا نرى سنة الابتلاء والتمحيص جليّة واضحة في حياة الإنسان، ونراها جزءاً من نظام هذا

الكون، وجزءاً من السنن الثابتة، ويستكمل الميزان العادل كل عناصره، مما نعرف ومما نجهل، حتى يتحقَّق العدل وتقوم الموازين القسط ليوم القيامة:

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٧)

نظام ربانيٌّ، وسنن ربانية، وعدالة ربانية، وحكمة ربانيّة، يخضع لها الكون كله.

تمضي حياة الإنسان في هذه الحياة الدنيا على سنة الابتلاء والتمحيص التي كتبها الله عليه، وجعلها جزءاً متماسكاً من سنن ربّانية ثابتة. وترتبط سنة الابتلاء بالحياة والموت في سورة الملك:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ (الملك: ١، ٢)

وترتبط سنة الابتلاء بالنصر في ميدان القتال وسنن الله فيه:

﴿... ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم ...﴾. (محمد: ٤)

وأما في سورة الأنعام فترتبط سنّة الابتلاء مع سنة اختلاف الناس في درجاتهم في الحياة الدنيا وسنة خلافة الإنسان في الأرض:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ (الأنعام: ١٦٥)

وهكذا ترتبط سنّة الابتلاء مع غيرها من سنن الله، حتى تكون كُلُّها نظاماً ربَّانياً يمضي عليه الكون، وتمضي عليه الحياة.

لقد جعل الله في الحياة الدنيا أسباب ابتلاء متعددة في حياة الإنسان. وفي الوقت نفسه زوّد الإنسان بما يحتاجه من أسباب النجاة. فقد جعل في الحياة الدنيا الشيطانَ يُغوي ابن آدم ويزيّن له الشرَّ، وجعل في الحياة شهوات وهوى، رسم الله لها حدوداً وفَصل بين الحلال والحرام، وجعل فيها المال والنساء والسلطة. وغير ذلك من المغريات. وجعل معها للإنسان فطرة مزوّدة بالإيمان والتوحيد، وعقلاً يحمل قوة التفكير، وآيات بينات في الكون، ورسلاً وأنبياء، وكتباً ينزل بها الوحي، وزاداً من

التجربة ابتدأ في عالم الغيب مع الشيطان في الجنة. إنها إمكانات واسعةٌ تساعد الإنسان الصادق المؤمن على النجاح في الابتلاء والتمحيص، وتكشف الكافر والمنافق وتقيم عليه الحجة والبرهان.

إننا نعْرضُ هُنَا ملامح وقبسات فقط، ولا نستطيع أكثر من ذلك. ولكنَّ مِنهاج الله وحده هو الذي يعرض الحقَّ المطلق كاملاً، بكل ما يحتاجه الإنسان من تفصيل. وسنّة الابتلاء نعرض هنا ملامحها فقط، وفي منهاج الله تفصيلها الواسع الهام، ونرى سنة الابتلاء حيّة ماضية في واقع الإنسان، بين مرض وعافية، وقوة وضعف، وغنى وفقر، وشباب وكهولة، وعجز ونشاط.

ولا يقتصر الأمر على الإنسان الفرد، ولكن الأمر يمتد إلى الأُمم والشعوب. فكما جعل الله لكل إنسانٍ أجلاً، فقد جعل الله لكل أُمة أجلاً:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

(الأعراف: ٣٤)

وجعل الله لكل أُمة رسول:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

(يونس: ٤٧)

وجعل الله لكل أُمة منسكاً هم ناسكوه:

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾

(الحج: ٦٧)

ويقع التنافس بين الأُمم كما يقع بين الأفراد من خلال سنن الابتلاء:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

(النحل: ٩٢)

ويوم القيامة يأخذ الله من كل أُمة شهيداً عليهم:

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

(القصص: ٧٥)

ويوم القيامة تدعى كل أُمة إلى كتابها، وترى كل أُمة جاثية:

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الجاثية : ٢٨)

إننا نعرض هنا ملامح من سنّة الابتلاء! ونؤكد ذلك حتى يعلم كُلُّ إنسان أن الحقَّ المطلق الكامل هو في منهاج الله قرآناً وسنة فقط، وليعود كل إنسان هناك يبحث فيه عن الحق الذي نُذكِّر به أنفسنا ونذكِّر به الناس أجمعين.

٦ ـ سنة الله في اختلاف الناس :

وقد جعل الله من سنة الابتلاء ما يدور من اختلاف بين الأفراد وبين الأُمم والشعوب والقبائل. وجعل الله الاختلاف سنّة في هذه الحياة الدنيا، ولو شاء الله لقضى بخلاف ذلك، وجعل سنّة أُخرى ونظاماً آخر، ولكن سبقت كلمته ومضت مشيئته.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (هود : ١١٨، ١١٩)

نعم! لو شاء الله لجعل الناس كلهم أُمة واحدة لا يختلفون. ولكن سبقت كلمته ومضت مشيئته وجعل للكون كله نظاماً وسنناً وقوانين. وجعل حياة الإنسان في هذا النظام على الأرض مرتبطة فيه على سنن لها ماضية في الحياة، تتناسق كلها وتترابط لتحقِّق مشيئة الله.

٧ ـ نتيجة المسئولية والحساب :

نعود بعد هذا الاستطراد السريع لنذكر أنفسنا بالقضية التي نعرضها في هذا الفصل، ألا وهي قضيَّة مسئولية الإنسان المخلوق، مسئوليته عن نيته وكلمته، ورأيه وموقفه، وعمله، في هذه الحياة الدنيا، مسئولية سيحاسب عليها في الدار الآخرة، حيث ينتهي الحساب بالناس إلى فريقين: فريق في الجنّة وفريق في السعير:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(هود : ١٠٠ ـ ١٠٨)

آيات بيّنات تعرض طرفاً من سنن الله في هذا الكون الهائل الممتد. آيات بيّنات لا يجوز للإنسان أن يقف أمامها إلا موقف المتأمل المتدبِّر، ليتعلَّم ويعي ويخبت ويخشع. لا يحق لأحد أن يقف موقف المحاسب ليسأل: لِمَ؟! وماذا؟!

٨ ـ سنن دائرة الحياة الدنيا مفتوحة للانسان :

حين نعرض المرحلة الثالثة من حياة الإنسان، نعرض سنناً نتعرف عليها من خلال تأملنا وتدبّرنا، ومن خلال أبحاثنا وسعينا ودراساتنا، وكذلك من خلال الوحي المتنزِّل على الأنبياء والرسل الذين خُتِمُوا بمحمد ﷺ. نقف مع سنن المرحلة الثالثة، ولنا ميدان جعله الله ميدان ابتلاء وتمحيص، لنبحث عن سنن الله في هذه الحياة الدنيا، وليكون هذا البحث عبادة لله وطاعة، وجزءاً من الأمانة التي حملها الإنسان، وجزءاً من الخلافة التي أُنيطت به. وجعل الله الكون كله برحمته مفتوحاً للإنسان لينطلق في مسئوليات هذه العبادة والأمانة والخلافة، ابتلاء منه سبحانه وتعالى للإنسان وتمحيصاً له:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ (لقمان : ٢٠)

إذن نستطيع أن نتعرف على بعض سنن هذه الدائرة أو المرحلة من حياة الإنسان في هذا الكون، من خلال جهد بشريٍّ نبذله، نستخدم فيه ما أودع الله فينا من طاقات، كالعقل والسمع والبصر وغير ذلك. ولكن هذه المعرفة تظل تتميّز بخصائص أهمها:

١ ـ إننا نعرف بعض سنن الله فقط. وكلما اكتشف الإنسان سنّة واحدة تفتحت

أمـامـه أبواب سنن أُخرى. فحين يكون أمامه مجهول واحد مثلاً يبحث عنه، ثم يكتشف هذا المجهـول، فإنـه يكتشف عنـدئـذٍ وجـود مجهـولات جديدة أُخرى. ويمضي جهد الإنسان على هذا النحو، لا تزيد الاكتشافات والمعارف إلا اتساع دائرة الجهل واتساع عالم المجهول.

٢ ـ إن الإنسان مبتلى في بحثه وعلمه هذا ودراسته. فهو إما أن يدرك أن هذه السنن التي يكتشفها هي سنن ربانية فتزيده إيماناً بالله الواحد، وتزيده خشوعاً له، وإما أن يأخذه الكبر والغرور، ويزيِّن له الشيطان هوى مُضِلاً في نفسه، فينحرف عن نهج الإيمان، أو يخرج من دائرته، ويتيه في شرك وكفر.

٣ ـ إنَّ ما يصل إليه الإنسان يظلّ ثمرة جهد بشريّ، فهو يحمل خصائص الجهد البشريّ. فهو معرَّض للخطأ والنقص. فإما أن تُلغى النظريَّة التي يصل إليها لثبوت خطأها لديه، أو أن يُعدّلها أو أن يضيف إليها. وبذلك يحمل الجهد البشريُّ صفة النمو والتطور، لأنه لا يمثِّل الحق المطلق الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٩ ـ ترابط سنن الله في جميع المجالات في الكون على حكمة ربانية غالبة :

وهنا لابُدَّ لنا من أن ندرك أن هذه السنن لا تمثِّل شيئاً معزولاً عن الكون، عن ماضيه البعيد، ولا عن مستقبله كذلـك. إنها مرتبـطة بالكـون، بسننه، بامتداده وأحداثه. ومع مضـيّ الأبحاث في الحياة الدنيا تتكشف لنا هذه العلاقة.

وإذا حصرنـا دراستنـا في حياة الإنسان ذاته، فإننا نجد ملامح هذا الارتباط. فإنسان المرحلة الثالثة مرتبط بإنسان المرحلة الثانية، بالإنسان الذي ينمو ويعيش على قوانين وسنن تختلف في بعضها عن سنن المرحلة الثالثة. لقد نما الإنسان من نطفة حتى أصبح جنيناً فخرج طفلاً. كان غذاؤه ونفسه وحياته تختلف عما آل إليه بعد الولادة.

وإنسان المرحلة الثانية مرتبط بإنسان المرحلة الأُولى، مرحلة عالم الغيب الذي لا تصله أبحاثنا ودراساتنا. ولكننا نلمس هذا الارتباط بامتداد الأجيال في تاريخ ماض بعيد. وحين ندرك أن هذا الغيب أبعد بكثير من متناول أبحاثنا وتجاربنا، فلا يبقى

لنا مصدر نستقي المعلومات عنه إلا من الوحي وإلا من عند الله .

وإنسان المرحلة الثالثة مرتبط بإنسان المرحلة الرابعة، مرحلة ما بعد الموت بكل تفاصيلها . وترتبط المرحلتان معاً بسنة الموت التي قضاها الله سبحانه وتعالى . وتظل المرحلة الرابعة هذه بعيدة عن متناول أبحاث الإنسان ودراساته . فليس لنا من مصدر عنها أبداً إلا الوحي المتنزّل من عند الله .

إن كل إمكانات الإنسان من سمع وبصر وفؤاد، ووسائل وعلوم وأبحاث، لا تستطيع أن تخترق حجاب الموت فتعرف ما بعده . ولقد مرّت الأجيال والعصور الطويلة لتؤكد للإنسان أنَّ ما بعد الموت غيب عليه، لا تصله أبحاثه، بالرغم من أنَّ الموت يربط الإنسان في مرحلتيه . وأمام هذه الحقيقة لا يبقى إلا أن نعترف أن هذا الغيب لا نعرفه إلا من عند الله وحده .

١٠ ـ سنة الله في الموت في الحياة الدنيا :

والموت سنّة في الحياة الدنيا، لا تقف عند الإنسان فقط . فهي ممتدة إلى الحيوان والنبات والزروع . ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى في سور كثيرة، ليبيّن فيه وضوح البعث وجلاءه كذلك :

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

(الحديد : ١٧)

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾

(الروم : ١٩)

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(الروم : ٢٤)

وهكذا ترتبط الحياة الدنيا في هذا الكون بحياة أُخرى يربط بينهما الموت . وتمتدُّ هذه السنّةُ الربانية إلى النبات والزرع لتكون آية للإنسان يشاهدها بعينه، ويتابعها بدراساته وأبحاثه في علم يتسع مع الأيام ويمتد، وينمو ويتطور، ويظل يبحث في النبتة كيف تموت، ثم كيف يحييها الله بعد موتها .

وسنة الموت، على رهبتها وجلالها، يكون بعدها حياة ممتدَّة للشهداء الذين يقتلون في سبيل الله:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

(آل عمران: ١٦٩، ١٧٠)

إنها حقائق من علم الغيب! أنى للإنسان أن يبلغها بأبحاثه وعلومه، ومختبراته وأجهزته. إنها من علم الغيب، وليس أمام الإنسان مصدر يتلقىّ معلومات عنها إلا من الوحي المتنزِّل من عند الله.

نخلص من ذلك أن حياة الإنسان بدوائرها الأربع أو مراحلها الأربع، مترابطة بينها ترابطاً قوياً، ومترابطة مع سنن الكون. ولكل دائرة أو مرحلة سننها وقوانينها. وقد يكون هنالك درجة من التشابه بين بعض السنن في هذه الدائرة وتلك، ولكنّ هذا التشابه يحمل معه في الوقت نفسه أوجه اختلاف واسعة. ويمكن أن نلاحظ توافر بعض التشابه وبعض الاختلاف، حين ندرس حياة الإنسان في الرحم، ثمَّ حياته بعد الولادة، لندرك من مثل هذه الدراسة والمقارنة ارتباط المرحلتين، وامتداد حياة الإنسان لا انقطاعها. وأن هذه الحالة تمثل لنا آية وعبرة، تشير إلى امتداد حياة الإنسان منذ أن خلقه الله في الجنة إلى أن يعود إليها، أو إلى النار.

ويشير القرآن الكريم إلى هذا الارتباط والامتداد في أكثر من سورة:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

(البقرة: ٢٨)

وكذلك:

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾.

(غافر: ١١)

هكذا ترتبط حياة الإنسان في مراحل بين موت وحياة. ترتبط ارتباط امتداد وغاية ومسئولية وحساب، وثواب وعقاب.

ولكل حلقة، أو دائرة، أو مرحلة سننها الخاصة بها، سننها التي تعمل فيها لتحقيق مسيرتها وأهدافها، ولتنقلها إلى مرحلتها التالية لتجد سنناً جديدة قضاها الله ومضت بها مشيئته، سنناً ممتدة مرتبطة مع ما قبلها ومع ما بعدها، كما بينا قبل قليل. ومهما كان بينها من ارتباط وتشابه. فإن الاختلاف أساسيّ كذلك.

إن مرحلة الحياة الدنيا من حياة الإنسان مرحلة يمكن للإنسان نفسه أن يمارس نشاطه فيها على قدر إمكاناته، من خلال سمعه وبصره وفؤاده، وسائر قواه، من خلال عقله.

١١ ـ مهمة عقل الانسان ودوره:

العقل، عقل الإنسان، ونعني به تلك القوة التي وهبها الله للإنسان، ليفكر بها ويتأمل ويتدبَّر، وليضبط بها عاطفته وجموحها، وليدرك بها رسالة الله ودينه، وليعي مسئولياته وواجباته التي كلفه الله بها، ويفكر في سبيل أداء الأمانة والتكاليف التي خُلِقَ لها، ثم بعد ذلك يصيب ويخطىء.

ليس للعقل مهمة في عالم الغيب. ولا يستطيع عقل الإنسان أن يكتشف وحده عالم الغيب، فيعرف وصف الجنّة وتفاصيلها. ولكنَّ الغيب يعرفه الإنسان عن طريق الوحي، الذي يتنزَّل على الأنبياء والمرسلين ليبلغوه إلى الناس. وجعل الله للإنسان فطرة تستطيع أن تستقبل هذه الرسالة، وعقلاً يستطيع أن يدرك معناها وغايتها، وجعل الله محور هذه القدرات كلها الإيمان والتوحيد اللذين جعلهما الله فطرة فطر الناس عليها، حتى يكون الإيمان مفتوحاً للناس جميعهم باختلاف أجناسهم، ووسعهم، وألوانهم وطاقاتهم وغير ذلك، كما شرحنا سابقاً.

مهمّة عقل الإنسان أن يتأدب بين يدي الله، تأدب إيمان وخشية وتوحيد، فلا يسأل الله ما لا حق له بسؤاله.

مهمة عقل الإنسان أن يدرك أن الإنسان مخلوق وليس خالقاً. والمخلوق هو الذي يحاسَب على عمله ونيته وسلوكه. وأما الخالق فلا يُسْأل عما يفعل، ولا يحاسَب عما يفعل. إنه الخالق. ومهمَّة عقل الإنسان أن يدرك معنى الخالق، ومعنى المخلوق، وأن يعرف حدوده فيقف عندها ويعقل، ولا يتجاوزها! يُضاف إلى ذلك أن عقول

الناس تختلف في قدراتها من إنسان لإنسان، ولكنها مهما اختلفت فإن علتْ فلها حدٌّ من القدرة لا تتجاوزه، وإن هبطتْ فلها حد لا تنزل عنه، حتى يظل الإنسان في نطاق التكليف والمسئولية.

ومما يساعد قوّة التفكُّر، العَقْل، على حسن الأداء ومعرفة الحدود والواجبات، سلامةُ الفطرة ونقاؤُها واستقامتها على النحو الذي خلقها الله عليه. وبمعنى آخر فإن صدق الإيمان والتوحيد، وصفاءَهما، يساعدان العقل على أداء مهمته الحقيقية الصادقة. فيصبح العقل بصفاء الإيمان والتوحيد أقدر على التأمل والتدبر، وعلى ضبط عواطفه وشُعوره، وعلى فهم رسالة الله ودينه، وعلى معرفة مسئولياته وواجباته فلا يتعدَّاها، وعلى التفكير في أحسن الطرق لأداء واجباته وتكاليفه، ليتقن ذلك طاعة لله وعباده.

ومما يعطل قوّة التفكير لدى الإنسان، أي العقل، الشهواتُ والغرائزُ والميولُ، حين تهيج وتثور، فتفلت من قوة التحكم، ومن قدرة العقل على ضبطها، فيرتكب الإنسان آثاماً ومعاصي، تزيد من فوران الشهوات، وتزيد من ضعف سيطرة قوة التحكم، فيزيد انفلات الشهوات وتزيد الآثام، ويزيد الران على القلب، وتضعف قدرة العقل وقوة التفكير. ويمكن أن يزداد الضعف ويزداد التفلّت حتى تفسد الفطرة بعمل الإنسان نفسه، وبما كسبته يداه، ويزداد فساد الفطرة حتى يتشوّه التفكير، وتفسد قوة العقل، ويضطرب الإيمان، ويضمر وينحسر، حتى يقع الإنسان في الشرك أو الكفر.

ونجد وضوح هذه الصورة في كتاب الله كما عرضنا ذلك في فصل سابق.

وهكذا ترتبط مسئولية الإنسان بإيمانه الذي فُطر عليه، بإيمانه الذي هيأ الله له كل سبل الحماية والرعاية، حتى يظل قوياً عاملاً في حياة الإنسان، يرعى طاقاته كلها: عقله وتفكيره، عواطفه وشعوره، معدنه وخلقه. فلا عجب إذن إذا كانت أعمال الكافر والمشرك، مهما بدت لنا حسنة أو طيبة، فإنها عند الله مرفوضة، إذا مات الإنسان على الكفر والشرك ولم يتب:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾
(النساء: ١١٦)

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ (الفرقان : ٢٣)

ولقد ظلت هذه القضية، قضية مسئولية الإنسان وعلاقتها بالقضاء والقدر موضع جدل بين عدد غير قليل من العلماء. ولكن هذا الجدل لم يكن له دور بين الصحابة رضي الله عنهم في حياة الرسول ﷺ، ولا في حياة الخلفاء الراشدين. وإن حدث شيء من التساؤل فكان ينتهي عند توجيه النبوة القائدة، لا يخرج عنها أبداً، فتطمئن النفوس والقلوب.

ومع انتشار الفكر اليوناني في المجتمع الإسلامي أفلتت بعض العقول من ضوابطها الإيمانية، أفلتت في متاهات واسعة مظلمة، تضرب فيها يميناً وشمالاً على غير هدى. وثارت مثل هذه التساؤلات لتتجمع حولها مذاهب فكرية ومدارس متباينة كالمرجئة والمعتزلة والقدرية والجهمية وغيرها. ولسنا في صدد دراسة هذه المذاهب والمدارس والردّ عليها بالتفصيل. ولكننا في صدد عرض ما نفهمه من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، عرضاً يتناسق مع قواعد الإيمان والتوحيد، وينهض على قواعد منهاج الله آيات وأحاديث. ونعتبر أن هذا العرض هو أوفى ردٍّ على هذه المذاهب الفلسفية كلها. وأيُّ حجة أقوى من حجة الله على عباده، ومن قرآنه وبيانه؟!

من أجل ذلك بيّنا في الصفحات السابقة دور العقل البشريّ في هذه الميادين. وبيّنا أنْ ليس من مهمَّته استجلاء الغيب، ولا تقصي ما بعد الموت. ولقد مضت حياة الإنسان حتى اليوم تؤكد في الواقع هذه الحقيقة، حيث ظل الغيب غيباً في حياة البشرية كلها، مهما تقدّم العلم وتطورت الأبحاث. ولم يتوافر للإنسان مصدر يقدم معلومات عن الغيب إلا الأنبياء والرسل والكتب السماوية، لتحمل من نبأ الوحي من عند الله، فتبلغه للناس.

ونرى أن أهم أسباب الانحراف في فهم مسئولية الإنسان والقضاء والقدر تقع في قضيَّتين هامَّتين، دون أن ننكر توافر أسباب أُخرى ساعدت على دفع الانحراف، أو تفاعلت مع هاتين القضيَّتين اللتين سنذكرهما. لا ننكر أثر الفكر اليوناني، ولا ننكر ما قد يصيب بعض القلوب من ضعف في الإيمان، فيضطرب التصوُّر في مثل هذه القضية.

إن القضية الأُولى تجمع الأسباب التي تدفع الإنسان ليُدخل عقله في أُمور خارج قدرته، فيتجاوز حدوده وإمكاناته التي وهبها الله له والتى حددها الله له. إنه نوع من الكـبر والغرور يشتد في بعض الناس حتى يجعل من العقل إلهاً، أو آلهة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ألم يأت هيجل في أوروبا بنظرية «**العقل المطلق**»؟! وآخرون كثيرون حاولوا تفخيم دور العقل ومهمته؟ ولكننا نستطيع بواسطة «**العقل**» نفسه أن نردَّ على هؤلاء جميعهم لنقرر أنَّ العقل وحده، وجهود الإنسان كلها، ومختبراته ومعامله لا تستطيع أن تجلو الغيب لنا أبداً. وقد يسأل سائل: وما هُوَ الغَيب؟! فنقول تيسيراً للبحث: إن الغيب هو ما حجبه الله عن قـدرة الإنسان، وأطلعه الله على بعض منه بالوحي: ماذا تكسـب كـل نفـسٍ غـداً؟ ما تحمـل كـلُّ أُنثى قبل تكون الجنين؟ متى وأين يموت كل إنسان؟ متى ستقوم الساعة؟ ما هي الروح؟ ماذا بعد الموت؟ ماذا كان قبل خلق الإنسان في الكون؟ ماذا سيحدث ومتى وأين يقع الحدث قبل تجمع عناصره وقبل وضوحها للإنسان؟ لقد أثبت الواقع الطويل أن الإنسان عاجز عن كشف حقيقة مثل هذه الأُمور بعقله وبجهده. إن دور العقل يبدأ حين تتجمع العناصر المادية لهذا الشيء أو ذاك، أو هذا الحدث أو ذاك، تجمّعاً يجعلها تحت سيطرة قوى الإنسان المحدودة، ووسائله المحدودة، وعلمه المحدود، بفضل من الله ورحمة منـه، وبقدر كذلك منه. ولنأخذ الجنين في الرحم مثلاً، فقبل أن تتكون العناصر المـادية للجنين في الرحم، تجمعاً يخضع لقدرات استكشاف الإنسان لها، بوسائله المادية التي تتوافر لديه اليوم أو غداً، قبل أن تتوافر هذه العناصر المادية فإن القضية هي من قضايا الغيب الذي لا يعلمها إلا الله. فإذا تجمعت العناصر المادية أصبح من الممكن للإنسان أن يستكشفها اليوم أو غداً. لقد جعل الله سبحانه وتعالى الكون الماديّ كلَّه مفتوحاً للإنسان ليجول في آفاقه فيستكشف ما يستطيع، وتنمو اكتشافاته مع نمو جهوده. ولقد سبق أن أوردنا الآية الكريمة حول ذلك:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ (لقمان: ٢٠)

فالقضية الأُولى إذن، هي أن نعرف حدودَ العقل البشريِّ على اختلاف مستوياته،

وأن نعرف الحدود التي لا حقَّ له بتجاوزها، والميادين الواسعة التي فتحها الله له. ونستطيع أن نعرف ذلك من الوحي المتنزِّل من عند الله، وكذلك من تجربة الإنسان الطويلة على الأرض، التجربة التي تكشف له بيسر حدوده الحقيقية. ولا يخرج الإنسان عن هذه الحدود إلا بدافع من الكبر والغرور، واضطراب الفطرة التي فطره الله عليها، واضطراب الميزان لذلك بين يديه.

أما القضيّة الثانية فهي التناقض والاضطراب الذي يقع فيه الإنسان، حين يريد أن يدرس مرحلة من مراحل حياة الإنسان، أو دائرة من دوائرها، مما ذكرناه سابقاً، على أساس من سُنن مرحلة أُخرى. ونقصد بذلك أن الإنسان يريد أحياناً، وأحياناً كثيرة، أن يتصوّر ويفهم ويدرس مرحلة ما بعد الموت، مرحلة البعث، أُمور الغيب كلها على أساس من سُنن الحياة الدنيا. إنه يتوهم أن سنن الحياة الدنيا تظل ماضية كما هي بعد الموت والبعث والحساب. وأنّى لها ذلك؟!

١٢ ـ نبأ الغيب مصدره وأسس فهمه:

عندما نتلو آية من كتاب الله، أو نقرأُ حديثاً من أحاديث الرسول ﷺ، يكون فيهما شيء من نبأ الغيب، فإننا نود أن نتصوَّر ذلك في حدود قدراتنا العقلية، وحدود خبرتنا المادية، وحدود السنن التي ألفناها في الحياة الدنيا، فنقع بسبب ذلك في تناقض عجيب، ونغيب في ضلالة واسعة.

عندما نسمع قوله سبحانه وتعالى: «**على العرش استوى**»، يريد بعض الناس أن يخضع كل لفظة هنا إلى زاده الماديّ البشريّ من خبرة وعلم، وإلى سنن هذه الدنيا. يريد أن يفهم كلمة «استوى» بحدودها التي تُطبّق بها في الحياة الدنيا، ويريد أن يفهم «**العرش**» بتلك الحدود، وينسى أو يغيب عن قلبه أحاديث الرسول ﷺ والآيات الكريمة التي تصف العرش والكرسي والسموات والأرض، مما يبدو واضحاً معها أن ذلك كله لا يخضع لتصوّراتنا المحدودة، ولا لسنن هذه الحياة الدنيا وما ألفناه منها.

وعندما يَقرأ في كتاب الله وصفَ الجنّة يَأخذ كُلَّ لفظة بحدود معناها الدنيوي، وكأن «**الأنهار**» و«**الفاكهة**»، و«**اللبن والعَسَل**»، و«**الثياب**» وكلَّ ذلك كأنه هو عينه الذي يعرفه في الدنيا، فيحكم عليه في نطاق ذلك وعلى أساسه. والحقيقة أن ثمارها

تحمل شبهاً بينها وبين تلك التي في الدنيا، ولكنها تختلف في جوهرها وحقيقتها:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (البقرة : ٢٥)

إن الله سبحانه وتعالى وصف لنا من علم الغيب ما شاء بألفاظ هو اختارها على علم وحكمة منه سبحانه وتعالى، ليقرِّبَ الوصف إلى قلوبنا وعقولنا بلغتنا التي يسَّرَها الله لنا، وهو أعلم سبحانه وتعالى بما يصف ويختار. ولكنّ الله سبحانه وتعالى علّمنا كذلك أن للغيب سنناً أُخرى غير سنن الدنيا، وأنَّ لما بعد الموت سننه التي تختلف عن سنن الدنيا، فكيف نرى الآخرة إذن بمنطق سنن الدنيا، وتخضع أحداثها ووصفها إلى تصوراتنا الدنيوية، ومقاييسنا الدنيوية، وموازيننا الدنيوية؟!

من أين لنـا أن نعلم نبأ الغيب، إذا كان الغيبُ بعيداً عن متناولنا، بعيداً عن دراساتنا وأبحاثنا وتجاربنا، بعيداً عن تقديرنا وسنن حياتنا الدنيا؟! ويصوّر لنا القرآن الكريم هذا البعد بين الغيب والمشهد:

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ (سبأ : ٥٢، ٥٣)

ولا نملك أن ننكر الغيب، فهذا ظلم واضح وجهل فاضح! ذلك لأنَّ حياتنا الدنيا تشير إلى وجود هذا الغيب الذي مضى والغيب الذي هو آت. فالإنسان موجود على الأرض، فلوجـوده إذن أصل! وأصل وجود الإنسان نأى عن متناولنا، وغاب عن تقديراتنا، ووضح للإنسان نفسه أنَّ ما فرضه لأصل وجود الإنسان، لم يكن أكثر من ظنٍّ وتخمين، لا ينهض إلى مستوى العلم والحقيقة واليقين. وكذلك لوجود الإنسان مصير لا نستطيع إنكاره. وإنكاره لا يزيد عن وهْمٍ وظنٍّ وتخمين، فلابد من أن يأتينا نبأُ الغيب مِنْ ربِّ الغيب والمشهد، رب كل شيء! وفي كتاب الله وسنة نبيه علم ويقين عن بعض أنبـاء الغيب، يعلِّمنا الله ما شاء كما يشاء، بالقدر الذي يعلم سبحانه وتعالى أنه الأصلح والخير للإنسان. ويعلمنا الله من نبأ الغيب بمقدار ما جعل الله في فطرة الإنسان السليم قدرة على تلقّيه واستقباله ووعيه، متناسقاً مترابطاً مع ما غرس

الله في الفطرة من إيمان وتوحيد، ووسع وقدرات.

الحق الذي تقبله الفطرة السليمة، والعقل السليم، والإنصاف والعدل، والعلم والتدبُّر، هو أن نأخذ الغيب ونبأه عن ربِّ الغيب، ربِّ المشهد، ربِّ كلِّ شيء، القادر على كل شيء، والذي يعلم كلَّ شيء، إنه علّام الغيوب. ولنستمع إلى آيات من كتاب الله تعرض قبسات لنا، نجد فيها صورة لبعض سنن الغيب.

فمع لحظات الموت:

﴿ . . . وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

(الأنعام : ٩٣)

فالملائكة خلق آخر غير خلق الإنسان، لا يمكن أن نعرف عنه إلا ما علَّمنا الله رب الخلائق كلها، ربُّ العالمين. «وأيديهم» تعبير ربّاني، لا يقتضي أن تكون هذه الأيدي مثل أيدينا. وخروج الأنفس والروح، والعذاب، كل ذلك ألفاظ وضعها الله سبحانه وتعالى ليَقرِّب إلى أذهاننا هذا المشهد من نبأ الغيب. فليس إذن من حقِّنا أبداً أن ندخل في تفاصيل الأيدي، والأرواح وخروجها، والملائكة وما شابه ذلك! وإذا فعلنا فإننا سنعمل عندئذ بالظنّ والوهم والتخمين، وقد نقع في خطأ مؤذٍ، وتشويه لحقيقة الصورة التي تعرضها الآية الكريمة. ومشهد آخر:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

(الواقعة : ٨٣ ـ ٨٧)

مشهد التحدِّي الحاسم للإنسان. فهذا المشهد من نبأ الغيب، لحظة خروج الروح، حالة لا يعلم عنها الإنسان مع أنها أمامه وبقربه غير بعيدة عنه. يرى ولكنه لا يبصر إلا ما يمتُّ للحياة الدنيا. وأما قضية خروج الروح فخارجة عن سلطانه، بعيدة عن تناوله. ولو كانت ضمْن ما سخّر الله للإنسان فليرجع الروحَ إن استطاع. إنه لا يستطيع أبداً. ولكنه هو نفسه، الإنسان المشاهد مدين سيمرّ بهذه اللحظة نفسِها، وسيخضع لها عاجزاً مستسلمًا!

وتمضـي آيات كثيرة تعرض مشاهد الموت، وأحاديث كثيرة كذلك، كلها تتحدث عن نبأ الغيب البعيد عن قدرتنا وسيطرتنا وعلمنا. ولكنَّ عقولنا تعي الحقيقة المقرَّرة، بسهـولة ويسر، دون جدل ومراء، إذا التزمت العقولُ حدودَ قدرتها وطاقتها، وإذا بقيت الفـطرةُ على صفائها وسلامتها، دون أن تلوثها الفواحش والمظالم، ودون أن تحرفها المعاصـي والآثام، ودون أن يغشاها الران.

١٣ ـ مشاهد خلق الكون ومشاهد الساعة في نبأ الغيب :

ومع مشاهد الكون، مشهد نشأته وخلقه:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ (فصّلت : ٩ ـ ١٣)

مهما فكَّر الإنسان وبحث وسعى، فلن يصل بجهده إلى هذا العلم. إن هذا الذي تعرضه الآيات هو العلم الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. إنه العلم الذي لا ظنّ معه ولا وهم. وليفكر الإنسان، وليتأمل: كيف يمكن له أن يبلغ هذا العلم؟! سيجـد بيسر أن هذا هو خارج قدرات عقله وبحثـه. إنـه من علم الغيب. شأنه شأن الموت وخروج الروح وما بعد الموت. وسيجد أن المصدر الحقيقي لهذا العلم هو فقط ممن يعلم كل شيء، علام الغيوب، الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهـادة هو الـرحمن الـرحيم. وكيف يجرؤ الإنسـان الـذي يعرف قدراته وحدوده، ويحترم نفسه وعقله أن يناقش: كيف كانت السماء دخاناً؟ كيف قال الله للسماء وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً؟! إننا نأخذ هذا العلم آيات بينات تكشف لنا قدرة الله سبحانه وتعالى، وتزيد في نفوسنا إيماننا، وحبَّنا لله، وخشيتنا منه، ورجاءنا فيه، وتـوكلنا عليه، وولاءَنا الخالص الصافي له. إن هذه الآيات الكريمة وأمثالها تُذكِّرنا بعظمة العهد الذي أخذه الله من بني آدم، من ذريتهم جميعهم، فرداً فرداً.

وتمضي الآيات الكريمة تعرض مشاهد نشأة الكون كله، ونشأة الإنسان، مما لا مجال لعرضه هنا، إلا بمقدار ما يسمح البحث من عرض قبسات تبيِّن ما نهدف إليه.

ومشهد آخر من مشاهد الكون، مشهد القيامة، مشهد البعث:

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾

(التكوير: ١ - ١٤)

كُلُّ القوانين والسنن التي نعرفها في الحياة الدنيا تغيّرت، والكون كله تغيّر! لم يتغير بشكله وهيئته فحسب، وإنما تغيّر بنظامه وسننه وقوانينه. وإذا أردنا أن نفهم هذه الآيات الكريمة على أساس من قوانين الدنيا، فإننا نجد عندئذ صعوبات واضطرابات في فهمها وتصورها. كيف تكشف السماء؟! كيف تسجَّر البحار؟! كيف تسيَّرُ الجبال؟! نظام ربّاني جديد يعمل هنا، وأحداث جديدة، وكون جديد ينشأ من الكون السابق نفسه!

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾

(إبراهيم: ٤٧، ٤٨)

إذن تتبدَّل الأرضُ والسموات، فلا تبقى الأرض على حالها التي كنا نعرفها. تتسع الأرض يومئذ للخليقة كلها منذ آدم حتى قيام الساعة. تصبح الأرض على حالة جديدة!

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾.

(الكهف: ٤٧ - ٤٩)

نظام كونّي جديد، وقوانين جديدة، وسنن جديدة تعمل. عندما نتلو هذه الآيات الكريمة، ربما يتخيل بعضهم كلمة الكتاب أنه الكتاب الذي نستخدمه في الحياة

الدنيا. وهذا تصور مضطرب ينبع من قدراتنا المحدودة. ولكن التأمل والتدبُّر يعرض أمامنا نظاماً كونياً آخر غير الذي نعرفه في حياتنا الدنيا.

ومشهد كونيّ آخر يزيد النظام الكوني يومئذ عرضاً وتفصيلاً:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (الزمر: ٦٨ - ٧٠)

كُلُّ جهود البشر وكل وسائلها على امتداد العصور لا تستطيع أن تبلغ هذا العلم، ولا تستطيع عقول البشر كلها أن تصوغ هذا العلم وتنسقه حتى لا يتعارض أوله وآخره. إن أقصى ما يمكن أن تفعله عقول البشر هو أن تتعاون مع الفطرة السليمة لتستقبل هذا العلم فتدركه وتعيه، ثم تصدِّقه وتؤمن به. وليظل بعد ذلك زاداً للإنسان في رحلة عمره يعرض آيات بينات، فيثبِّت القلوب على إيمان وتوحيد، ومعاناة ومجاهدة على الاستقامة والصدق، للقيام بواجبات الأمانة والعبادة والخلافة والعمارة في درب الابتلاء الذي سنّه الله على خلقه في هذه الحياة الدنيا. إن كل جهود البشر ووسائلها وعقولها لا تستطيع أن تجمع هذا العلم من أبحاث ومعامل وتجارب ودراسات، حتى لو جاب الفضاء كله، ولكنّ الوحي من عند الله هو وحده الذي يستطيع أن ينقل إلينا عن علاّم الغيوب، رب السموات والأرض، هذا العلم المترابط المتناسق آيات بينات تقف أمامها القلوب في خشية وإنابة وخشوع، وطوبي للمؤمنين الصادقين الناجين.

كيف نعرف «**حقيقة الصُّور**»، وهَوْل «**النَّفْخ**» فيه، «**والصعق**»، «**والقيام**»، «**والكتاب**»، «**وإشراق الأرض بنور ربِّها**»، «**وقضاء الله بين الأنبياء والشهداء**»، قضاء لا ظلم معه أبداً. هذه كلُّها حق ويقين، وليست خيالاً يتطاير صورة من هنا وصورة من هناك. إنها الحق الذي يمضي إليه الكون. وهذه كلها يومئذ تخضع لسنن وقوانين جديدة غير ما نعهده في حياتنا الدنيا. فنقف مع كل كلمة أو تعبير من علم الغيب لنتدبَّر جلال الغيب، ولنستشعر آيات الله، دون أن ندخل في تفصيلات لم

يعـرضهـا القرآن ولا السنة، ولا نماري، ولا نجادل، ولا نتوهم، ولا نؤول تأويلاً يخرجنا عن حدود الإيمان واللغة، أو يدخلنا في متاهات لا تستطيع عقولنا أن تدرك كنهها.

ويمضـي منهاج الله يعرض نبأ الغيب، مما كان سابقاً، ومما هو قادم لاحقاً، مما لا نستطيع بلوغه بأنفسنا وأبحاثنا. ويعرض منهاج الله وصف الجنّة والنار ووصف النّعيم والجحيم، ووصف حياة المؤمنين السعداء في الجنّة، ووصف الكافرين الأشقياء في النار. ويبرز من خلال ذلك الوصف كله أن الدار الآخرة لها سننها الخاصة بها ونظامها الكوني الخاص، مما يختلف عن سنن الحياة الدنيا:

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

(الأنبياء : ١٠٣، ١٠٤)

عن ابن عمر رضـي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثمَّ يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض» (رواه الشيخان)[١]

وعن المقـداد بن الأسـود رضـي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدْنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً وأشار رسول الله ﷺ إلى فيه» (رواه مسلم)[٢]

ويمضـي الـوصف في الكتـاب والسنّـة للحسـاب يوم القيامـة، وللميزان، وللصراط، والحوض وشرابه، والكوثر، والشفاعة، وأهل الجنة وأهل النار، والجنة وخدمها، وحصبائها وترابها، وأبوابها ودرجاتها، وأنهارها وعيونها، وغرفها، وأشجارها وفاكهتها، وخيامها وأسواقها، وزرعها وخيلها، وأهلها ونسائها، وأول من يدخلها، والذين يدخلونها بغير حساب، وكشف الحجاب عن أهل الجنة حتى يروا ربَّهم جلّ

(١) صحيح البخاري: كتاب الرقاق (٨١). باب (٤٤). صحيح مسلم: كتاب (٥٠). صفة القيامة والجنة والنار. حديث (٢٣/ ٢٧٨٧).

(٢) صحيح مسلم: كتاب (٥١). باب (١٥). حديث (٦٢/ ٢٨٦٤).

شأنه كما يرون القمر لا يُضامون برؤيته، وإحلال الله سبحانه وتعالى رضوانه على أهل الجنة. وكذلك وصف النار وأبوابها، وصفة أهل النار وشرابهم وطعامهم، وأهوال عذابهم، واستغاثتهم، وأهون أهل النار عذاباً، وإخراج بعض أهل النار وإدخالهم الجنة، إلى غير ذلك من نبأ الغيب مما لا نستطيع أن نعرضه هنا.

هذا الوصف كله في الكتاب والسنّة علم حقٌّ، لا ظنَّ معه ولا تخمين. ذلك لأنه أبعد عن الإنسان من كل ظن، وأبعد من كل وهم، وأبعد من كل خيال، فأنى للإنسان، أي إنسان أن يبلغ هذا العلم بجهده وخياله وظنه. ؟!

وهذا العلم يعرض نظاماً كونياً متناسقاً متماسكاً، له سننه وقوانينه. فهو أبعد بذلك عن الظنِّ والوهم، لأنّ الظن قد يُصيب ويُخطىء فيأتي على صورة مضطربة متضاربة. وهذا حقٌّ متناسق مترابط.

وهذا العلم عن الغيب مرتبط بالمشهد في الحياة الدنيا، هو المآل والمصير، وهو الحياة الحقيقية الخالدة إذن. فلابُدّ للحياة الدنيا من نتيجة ومآل ومصير، هو هذا المصير الذي يعرضه القرآن الكريم آيات بيّنات.

فلا مصدر إذن لهذا العلم إلا من علام الغيوب، ربِّ كل شيء، عالم كل شيء.

والله الذي خلقنا، وخلق كلَّ شيء، وهبنا القدرة في فطرتنا وفي عقولنا، وفي سائر طاقاتنا، على أن نستوعب مايبلغنا من نبأ الغيب، وهبنا القدرة على استقبال النبأ واستيعابه والإيمان به. ولكن هذه القدرة قد تضطرب أو تتعطل أو تتوقف بسبب ما يكسبه الإنسان من آثام ومعاصٍ، ومظالم وعدوان، وفساد وشرور. هذه كلها تضع الران على قلب الإنسان، تضع الغشاوة على بصره، تضع في أذنه وقراً، حتى لا يعيَ ولا يبصر ولا يسمع. تتعطل هذه القوى بما كسبت أيدي الناس، تتعطل على سنن ربّانية عادلة حكيمة، لا تظلم ولا تخطىء. ويظل العمل الصالح في الحياة الدنيا يجلو هذه الطاقات ويقويها، ويدفع عنها الران والغشاوة والوقر، ويظل الإيمان نوراً يغسل فطرة الإنسان وقلبه وبصره وسمعه، فيستقبل ويعي ويؤمن ويصدِّق.

١٤ ـ الفطرة السليمة النقية تستقبل حقائق الغيب :

ويستقبل الإنسانُ الحقيقةَ بفطرته، من الآيات البيّنات المبثوثة في الكون، من

الـرسل والأنبياء والكتب السماوية، من الرسالة الخاتمة، من القرآن الكريم والسنّة النبوية، فإذا منهاج الله نورٌ وهدى، وموعظة وشفاء، وحجة وبرهان، وفرحةٌ ويقين، وسعادة وبشرى، يعيش بها المؤمن، فيتصل قلبه بالله، وتبدو له سنن الله في الكون ماضية بجلائها ووضوحها، لا تضطرب في قلبه الصور، ولا تثور الشكوك، ولكنه يطمئن ويخشـع. وأنى للعاصـي الذي تمادى في الظلم والعدوان حتى غشى قلبه الران، أنى له أن يجد هذه السعادة، وأنى له أن يستقبل أو يعي أو يصدق.

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾
(الإسراء : ٤٦)

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾.
(الإسراء : ٨٢)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ ﴾ (البقرة : ٦، ٧)

نعـود لنقـرر السببـين الرئيسيين اللذين نعتقد أنهما سبب الانحراف في التصور الإيماني واضطرابه، وخاصة فيما يتعلق بمسئولية الإنسان ومحاسبته بين يدي الله، نعود لنقررهما ونوجزهما بعد هذا الاستطراد والتفصيل:

أولاً: إقحام العقل البشري في ميادين لا طاقة له بها، ولا حق له بدخولها، لأنه لم يخلق لها. دخوله لها بسبب الكبر والغرور. وأخطر هذه الميادين هي الغيب الذي لا يعلمه إلا علّام الغيوب.

ثانياً: محاولة الإنسان أن يُخضع عالم الغيب لسنن وقوانين عالم المشهد. وللحياة الدنيا سننها وقوانينها، وللحياة الآخرة سننها وقوانينها.

وقد أدّب الإسلام المؤمنين وعلَّمهم كيف يتأملون ويتدبّرون ويفكرون، وعلمهم كيف يسألون وكيف يبحثون. فحين يدعو الإسلام إلى التأمل والتدبّر يطلق مداه في الكون كله ليستكشف آيات الله فيخشع وينيب:

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ

فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾. (آل عمران : ١٩٠، ١٩١)

امتداد هائل للتأمل والتدبُّر والتفكُّر، حتى يخرج الإنسان بالنتيجة الأمينة العادلة: ﴿**ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار**﴾. هذه هي نتيجة تأمل أُولي الألباب، تدبّر المؤمنين، فيزدادون إيماناً وخشوعاً حين يرون عظمة آيات الخالق في خلقه، حقاً جليّاً، حقّاً لا باطل فيه، حقّاً يقوم على ميزان دقيق، ونظام ربّاني، وسنن ماضية تحفظ الكون في كل أُموره ما دقَّ منها وما كبر، وعدل مطلق، ومشيئة نافذة، وحكمة غالبة. حق لا باطل، ونظام لا فوضى، وعدل لا ظلم، وآيات بينات. فتخشع القلوب فتبتهل إلى خالقها: ﴿**سبحانك فقنا عذاب النار**﴾!

وحين يأمر الإسلام عباده المؤمنين أن يتدبّروا ويتفكروا هذا التفكُّر الممتد المذهل بامتداده، المتسع المذهل باتساعه، فإنه يحمي العقل من أن يتجاوز حدوده، ويخوض فيما لا قدرة له عليه:

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيُّها الناس. قد فرض الله عليكم الحجَّ فحجوا». فقال رجل: أكلّ عام يارسول الله؟! فسكت حتى قالها ثلاثاً. فقال رسول الله ﷺ: «لو قلتُ: نعم. لوجبت ولما استطعتم». ثم قال: «ذروني ما تركتكم. فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» (رواه مسلم)[1]

هذا هو توجيه النبوّة، وتوجيه الوحي المنزَّل، يؤدِّب ويعلِّم ويرسم النهج للإنسان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (المائدة : ١٠١، ١٠٢)

وجاء حديث رسول الله ﷺ يوضح ويبيّن:

فعن أنس بن مالك قال: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء. فخطب فقال: «عُرضت عليّ الجنّة والنار. فلم أر كاليوم في الخير والشر. ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» قال: فما أتى على أصحاب رسول الله يوم أشدُّ منه. قال: غطوا

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الحج. باب (٧٣). حديث (٤١٢/١٣٣٧).

رؤوسهم ولهم خنين. قال: فقام عُمَرُ فقال: «رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيّـاً». قال: فقام ذاك الرجل فقال: «من أبي؟». قال: «أبوك فلان». فنزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم﴾ (رواه مسلم)[1]

وعن عامر بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يُحَرَّمْ على المسلمين، فحُرّمَ عليهم من أجل مسألتـه».

(رواه مسلم)[2].

فهذا باب كذلك من الأبواب التي نهى الرسول ﷺ على الخوض فيها رحمة بالمسلمين.

وعن أبي هريرة رضـي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يُقـال: هذا، خَلَقَ الله الخلـقَ، فمن خلـقَ الله؟! فمن وجـد من ذلـك شيئـاً فليقـل: آمنـت بالله» (رواه مسلم)[3]

وعن أبي هريرة رضـي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطانُ أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلقَ ربَّك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته».

(رواه مسلم)[4]

كيف يحقُّ للمؤمن أن يسأل من خلق الله؟ كيف يجوز هذا وهو يقرأ قوله سبحانه وتعالى:

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ ﴾ (الحديد: ٣)

كيف يجوز لك أن تسأل من خلق الله؟! والله هو الخالق، والخالق لا يمكن أن يكون مخلوقاً، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن. والخالق لا يُسأل عما يفعل ولا يُحاسَبُ، فتلك صفة المخلوق. فالإنسان هو الذي يُسألُ ويُحاسبُ لأنه مخلوق.

إنك إن رأيت جماداً يتحرك فقد تسأل من يحرُّكه، ولكنك لا تسأل هذا السؤال إن

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الفضائل (٤٣). باب (٣٧). حديث (٢٣٥٩/١٣٤).

(٢) صحيح مسلم: كتاب (٤٣). باب (٣٧). حديث (٢٣٥٨/١٣٢).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١). باب (٦٠). حديث (١٣٤/٢١٢).

(٤) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١). باب (٦٠). حديث (١٣٤/٢١٤).

رأيت إنساناً يتحرك، ذلك لأن من خصائص الإنسان وصفاته الرئيسية أنه يتحرك بنفسه ولا يحتاج إلى من يحرّكه. كذلك، فمن صفات الله، وصفات الألوهية، أن الله خالق لا يحتاج إلى من يخلقه! هذا هو التوحيد، هذا هو الإيمان! ولو سأل أحدهم: من خلق الله؟ لأوهم المستمعَ بأنَّ الله مخلوق سبحانه وتعالى عما يقولون علوّا كبيراً، ولتناقض مع نفسه بسؤاله. فالسؤال يوحي كذلك بأن السائل يؤمن بالله، وإذا لم يكن مؤمناً لم يبق للسؤال معنى. والإيمان يعني الإيمان بكامل أسمائه الحسنى وصفاته لا بجزءٍ منها.

فمثل هذه الأسئلة لا تصدر عن قلب مؤمن واع. إنها وسوسة من وسوسات الشيطان يدفعها في صدر ابن آدم ابتلاءً منه سبحانه وتعالى. ولذلك جاء في الحديث الشريف أعلاه: «**يأتي الشيطانُ أحدَكم**...».

إن هذا من علم الغيب، ما كان لنا أن نعلمه لولا أن علمنا إياه الله سبحانه وتعالى. ولا مكان للعقل البشريّ أن يكتشف ذلك بطاقته وقدرته. ولكن العقل يستطيع أن يدرك هذا كله إدراك إيمان وتصديق، ويربط هذه القضية مع غيرها من قضايا الغيب ربط إيمان وتوحيد.

لا نعلم كيف يوسوس الشيطان للإنسان، ولا كيف يقول، ولا كيف يسأل. فلعالَم الغيب، وللمخلوقات الأخرى، قوانينها وسننها، لا نعلم منها إلا طرفاً ولا ندرك إلا طرفاً، على قدر ما يعلمنا الله سبحانه وتعالى:

﴿... وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ (البقرة: ٢٥٥)

فلا حقَّ للإنسان أن يُقحم نفسَه في ميادين لا يقوى عليها، وفي قضايا فوق طاقته. حسبُه أن يؤدي الأمانة التي حملها، والعبادة التي خُلِقَ لها، والخلافة التي جُعلت له، والعمارة التي كلف وأُمر بها.

من أجل ذلك كان الإيمان بالغيب جزءاً لا يتجزّأ من سلامة إيمان الفطرة التي فطر الله الناس عليها، حتى لا يكون لأحد عذر في عدم الإيمان بالغيب، وحتى لا يكون لأحد عذر في التفلّت من المسئولية، والحساب يوم القيامة بين يدي الله.

١٥ - مسئولية الانسان بين النية والعمل ورحمة الله :

ربما يلتبس الأمر على بعض المسلمين حين يقرأون حديث رسول الله ﷺ :

عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها كانت تقول : قال رسول الله ﷺ : «سددوا وقاربوا وأبشروا . فإنه لن يُدْخِلَ الجنّةَ أحداً عملُه» قالوا ولا أنت يارسول الله! قَال : «ولا أنا إلا أن يتغمدنيَ الله منه برحمة . واعلموا أن أحبَّ العمل إلى الله أدومه وإن قلّ» (رواه مسلم)[1]

وكذلك حين يقرأون قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ .

(النجم : ٣٩ ـ ٤١)

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

(السجدة : ١٩)

وآيات أُخرى كثيرة في كتاب الله ، وأحاديث أُخرى عن رسول الله ﷺ ، منها ما يفيد بأن المسلم لا يدخل الجنّة بعمله ، ومنها ما يدل ظاهره على أن المسلم يدخل الجنة بعمله . فهل هنالك تعارض وتناقض؟!

كلا! لا يوجد أي تعارض أبداً . وإنما الالتباس ينشأ حين لا يجمع المؤمن الآيات كلها والأحاديث كلها ، مما يتعلق بهذا الموضوع أو سواه في صدره ، حتى تنجلي له الصـورة بإعجـازها القرآني ، وتكاملها وتناسقها . فالذين لا يعيشون مع منهاج الله صحبة دائمة ، صحبة تجمع لهم الصورة الإيمانية للقضية الواحدة بتكاملها وتناسقها وإعجازها ، هؤلاء قد يظنون خطأً أن هنالك تعارضاً وتضارباً ، وقد يوسوس الشيطان بذلك . ومن هنا يأتي إصرارنا في نهجنا الذي ندعو إليه على مصاحبة منهاج الله ، قرآناً وسنّةً ، صحبة عمر وحياة ، صحبة منهجية ، ليأخذ كل مسلم قدر وسعه وطاقته ، وقدر مسئوليته وأمانته .

ولإزالة ما قد يبدو من لبس في هذه القضيّة لدى بعضهم ، نقول إن هنالك فرقاً كبيراً بين حساب المؤمن يوم القيامة وبين حساب الكافر . ولو حُوسِب الناس كلهم

(١) صحيح مسلم : كتاب (٥٠) . باب (١٧) . حديث (٢٨١٨) .

يوم القيامة على نحو ما يحاسب به الكافر لهلك الناس كلهم. واسمع إلى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾ (فاطر: ٤٥)

وكذلك:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (النحل: ٦١)

فلو حاسب الله الناس على كل عمل عملوه، لاستحق الناس أن يذهب بهم الله ويسحقهم في الدنيا قبل الآخرة، لعظم ذنوب العباد. ولكن الله سبحانه وتعالى رحمة منه بعباده جعل للإيمان منزلة خاصة في ميزانه يوم القيامة يوم الحساب:

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الجاثية: ٢١، ٢٢)

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (ص: ٢٨، ٢٩)

وكذلك:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾ (النجم: ٣١)

فمن هذه الآيات الكريمة يبرز لنا أهمية الإيمان في ميزان الحساب. فالمؤمن له أعمال صالحة يُجْزَى بها. وأما الكافر فكل ما يبدو لنا من عمله أنه صالح هو عمل غير مقبول عند الله، ذلك بسبب كفره وشركه:

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الفرقان: ٢٣)

ويكفر الله عن المتقين سيئاتهم:

﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الزمر: ٣٥)

ومن عمل سيئة فلا يُجْزَى إلا مِثلها، ولكن من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فيضاعف لهم العمل الصالح ويضاعف أجره إلى عشَرة أضعاف، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، على ميزان عادل أمين.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

(الأنعام : ١٦٠)

وكذلك:

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ (غافر : ٤٠)

والله يغفر للمؤمن ذنوباً كثيرة، وأما الكافر الذي مات على الشرك فأنى يغفر له.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾

(النساء : ٤٨)

وكذلك:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

(الشورى : ٢٥)

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ (الشورى ٣٠)

ولنتذكر حديث رسول الله ﷺ:

عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربّه تبارك وتعالى: قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثمّ بين ذلك. فمن همّ بحسنة فلم يعلمها كتبها الله عنده حسنة كاملة. وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عزَّ وجلَّ عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة. وإن همّ بها فعملها، كتبها الله سيئة واحدة» (رواه مسلم)[1]

ويمضي منهاج الله، قرآناً وسنة، يعرض لنا بعض جوانب حساب المؤمن وبعض جوانب حساب الكافر، والفرق الواسع بينهما. والله يستر على عبده المؤمن يوم القيامة كما ستر عليه في الدنيا. وتظل رحمة الله ممتدة على المؤمن حتى ينجو فيدخل الجنة برحمة الله.

(١) صحيح مسلم: كتاب (١). باب (٥٩). حديث (١٣١).

ويـروي الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل أخبرنا أيوب عن عبدالله بن مليكة عن عائشة رضـي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عُذِّب». قالت فقلت: أفليس قال الله تعالى: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾. قال: «ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عذب»[1].

ولا نستـطيع هنـا أن نعدد قواعد الحساب التي ذكرها منهاج الله، ولكننا نذكر قبسات فقط لتبيّن لنا أن عمل ابن آدم يسجله الله، وأن للمؤمن قواعد يحاسب بها على أعماله ولو في العرض، وللكافر قواعد يحاسب عليها. أما الكافر فيدخل النار بما كسبت يداه، بعمله حيث تُجْزَى السيئة بمثلها فقط، فيهلك الكافر ويدخل النار. أما المؤمن فيغفر الله له من ذنوبه ذنوباً كثيرة برحمته وعفوه، وتجري عليه رحمة الله على النحو الذي عرضناه في تقدير عمله حتى يدخل الجنة برحمة الله.

وفي هذه الحالة أو تلك فإن ميزان الحساب يقوم على علم الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. وهو وحده سبحانه وتعالى القادر على حساب عباده على عدل ربانيّ وعلم وحكمة لا ظلم معها أبداً، حيث يقيم الله الموازين القسط ليوم القيامة:

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٧)

وتظل مسئولية الإنسان قائمة على أساس عمله ونيته. ولكن المؤمن ينال برحمة الله عفـواً واسعاً عن ذنوبه وأجراً كبيراً على عمله الصالح فيدخل الجنة برحمة الله. أما الكافر فتجزى السيئة منه بمثلها ولا ينال مغفرة ولا رحمة بسبب شركه وكفره فيدخل النار، وفي جميع الحالات تظل الموازين القسط هي التي تعمل، وتمضـي عدالة الله لا ظلم معها أبداً.

١٦ ـ موجز للتأكيد والتذكير:

ونوجز أهم ما عرضناه في هذا الفصل بنقاط للتوضيح والتذكير والتيسير كما يلي:

١ ـ سنن الكون ونظامه تقتضـي وجوب مسئولية الإنسان ومحاسبته حتى تتحقق

(١) تفسير ابن كثير في تفسيره سورة الانشقاق.

العدالة في الكون، ويستقرّ النظام ولا يضطرب، وتمضـي الحكمة التي أرادها الله وبينها لنا.

٢ ـ مسئولية الإنسان ومحاسبته ضرورية حتى تتكامل السنن الربانية في الكون وتتناسق، وحتى تمتدّ وتترابط لتحقق غايتها وحكمتها.

٣ ـ تناقض التصور الإيماني إذا اعتبرنا أن الإنسان يترك سدى.

٤ ـ إن الله سبحـانـه وتعـالى فرض مسئولية الإنسان ومحاسبته، وفرض سننها وقوانينها، حتى أصبحت مسئولية الإنسان ومحاسبته جزءاً من قضية الإيمان والتوحيد.

٥ ـ يعـرض منهـاج الله، قرآنـاً وسنة، قضية مسئولية الإنسان ومحاسبته عرضاً متكاملاً مترابطاً متناسقاً، يعرضها جزءاً من سنن الله ونظامه الذي أراده لهذا الكون.

٦ ـ إن قضية مسئولية الإنسان ومحاسبتهُ لا تتعارض مع نفاذ مشيئة الله، ونفاذ قضائه وقدره. ذلك:

أ ـ لأن مشيئـة الله هي مشيئة الحق والعدل والحكمة، وقضاءه قضاء الحق والعـدل والحكمـة. ومحـاسبـة الإنسـان ومسئوليته هما من ضرورات الحق والعدل والحكمة التي أرادها الله سبحانه وتعالى وفرضها في نظام هذا الكون وسننه.

ب ـ إن مسئولية الإنسان ومحاسبته هي من مشيئة الله وحده، وهي من قضائه وقدره، وهي من سنن الله ونظامه في هذا الكون.

جـ ـ إن الله سبحـانه وتعالى هو الخالق البارىء المصوّر له الأسماء الحسنى كلها. فهو لا يُسأل عما يفعل، ولكنّ المخلوق، العبد، هو الذي يُسأل عما يفعل ويحاسَب. ذلك لأنّ الله الربَّ الخالقَ لا يُسأل، ولا يجوز لعبد مخلوق أن يسأله، ولو سأله لاضطرب المنطق والتصور كله، وكأنّ المخلوق رفع نفسه لمستوى الخالق وأنى له ذلك، أو كأن الخالق لم يعد خالقاً سبحانه وتعالى عما يشركون.

٧ ـ إن من سنن الله في هذه الحياة الدنيا أن يبتلى الإنسان ويُمحّص في حياته. فلا يخرج من الحياة الدنيا حتى يَستوفي أجله ورزقه، وحتى تقوم الحجة له أو عليه بذلك. وتمضـي سنن الكون كلُّها لتحقق أمر الله في ابتلاء بني آدم ابتلاءً عادلاً، حقاً رحيماً، قوياً حاسماً، والله غالب على أمره. فلا يأتي يوم القيامة إلا والأدلة متوافرة، والحجة

قائمة، ولا مناص لأحد أن يفلت منها.

٨ ـ إن أهم سببين في نظرنا لاضطراب التصور الإيماني بالنسبة لمسئولية الإنسان ومحاسبته هما:

أ ـ دفع العقل البشري إلى ميادين لا يقْوى عليها ولا طاقة له بها ولم يُخلَقْ لها.

ب ـ محاولة تفسير الغيب أو فهمه على ضوء سنن الحياة الدنيا وقوانينها، فيقع التضارب والتناقض.

٩ ـ لذلك كان الإيمان بالغيب جزءاً من إيمان الفطرة التي فطر الله النَّاس عليها، وكذلك كان التصور الإيماني المتناسق المترابط المتكامل ثمرة فطرة سليمة، وقوى عقلية، عرفت حدودها فاستقبلت حقائق الإيمان واستوعبتها ووعتها وآمنت بها وصدَّقتها، ذلك حتى لا يكون لأحد عذر في التفلّت من المسئولية والحساب بين يدي الله يوم القيامة.

١٠ ـ وهب الله الإنسان طاقات وقدرات محدودة، ووهبه وسعاً محدوداً، ووهبه ذلك في فطرته التي فطره الله عليها، وفي عقله. وجعل للعقل مهمّة محدّدة حتى يستطيع الإنسان أن يدرك مسئوليّته وحدوده، وأن يدرك مهمّته وواجباته. وأن يستقبل النبأ من عالم الغيب من النبوة، فيعي ويفكر ويقدِّر، وأن يتأمل ويتفكر في نفسه، وفي الكون وآياته، وأن يسير في الأرض فينظر ويتدبّر، حتى يقوم بمسئولياته وأمانته التي خلق لها وكُلّف بها، عبادة لله وطاعة.

الفصل الثالث

«لا إله إلا الله» بين عالم الغيب وعالم المشهد

وردت عدة أحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ، تدور حول من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتنصُّ الأحاديث الشريفة هذه على أن من شهد بذلك دخل الجنة، وبعضها يرد فيه: «**على ما كان من عمل**». هذه الأحاديث الشريفة أوجدت في نفوس كثيرين عدداً من التساؤلات التي يضطرب معها التصوّر الإيماني. ونعتقد أن سبب هذه التساؤلات كلها قضيّة واحدة: ذلك أن من الناس من يريد أن يفهم هذا الحديث أو ذاك منعزلاً عن منهاج الله، قرآناً وسنة، منعزلاً عن الآيات الكريمة المتعلقة بالموضوع ذاته، منعزلاً عن سائر الأحاديث الشريفة، منعزلاً عن الممارسة الإيمانية في حياة الرسول ﷺ.

إن من القواعد الأساسية لفهم الآيات والأحاديث ثلاث قواعد هامة، لا غناء لنا عنها أبداً:

الأولى: جمع الآيات والأحاديث المتعلقة بالقضية أو الموضوع، وإدراك التناسق والترابط بينها من خلال التصور الإيماني والتوحيد.

الثانية: ربط هذه الآيات والأحاديث بمنهاج الله كله ربطاً يفرضه التوحيد حتى ينجلي التناسق والترابط في منهاج الله كله، وحتى تبرز القضية المطروحة في قوة ارتباطها بمنهاج الله، وبسائر الآيات والأحاديث.

الثالثة: ليس لنا الحقَّ أن نُخْضِعَ الغيبَ لعقلنا المحدود وعلمنا المحدود. والله سبحانه وتعالى علّمنا طرفاً من الغيب مما يراه الله كافياً لنا، لنحقّق به حافزاً من حوافز الإيمان. فالأحاديث التي نعرضها هنا عن دخول الجنة تمثل طرفاً من نبأ الغيب، كي ننهض بأنفسنا ونجاهد لنبلغ درجة دخول الجنة على أحسن حالاتها.

وإن محور ذلك كله هو التصوّر الإيماني السليم، التصور الذي يصوغه القرآن والسنّة، التصور الذي يهبه الله لعباده المتقين، لعباده الذين لم يجعل للشيطان سلطاناً عليهم. هذا التصور الإيماني هو التوحيد بكلِّ امتداده وجلاله.

وجميع الأحاديث التي وردت حول هذه القضية يمكن أن نقسمها إلى مجموعتين: مجموعة تتحدث عن مصير الإنسان يوم القيامة، عن مصير من يقول أو يعلم أو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهذه المجموعة كلها تتعلق بالغيب. ومجموعة أخرى تتحدث عن مسئولية الإنسان الذي يقول الشهادتين في الحياة الدنيا وعن علاقته مع المجتمع الإسلامي وعلاقة المجتمع به. وسنتحدث عن كل مجموعة من هذه الأحاديث، علمًا أن جميع الأحاديث تظل مرتبطة بالتوحيد وبمصير الإنسان في نهاية المطاف بين يدي ربّه وخالقه، الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

ونحاول الآن أن نجلو قدر المستطاع ميدان كل مجموعة من هذه الأحاديث الشريفة، من خلال التصور الإيماني والتوحيد، ومن خلال التناسق والترابط في منهاج الله كله قرآناً وسنة.

١ ـ ظلال مع عالم الغيب:

الأحاديث في هذا الباب كثيرة. ومن الخير أن يدرسها المسلم كلها. فمع كل حديث ظلال جديدة، ومناسبة جديدة. ولكننا لا نستطيع هنا إيرادها كلها، فنكتفي بأن نأخذ قبسات من هذه الأحاديث عسى أن تعين على جلاء الصورة إن شاء الله.

فعن حُمْران، عن عثمان، قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة» (رواه مسلم)[1]

ففي هذا الحديث الشريف جاء النصّ بكلمة «يعلم». ويشترط الحديث الشريف أن يكون الإنسان قد مات على هذا العلم. ومن البداهة أن نقول أن كلمة «يعلم» هنا لا تعني مجرد العلم الذي لا يصاحبه تصديق وإيمان. فجميع قواعد الإسلام تفرض التصديق مع العلم في الإيمان والتوحيد. وسيظل هذا الشرط أساساً في جميع الأحاديث مهما كان النصُّ يحمل من لفظ أو تعبير. فالإيمان، في أي درجة من درجاته سبب لدخول الجنة. والذي نتعلمه من هذا الحديث الشريف أن ننهض حتى يصدق علمنا بالشهادتين حتى ندخل الجنة. ويقتضي العلم «**بأن لا إله إلا الله**» العلم كذلك بأنّ محمداً رسول الله، وإنْ لم ينصَّ عليها الحديث، لأن قواعد الإيمان كلها تفرض

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١). باب (١٠). حديث (٢٦).

ذلك، وإنكار إحدى الشهادتين إنكار لهما معاً.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾

(محمد: ١٩)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع النبيِّ ﷺ في مسير. فنفدت أزواد القوم قال حتى همَّ بنحر بعض حمائلهم. قال فقال عمر: يارسول الله! لوجمعت ما بقي من أزواد القوم، فدعوتَ الله عليها. قال ففعل. قال فجاء ذو البُر ببرِّه، وذو التمر بتمره، قال: وقال مجاهد وذو النواة بنواه. قلت وما كانوا يصنعون بالنوى؟ قال كانوا يمصُّونه ويشربون عليه الماء. قال فدعا عليها حتى ملأ القوم أزودتهم. قال فقال عند ذلك: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد، غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة».

(رواه مسلم)[١]

وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنّ الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله من أيّ أبواب الجنة الثمانية شاء» وفي رواية: «أدخله الله الجنة على ما كان من عمل» (رواه مسلم)[٢]

وتأتي أحاديث أُخرى كثيرة في هذا المعنى، نأخذ منها قبسات:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال «كنا قعوداً مع رسول الله ﷺ، معنا أبو بكر وعمر في نفر. فقام رسول الله ﷺ من بين أظهرنا. فأبطأ علينا. وخشينا أن يقطع دوننا. وفزعنا فقمنا. فكنتُ أول من فزع. فخرجتُ أبتغي رسول الله ﷺ، حتى أتيت حائطاً للأنصار لبني النجار. فدرْت به هل أجد له باباً فلم أجد! فإذا ربيع يدخل من جوف حائط من بئر خارجة، والربيعُ الجدولُ. فاحتفزتُ كما يحتفز الثعلب فدخلت على رسول الله ﷺ. فقال: أبو هريرة فقلت نعم يارسول الله! قال ما شأنك؟ قلت كنتَ بين أظهرنا فقمتَ فأبطأت علينا، فخشينا أن تُقْطَع دوننا ففزعنا، فكنتُ أول من فزع فأتيت هذا الحائط، فاحتفزتُ كما يحتفز الثعلب وهؤلاء الناس ورائي. فقال يا أبا هريرة! وأعطاني نعليه قال: اذهب بنعليّ

(١) صحيح مسلم: كتاب (١). باب (١٠). حديث (٢٧).

(٢) صحيح مسلم: كتاب (١). باب (١٠). حديث (٢٨).

هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة. فكان أول من لقيت عمر. فقال: ما هاتان النعلان ياأبا هريرة؟ فقلتُ: هاتان نعلا رسول الله ﷺ بعثني بهما من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً به قلبه بشرته بالجنة. فضرب عمر بيده بين ثدييّ، فخررتُ لإستي. فقال ارجع ياأبا هريرة... » إلى أن يقول رسول الله: «ياعمر ما حملك على ما فعلت؟» قال عمر: «يارسول الله بأبي أنت وأمي أبعثت أبا هريرة بنعليك...» وروى القصة. قال: نعم. قال: فلا تفعل! فإني أخشى أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون. قال رسول الله ﷺ: «فخلِّهم» (رواه مسلم)[1]

من هذه الأحاديث الشريفة ومن غيرها مما هو في معناها، ندرك بصورة واضحة أن الأحاديث تدور حول مصير الإنسان في الآخرة، لا حول مصيره في الدنيا وحسابه فيها. وندرك كذلك أن هذا المصير هو من أمر الله وحده، لا يستطيع أحد من البشر، مهما علت منزلته ونما علمه أن يتدخل فيه. إنه من أمر الغيب! إنه يمثل الحقَّ المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ويقع الناس في الاضطراب في فهم هذه الأحاديث حين ينسون هذه القاعدة من أنه من أمر الله وحده، من أمر الغيب، وحين يريدون أن ينظروا إلى القضيّة كأنها قضيّة دنيوية، يُفصل فيها بموازين الدنيا، بموازين البشر. كلا! إنه ميزان الله وحده هو الذي يفصل بين الناس يوم القيامة. وكان من رحمة الله بنا أن ساق لنا على لسان رسوله محمد ﷺ هذه البشرى، حتى تقوى نفوسنا في ظل الإيمان والتوحيد، وحتى تطمئن إلى رحمة الله الواسعة، وإلى عدله وحكمته، وعلمه، وحتى تنهض النفوس إلى أمانة عظيمة، لا لتقعد وتسترخي.

وفي جميع هذه الأحاديث شروط رئيسية يجب أن تتوافر حتى يدخل الرجل الجنة. وقد ذكرتْ هذه الأحاديث بعضها، وذكرت الآيات بعضها الآخر، حتى تستكمل الصورة رؤيتها الإيمانية. وليس من الضروري أن يذكر كل حديث من هذه الأحاديث جميع قواعد الإيمان الضرورية لدخول الجنة، ولا طريقة دخولها، ذلك لأن الآيات والأحاديث تتناسق كلها في منهاج الله.

فهنالك مجموعة من الشروط تجمعها الكلمة التي وردت في الحديث الأخير وهي: «مستقيناً بها قلبه». وبدون هذا اليقين الذي يجب أن يعمر القلب، لا تتحقق شروط

(١) صحيح مسلم: كتاب (١). باب (١٠). حديث (٣١).

دخول الجنة. وتظل مهمة الإنسان المؤمن أن يجاهد في نفسه وقلبه لينمو إيمانه ويزداد يقينه، ليلقى الله على أحسن حال يكتبها الله له ثمرة جهاده وسعيه. ليست مهمة الإنسان أن يحوّل الأحاديث إلى «**فلسفة**»، و «**جدل**»، و «**مراء**». ليست مهمته أن يجعل من كلمة الإيمان واليقين عُقداً فكرية وفلسفيّة، وهو يتساءَل كيف يزداد الإيمان وكيف ينقص، وقد جاءت الأحاديث الشريفة تنصُّ على ذلك. المؤمن المصدِّق ينطلق إلى السعي والمجاهدة ويقطع الجدل والمراء. وهكذا فعل أصحاب رسول الله ﷺ حين سمعوا هذه الأحاديث انطلقوا إلى سعي وعمل وجهاد، لا إلى جدل ومراء.

ففي الحديث عن أبي هريرة حين نفد زاد القوم، سمعوا كلهم قول رسول الله ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. لا يلقى الله بهما عبد، غير شاكٍّ فيهما، إلا دخل الجنّة**». كلهم سمعوا ذلك فلم يماروا ولم يجادلوا، لأنهم كانوا أهل جهد وجهاد، وسعي وبذل وعطاء. ففي الحديث نفسه يأتي السؤال: «**وما كانوا يصنعون بالنوى؟!**» قال: «**كانوا يمصُّونه ويشربون عليه الماء**». هؤلاء من خلال جهادهم هذا كانوا يفهمون الأحاديث النبوية حق الفهم، ويطبقونها تحت إشراف النبوة حق التطبيق، «**كانوا يمصّون النوى ويشربون عليه الماء**»! فنشأ لديهم فقه التوحيد، فقه الجهاد الحق، فقه البذل والعطاء، لا فقه المسترخين على الأرائك بين جدل ومراء.

فالأحاديث إذن نفهمها من خلال التوحيد، من خلال الآيات والأحاديث، نفهم أنها تمثل حقّاً لا يأتيه الباطل، وأن هذه الأحاديث تدفعنا لننهض بمستوى إيماننا وعملنا وجهادنا وبذلنا وعطائنا، حتى ننال رحمة الله يوم نلقاه. لا أن نسترخي ونتكل.

وهذه الأحاديث لا تعطي لأحد الحقَّ في الدنيا أن يصدر حكمًا على هذا وحكمًا على ذاك. فالأمر في هذه الأحاديث هو أمر الله وحده، لا شريك له أبداً. ومصير الإنسان بموجب هذه الأحاديث يتعلق على ما في قلبه وصدره: «**غير شاكٍّ فيهما**»، «**مستيقناً بها قلبه**»، وهذا ما لا يستطيع أحد من البشر أن يطلع عليه أبداً، فقد جعله الله سبحانه وتعالى من أمره هو وحده، فهو وحده الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. وأكدت الآيات الكثيرة والأحاديث هذا المعنى.

ولم يكن غضب عمر رضي الله عنه، حين ردَّ أبا هريرة ودفعه وألقاه لإسته إلا لأنه

خشي أن يسيء بعض الناس فهم الحديث الشريف، فيتكلوا، ويتهاونوا بالعمل والعطاء، والحديث لا يقصد ذلك أبداً، وإنما يدفع إلى النهوض والعمل والجهاد حتى يدخلوا الجنة.

ولذلك جاء في حديث آخر عن معاذ بن جبل، حين خصَّه رسول الله بحديثه وهو رديفه على الرحل. قال: «يامعاذ!» قال: لبيك رسول الله وسعديك. قال «يامعاذ!» قال: لبيك رسول الله وسعديك. قال: «يامعاذ!» قال: لبيك رسول الله وسعديك. قال: «ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرَّمه الله على النار». قال: يارسول الله أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: «إذاً يتكلوا». فأخبر بها معاذ عند موته تأثُّماً.

(رواه مسلم)[1]

فهنا خصَّ الرسول ﷺ معاذاً رضي الله عنه بهذا الحديث لعلمه ﷺ بقدرة معاذ وإيمانه وعلمه وفقهه. وما كان يتوافر لعامة المسلمين آنذاك جميع الأحاديث ليربطوا بينها، ولا جميع الآيات، مما هو متيسِّر لنا اليوم على شكل واسع. ولذلك جاء الحذر من سوء الفهم والتقدير: **«إذاً يتكلوا»!**

ميزان ربّاني عادل يقوم يوم القيامة لحساب الناس. ميزان أعلمنا الله برحمته وفضله بطرف منه كما ورد في هذه الأحاديث وغيرها. ولكننا نجهل سائر تفاصيل ذلك الميزان الرباني العادل:

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٧)

إن الله سبحانه وتعالى يضع في هذه الموازين القسط كل عمل ابن آدم، وكل نجواه وهمسته وما انطوى عليه صدره. فيزنها ربُّ العالمين على أعدل ما يكون عليه الوزن: **﴿فلا تظلم نفس شيئاً﴾**. وإن من أهم ما يزن يوم القيامة هو شهادة أن لا إله إلا الله. ولله وحده الحكم والتقدير. ولا حقّ لأحد من خلق الله أن يتساءَل منكراً أو معترضاً، أو أن يأخذه الكبر والغرور ليشكك في عدالة الله أو رحمته أو حكمته! ولكن يُخبت وينيب خاشعاً متدبراً في رحمة الله التي وسعت كل شيء. وأنى لأحد من البشر أن يحيط

(١) صحيح مسلم: كتاب (١). باب (١٠). حديث (٣٢).

بكل ما عمل هذا الإنسان أو ذاك، وبكل ما طواه صدره وغاب في أحنائه. أنى له أن يعرف كل عدالة الميزان وهو عاجز عن بعض العدل في أمور من الدنيا قريبة منه.

وهنالك قوم يراهم الناس يقولون الشهادتين ويموتون على ذلك، ولكنهم لا يدخلون الجنة أبداً. ذلك لأنهم كانوا منافقين، كفروا بالله ورسوله، وأظهروا على لسانهم خلاف ما كانوا يبطنون. فمن يعلم حقيقة هؤلاء إلا الله وحده عالم الغيب والشهادة. فالأحاديث السابقة، ومما لم نذكره في معناها، سواء أذكرت اليقين والتصديق أم لم تذكره، فإن اليقين والتصديق شرط رئيسي نعرفه من الآيات والأحاديث وواقع المنافقين الذين كانوا في حياة رسول الله ﷺ، والذين وصفهم القرآن وصفاً دقيقاً وقرر أنهم من أهل النار. فليس إذن كل من قال «**أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**» دخل الجنة. كلا! ولم يترك لأحد من الناس الحقَّ في التدخّل في هذه القضية، ولا الحقَّ في أن يقرر من هو من أهل الجنة ومن هو من أهل النار. وجعل سبحانه وتعالى هذا الأمر خاصّاً به وحده، رحمة منه بعباده، حتى ينالوا الرحمة الواسعة والعدل الواسع، وحتى يخشع الناس لله في إخبات وقنوت.

وتعرض لنا هذه الأحاديث كلها، بنصوصها المتعددة، وأسبابها المختلفة، قضية أُخرى كذلك. إنها كيفية دخول الجنة، وهل الناس الذين يدخلونها يكونون على حال واحد. نعود ونقول إن هذه أيضاً هي من علم الغيب، لا نقول إلا ما جاءت به النصوص صريحة واضحة، دون أن نؤول منها ما ليس لنا بحق.

فالناس الذي يدخلون الجنة يوم القيامة لا يكونون على حالة واحدة. ففي الجنة نفسها درجات كما وردت الآيات والأحاديث بذلك. ومن الناس من يزحزح عن النار فيدخل الجنة فينجو ويفوز. ومن الناس من يدخل النار أولاً فيقضي بها ما يشاء الله له أن يقضي على عدل منه سبحانه وتعالى، وعلى رحمة واسعة، وعلى موازين قسط يضعها الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، نعلم طرفاً منها ونجهل الكثير، ولكننا نؤمن يقيناً بعدالة الله ورحمته وحكمته.

وترد أحاديث كثيرة حول الذين يدخلون النار ثم يخرجهم الله سبحانه وتعالى برحمته منها ويدخلهم الجنة. ومنهم من يخرج بشفاعة تأتيه يقبلها الله سبحانه وتعالى برحمته،

ومنهم من يخرج بشفاعة محمد ﷺ. وكلهم يخرجون برحمة الله سبحانه وتعالى، برحمته التي وسعت كل شيء. ولكثرة الأحاديث في هذا الباب نورد قبسات فقط:

عن جابر بن عبدالله يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يخرج قوماً من النار بالشفاعة» (رواه مسلم)[1]

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج من النار أربعة فيُعرَضون على الله. فيلتفت أحدهم فيقول: أي ربِّ! إذا أخرجتني من النار فلا تعدني فيها. فينجيه الله منها». (رواه مسلم)[2]

وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير مايزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير مايزن بُرَّة. ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير مايزن ذَرَّة». (رواه مسلم)[3]

وفي حديث عن أبي هريرة يبيّن لنا رسول الله ﷺ أن من الناس من يمرُّ إلى الجنّة كالبرق، ومنهم من يمرُّ كمرّ الريح، ثم كمرّ الطير وشدِّ الرحال تجري بهم أعمالهم. ثم يمضي الحديث يعرض لنا هول الموقف يوم القيامة: «. . . ونبيّكم على الصراط يقول: ربّ سلّم سلّم. حتى تعجز أعمال العباد. حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً. قال وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أُمرت به فمخدوش ناجٍ ومكدوس في النار» (رواه مسلم)[4]

هذه الأحاديث كلها تبيّن لنا طرفاً من نبأ الغيب، جاء به الوحي الكريم على خاتم المرسلين، ليعلّمنا الله القدر الذي يعلم أنه كافٍ لنا. وهذه الأحاديث كلها متناسقة فيما بينها، ومتناسقة مع منهاج الله، يُشرق التناسق بينها من التوحيد الصادق والإيمان الواعي والعلم بمنهاج الله. وخلاصة القول:

١ ـ إن الأحاديث تدور حول قضية دخول الجنة لمن مات على الشهادتين إنها قضية من أمر الغيب، أعلمنا الله بطرف منها. ويظل الحكم لله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

(١) صحيح مسلم: كتاب (١) باب (٨٤). حديث ١٩١/ ٣١٨.

(٢، ٣، ٤) صحيح مسلم: أحاديث رقم ١٩٢/ ٣٢١، ١٩٣/ ٣٢٥، ١٩٥/ ٣٢٩.

٢ ـ إنّ الناس يدخلون الجنة على أحوال: فمنهم من حرَّمه الله على النار، ومنهم من يدخل كالبرق، أو كالريح أو كالطير أو زحفاً. ومنهم من يزحزح عن النار ويدخل الجنة، ومنهم من يخرج من النار برحمة الله، ومنهم من يخرج منها بالشفاعة، وكلها من رحمة الله. والناس في الجنة درجات.

٣ ـ لا تعطي هذه الأحاديث لأحد من الناس الحقّ في إصدار حكم أو تقرير من يدخل الجنة ومن يدخل النار من عباد الله. فقد جعل الله هذا الأمر له وحده. إلا من أعلن كفره جليّاً ومات عليه فهو من أهل النار، بما يبدو لنا، والله أعلم. وعقلنا المحدود وعلمنا المحدود لا يكفيان لخوض هذه القضية.

٤ ـ من أدب الإيمان وحسن الفقه أن يقف المؤمن مع نبأ الغيب ليعتبر ويتدبّر، ويخشع وينيب، لا أن يتساءَل فَيَشكَّ ويُشَكِّك، ولا أن يعترض فيُفْتَنَ ويَفْتِن.

٢ ـ ظلال مع عالم المشهد:

إن شهادة «لا إله إلا الله» هي محور التوحيد وأساسه. وهي سبيل الجنة، يدخل الله برحمته بها من يشاء من عباده على ميزان عادل دقيق لا يظلم معه أحداً.

ولكنّ هذه الشهادة كذلك لها دورها في الحياة الدنيا، وهي أساس التوحيد والإيمان، ومحور منهاج الله كله، ومحور التشريع وأساسه. فما هي مسئولية قائلها في الحياة الدنيا، وما هي علاقته بالمجتمع الإسلامي؟!

والأحاديث حول ذلك كثيرة، يصعب إيرادها كلها ولكننا نأخذ قبسات نعيش معها:

عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العَرَب، قال: عُمَر بنُ الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناسَ، وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه. وحسابه على الله». فقال أبو بكر: «والله لأُقاتلنّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال. والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه». فقال عمر بن الخطاب: فوالله! ما هو إلا أن رأيت الله عزّ وجلّ قد شرح صدر أبي بكر للقتال. فعرفت أنه الحق (رواه مسلم)[1]

(١) صحيح مسلم: كتاب (١). باب (٨). حديث (٢٠).

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله. ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» (رواه مسلم)[1]

وعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله. ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحقها. وحسابهم على الله» (رواه مسلم)[2]

وورد الحديث كذلك بروايات أُخرى لا يختلف نصها كثيراً عن هذه النصوص. وتظل كلها تؤكد نفس القضية بهذا الأسلوب أو ذاك.

والقضية هنا هي نفس القضية السابقة التي وردت في بند «**ظلال مع عالم الغيب**»، هي قضية الشهادتين. ولكن الأحاديث هنا تدور حول هذه القضية في الحياة الدنيا، في عالم المشهد. إنها تتحدث عن مهمة النبوة التي بعثها الله لتبلغ الناس رسالته التي تقوم على الشهادتين. وعبّرت هذه الأحاديث عن هذه المهمة: «**أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يقولوا، أو حتى يشهدوا. . .**». ولكن الرسول ﷺ لم يبدأ دعوته بالقتال، وإنما بدأها بالبلاغ والحجة والبيان. ومضت الدعوة على ذلك، حتى تصدّى الكافرون والمشركون وأهل الكتاب لهذه الدعوة، وناصبوها العداء، وأداروا المؤامرات والكيد والمكر سرّاً وعلانية، حتى تطور ذلك إلى صدام وقتال لم يعد مجال لتجنبه أبداً. فكان قتال المسلمين هو القتال الذي أمرتْ به النبوةُ ليكون هذا القتال باباً من أبواب الدعوة والبلاغ. وسيظل القتال باباً كذلك من أبواب الدعوة والبلاغ مادام أعداء الله يصدُّون عن سبيل الله، ويحاولون إغلاق السبل ومنع المؤمنين عن أداء رسالتهم وبيان دعوتهم، وباباً كذلك من أبواب الحماية والدفاع.

كان لابُدَّ من هذا العرض الموجز لمعنى «**أُمرتُ أن أُقاتل الناس. . .**». وهذا المعنى والتصور يكشفه لنا التناسق والترابط في منهاج الله كله، حين يصبح الجهاد في سبيل الله باباً من أبواب الدعوة أمر الله به، وباباً من أبواب حماية المسلمين وأموالهم

(١) صحيح مسلم: كتاب (١). باب (٨). حديث رقم ٢٠/ ٣٤.
(٢) المرجع السابق. حديث رقم ٢٢/ ٣٦.

وأعراضهم. ولا يكون الجهاد في سبيل الله غزواً وراء متاع الدنيا، ولا عدواناً يحمل الظلم. ولكنه وثبة لله تحمل الحق والخير، وتحمل دعوة الله إلى الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. ولا يتعرض الحديث الشريف لسائر قواعد الجهاد في سبيل الله من إعداد وقوة ونهج وخطة، حيث بسط منهاج الله ذلك كله.

ونجد كذلك أن الأحاديث وردت على نصوص مختلفة في ظاهرها، ولكنها متناسقة كلها، مترابطة كلها، حين يجمعها الإيمان والتوحيد ومنهاج الله. ففي الحديث الأول قاعدة إيمانية جليّة وضحها لنا أبو بكر رضي الله عنه حين ردّ الأمر إلى منهاج الله كله. فبيّن لنا أنه لا يجوز التفريق بين الزكاة والصلاة في ميزان التوحيد، في ميزان الشهادتين. فالزكاة والصلاة وسائر التكاليف الثابتة في منهاج الله هي من مقتضيات التوحيد. ويكشف لنا أبو بكر رضي الله عنه مسئولية خليفة رسول الله في حماية حق الشهادتين، ومتابعة أداء أمانة التوحيد: «**والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه**».

وفي الحديث الثاني إضافة هامة، وهي جزء من الحديث الأوّل، وإن لم تذكر فيه، ذلك لأنها نتيجة حتمية للشهادتين، نتيجة يؤكدها كتاب الله وسنة رسوله. وما كان لنا أن ندرس هذا الحديث وغيره معزولاً عن منهاج الله وتناسقه وترابطه. هذه الإضافة هي: «**ويؤمنوا بي وبما جئت به**». فإنها من ضرورات التوحيد وأسسه.

ويضيف الحديث الثالث تفصيلات أخرى: «... **ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك**...». فهذا التفصيل هنا هو كذلك من أسس الإيمان والتوحيد، وهو من أركان الإسلام، فلا يستقيم التوحيد الصادق دون الصلاة والزكاة، ودون سائر أركان الإسلام. وسواءً ذكر الصيام والحج أم لم يذكرا فحكمهما الإسلامي جليّ، وهما من ضرورات التوحيد على قواعدهما وشروطهما الواردة في منهاج الله.

فهذه مسئولية من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج لمن استطاع إليه سبيلاً، وتبليغ دعوة الله إلى الناس، وإعداد القوة لذلك التبليغ، وإعداد الحماية، وإعداد الخُطة والنهج. فإذا ورد بعض هذا في هذه المجموعة من الأحاديث فلا يعني أن بعضها الآخر منسوخ أو

ملغي، فإن منهاج الله كله متكامل متناسق مترابط، وتظل التكاليف الشرعية كلها واردة في ميدان مسئولية المسلم، وقد فصلها منهاج الله وفصل شروطها وأحكامها، حتى لا يكون عذر لأحد في تقصير.

وربما يخلط بعضهم بين المجموعة الأُولى من الأحاديث: «**ظلال مع عالم الغيب**»، وبين هذه المجموعة من «**ظلال مع عالم المشهد**»، ليستنتج أن من تلفّظ بالشهادتين فلا حق لأحد أن يطالبه بأركان الإسلام وبالتكاليف الشرعية المنصوص عليها في منهاج الله. وهذا الخلط خطأ كبير. فالأحاديث الأُولى تتعلق بالغيب وبقضية هي من أمر الله وحده. والأحاديث الثانية تؤكد المسئولية في الحياة الدنيا، في عالم المشهد. إنها مسئولية الإنسان.

والمسئولية في هذه الأحاديث الشريفة تأتي من ناحيتين: مسئولية المسلم نفسه، مسئوليته في تحقيق معاني التوحيد في واقع الحياة، على أساس من القرآن والسنة. إنه مسئول عن تنفيذ ذلك، مطالب به في الدنيا، محاسب عليه في الدنيا، على قواعد منهاج الله. وكذلك مسئولية خليفة رسول الله، مسئولية ولي الأمر، ليتابع الأمانة في رعاية المسلمين وفي محاسبتهم في الدنيا، وفي تنفيذ منهاج الله وأحكامه في كل من يقصرٍّ في حق من حقوق الله، وقاعدة من قواعد التوحيد، وإقامة الحدود، وحماية الأُمة المسلمة في ديارها وثرواتها وأعراضها، لتظلَّ أُمة واحدة قانتة لله.

ولقد أشار الرسول ﷺ إلى خطورة هذه المسئولية وعظمها بقوله: «**أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا . . .**». وأشار أبو بكر رضي الله عنه إلى خطورة هذه المسئولية كذلك بقوله: «. . . **والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه**». وكذلك بقوله: «**والله لأُقاتلنّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة**».

ويأتي قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليعلن عظمة فقه أبي بكر رضي الله عنه، وجلاءه وصدقه، فيقول: فوالله! ما هو إلا أن رأيت أن الله عزّ وجلّ قد شرح صدر أبي بكر للقتال. فعرفتُ أنه الحق.

ليس لأحد أن يقول وقد ترك الصلاة مثلاً: إن الصلاة شيء خاص بيني وبين ربي، ليس لأحد أن يتدخّل في ذلك. هذه مغالطة انتشرت في واقعنا اليوم انتشاراً واسعاً

حملت معها ضياع المسئولية وتفلّتها.

فلابد إذن أن يكون من أهم ما ينبِّه إليه الداعية وهو يدعو، عظمُ المسئولية في الحياة الدنيا، وأن التفريط بها يحمل معه الإثم والمعصية، مما يزيد من شدة الحساب بين يدي الله. لابد من التوعية حول أهمية التكاليف وخطورة التفريط بها، وأنها في الأساس، قضية يحاسب عليها المسلم في الحياة الدنيا، على أساس من منهاج الله. وأن الحساب في الحياة الدنيا قد يشتدُّ حتى يبلغ حدّ القتال.

ولكننا في الوقت ذاته نشير إلى أن هذه المحاسبة هي من مسئولية خليفة المسلمين في الأمة الواحدة ومسئولية حكومته. إنها مسئولية ولي الأمر في ديار المسلمين. إنها اختصاص السلطة الشرعية المنوط بها إقامة الحدود، السلطة التي بيدها قوة التنفيذ، فتُستأمَن على إقامة شرع الله في الأرض، في جميع ميادين الأُمة. وعلى هذا يكون حسابها يوم القيامة بين يدي الله.

أما المسلم الفرد فله مسئولية كذلك. ويمكن رسم دائرة مسئوليته في نطاق النَّصيحة من ناحية، والدعوة والتدريب من ناحية أخرى، ذلك على ضوء الواقع المحيط. وكذلك قول كلمة الحق والتعاون على البّر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنهوض إلى حماية الدين وأُمة الإسلام، وديار المسلمين، والجهاد في سبيل الله، وغير ذلك من التكاليف التي يأمره بها الله سبحانه وتعالى.

ويجب أن لا تختلط هذه الأحاديث مع ما ورد من أحاديث في تحريم قتل الكافر إذا قال: لا إله إلا الله. فلا تعارض بين هذه وتلك، ولكن هذه الأحاديث وتلك، يشرح كل منها قضية تختلف عن الأُخرى، كما سنبيّن أدناه.

٣ - النية بين الغيب والمشهد:

لقد جعل الله سبحانه وتعالى المحاسبة على النيّةَ من أمره، هو يحاسب عليها لأنه هو وحده يعلمها، ولا مجال للناس أن تشقّ صدور الخلق لتعرف ما تطويه الصدور. ولكنّ هذا لا يتعارض مع واجب مطالبة الإنسان أن يكون لنيّته أمارات تصدِّقها فيما يتعلق بحقوق العباد، وبأداء الواجبات، وبالخضوع إلى شرع الله.

وتقف مسئولية الإنسان عند المحاسبة على ظاهر العمل والأمارات، وعند المطالبة

بأداء الواجبات والوفاء بالحقوق، وعند الخضوع الواضح لشرع الله. فظاهر العمل وأمارات النيّة هي من أمر المشهد في الحياة الدنيا، وأما حقيقة النيّة فهي من أمر الغيب لا يعلمها إلا الله.

فعن المقداد بن الأسود أنه قال: يارسول الله! أرأيتَ إن لقيتُ رجُلاً من الكفار فقاتلني، فضرب إحدى يديّ بالسيف فقطعها. ثمَّ لاذ مني بشجرة فقال: أسلمتُ لله. أفأقتله يارسول الله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: «لا تقتله». قال فقلت يارسول الله! إنه قطع يدي ثمَّ قال ذلك بعد أن قطعها، أفأقتله؟ قال رسول الله ﷺ: «لا تقتله. فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله. وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال» (رواه مسلم)[1]

نقلة واسعة في حياة البشرية يعرضها لنا هذا الحديث من خلال الحوار بين رسول الله ﷺ ورجل من أصحابه. ويكاد الصحابيّ لا يطيق أن لا يقتل الرجل الذي قطع يده، ثم لاذ بالشجرة فقال أسلمت لله. كيف لا يقتله وقد قطع يده، وقد يكون كاذباً حين قال أسلمت لله؟! منطق الصحابي مختلف، متأثر بما حمله في تاريخه من سجايا وأعراف، جاء الإسلام ليعدّلها فينفي الظلم ويثبّت الحق على ميزان رباني، ومنهج لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولكن المقداد ظلَّ التلميذ المؤمن بين يدي النبوة، يتعلم ويؤمن بما يتعلم. نقلة واسعة في حياة البشرية في مفهوم الحرّية والعدالة في الأرض كلها! مَنْ مِنْ شعوب الأرض كلها استطاع أن ينهض بقوانينه إلى هذا المستوى؟. لقد تعلم المقداد رضي الله عنه هذا الدرس وآمن به، وتعلمه الصحابة وآمنوا به، ونقلوه لنا!

وعن أسامة بن زيد قال: : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية. فصبَّحنا الحُرُقات من جهينة (الحرقات موضع ببلاد جهينة). فأدركتُ رجلاً فقال: لا إله إلا الله. فطعنته فوقع في نفسي من ذلك. فذكرته للنبيّ ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «أقال لا إله إلا الله وقتلته؟» قال قلت: يارسول الله! إنما قالها خوفاً من السلاح. قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟!» فمازال يكررها عليّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ. (رواه مسلم)[2]

وفي رواية أخرى: «فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة» قال: «يارسول

(١) صحيح مسلم: كتاب (١). باب (٤١). حديث (٩٥).
(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١). باب (٤١). حديث ٩٦/ ١٥٨.

الله استغفر لي» . فجعل لا يزيد على أن يقول : «كيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة»[1] .

كل مبادىء الشرق والغرب ، وكل فكرهم وأدبهم ، وكلُّ لجان حقوق الإنسان ، وكل قوانين الديمقراطية لم تستطع أن تحترم الإنسان هذا الاحترام ، ولا أن تصون كرامتـه هذا الصـون ، ولا أن توفّر له من العدل والحريّة ما توفره هذه الأحاديث ، والآيات ، ومنهاج الله كله . حضارة العالم المتقدم اليوم سحقت الإنسان سحقاً تحت شعـارات مزخرفة ، سحقته تحت دفقات المخدرات والكحول والجنس ، أو سحقته تحت الـدبـابـات والقنابل وأقدام الغزاة ، وأغرته بشعار كاذب من الحرية والعدالة والإخـاء ، لم يكن له من رصيد في واقـع الحياة إلا بمقدار ما تمليه المصالح المادية والشهوات الثائرة . كلُّ تلك المبادىء والأفكار والآداب والفنون لم تقدم للإنسان إلا العمارات الشاهقة والصناعة المتقدمة والإدارة ، بعد أن أنسته نفسه فلم تَدَعْ له فرصةً ليتأمَّل أو يتفكَّر ولا فسحة ليعود إلى نفسه وينظر إلى آخرته ، حتى غرق في بحر ماديّ هائج مائج مما يسمّيه الناس حضارة .

أما أحاديث رسول الله ﷺ ، أما منهاج الله كله ، فإنه يقدم للبشرية حرية وعدالة وإخاء أصدق وأصفى وأجل . إن عظمة العدالة والحرية والإخاء تنبع من قول : لا إله إلا الله ، تنبع من التوحيد ، من اليقين ، من الإيمان . إنها ترتبط بأوثق رباط وأشد عروة . وإنها تصبح إيمان كل مسلم ، كل إنسان آمن فاستمسك بكتاب الله وسنة نبيه ، فعرف حقوقه وحقوق الآخرين ، فلم تضع في متاهات وظلمات وأهواء .

وإن جهل المسلمين اليوم بذلك ، وانصراف بعضهم عن ممارسته ، واتباع بعضهم فنون الشرق والغرب ، أو خضوع بعضهم لأهوائهم وشهواتهم ، إن هذا كله لا يعطل عظمة هذا الفكر الذي نحن بحاجة إليه ، والعالم كله بحاجة إليه . **«كيف تصنع بلا إلـه إلا الله يوم القيامة؟!»** ستظل إعلاناً من النبوة الخاتمة ، إعلاناً مدوياً يملأ الدنيا كلها ، إعلاناً يحمي كرامة الإنسان وحقوقه وحريته!

هذه المجمـوعـة الثالثة من الأحاديث الشريفة تعرض لنا موقفين في آن واحد . موقف في الدنيا ، حين ينهى الحديث بصورة حاسمة جليّة عن قتل من أعلن إسلامه

(١) صحيح مسلم : كتاب (١) باب (٤١) حديث رقم ٩٧/ ١٦٠.

أو قال لا إله إلا الله. ولن تكون من شأنك أنت أيها المسلم أن تحكم على نيّته، أقالها صادقاً أم منافقاً. فذلك أمر يعلمه الله وحده، وهو وحده يقضي به. هذه قضية يجب أن تكون جلية كل الجلاء. إنها من أمر الغيب، وتخضع في ذلك إلى كل ما ذكرناه عن مجموعة الأحاديث الأولى. فهنالك موقفان إذن: عالم الغيب وتعلق النية، وعالم المشهد ومسئولية الإنسان.

ومن ناحية أخرى، فإن الموقف لا ينتهي هنا على هذه الصورة في الحياة الدنيا. نعم، أما وقد شهد أن لا إله إلا الله فلا حق لك في قتله أبداً، ولكن هنالك حق آخر يطالَبُ به. فهو حين أعلن الشهادتين دخل الإسلام، وأصبح له ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين. ولذلك يطالَب بأن يُؤدي حقَّ الشهادتين، بأن يعبُد الله ولا يشرك به، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، ويحجّ إن استطاع سبيلاً، ويؤدي تكاليف الإسلام كلها، يُطالَب بها كما يأمر شرع الله، ويُطالَبُ بها كما يطالَبُ سائر المسلمين. فإن قَصّر في شيء من ذلك فيُطبَّق عليه شرع الله، مهما كانت نيته.

إذن يُطالَب الإنسانُ بعد الشهادتين بتنفيذ مقتضاهما وتأدية حقوقهما، والوفاء بعهدهما. ولا يُكتفى منه بالقول المجرد الذي لا يترتب عليه مسئوليات، فيترك وشأنه. وتخضع هذه المجموعة الثالثة من الأحاديث، من هذه الناحية، إلى كل ما ذكرناه عن أحاديث المجموعة الثانية، الأحاديث التي تتعلق بالمشهد، بمسئولية الإنسان في الحياة الدنيا.

لابد أن نتذكر هنا كل ما ذكرناه عن التوحيد وخصائصه. فشهادة أن لا إله إلا الله تمثل عَهْداً والتزاماً، تمثل عهداً أخذه الله من بني آدم من ظهورهم، وفطرهم عليه، ووفّر لهم الحماية لهذه الفطرة وهذا العهد، حتى لا يكون لأحد عذر في تفلت.

فإن كان في الآخرة حساب بين يدي الله، حساب يضع الله له الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً، فهنالك مسئولية في الحياة الدنيا وحساب عليها أمر الله به. ولا يأتي الحسابُ في الحياة الدنيا مجرّد حساب، ولكنه جزء من إعداد وتربية وبناء، وجزء من تذكير وموعظة وهداية، ليقوم بذلك كله صلاح الإنسان على الأرض، ولدرء الفساد، وحماية الفطرة، ونشر الخير والعمل الصالح، على محجّة

بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

شهادة أن لا إله إلا الله تمثل في واقع الحياة الدنيا توحيداً خالصاً لله، وعبودية خالصة له، وتمثل ولاء العبد المؤمن لربه، ولاءً ينشأ عنه كل ولاء في الحياة الدنيا، وتمثل عهد العبد المؤمن مع ربه، عهداً تنشأ عنه كل عهود الدنيا وترتبط به، حتى تصبح كلها «**عهد الله**». وتمثل كذلك التزام منهاج الله قرآناً وسنة، المنهاج الذي أنزله الله على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

ولكن واقعنا اليوم واقع المسلمين في شتى أنحاء الأرض يحتاجون أكثر من أي عهد مضى، إلى جمع الأحاديث والآيات في صدورهم، حتى ينجلي التناسق وتسهل الممارسة الإيمانية في هذا الواقع.

فقد نشأ في واقع المسلمين اليوم طبقة من الناس ينتسبون إلى الإسلام، يقولون بالشهادتين لو سألتهم، ثم يكتفون بها. فلا يشعرون بضرورة الصلاة أو الزكاة، وتغيب عن قلوبهم نصوص أحاديث رسول الله ﷺ: «**أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا... ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة...**». تغيب عن قلوبهم نصوص القرآن والسنة. ثمَّ يقولون لك: هل شققت عن قلبي؟ وما علاقتك بي؟ هذا أمر بيني وبين الله فلا تتدخل به. ويمكن أن نسمي هذه الطبقة «**بالطبقة العائمة**» اصطلاحاً.

هذه الطبقة، تحتاج منا في واقعنا اليوم أن ندعوها، وأن نبيّن لها حقيقة الإسلام، حقيقة الشهادتين، حقيقة ما يترتب عليهما. إن مسئوليتنا اليوم، في كثير من مناطق العالم الإسلامي تفرض علينا أن نكون دعاة حقيقيين نبيّن للناس الخطأ الذي يرتكبونه، أكثر من أن نكون قضاة، ننصِّب أنفسنا لنصدر أحكاماً لا نملك القدرة على تنفيذها ولا نستطيع الوفاء بمتطلباتها ونتائجها.

من هنا يظهر لنا دور الدعوة الإسلامية التي يجب أن تمضي في الأرض في كل زمن لتتعهد وتدعو، وتبني وتربي، وتدفع للأمة رجالاً عرفوا النهج الحق والممارسة الأقرب للتقوى.

الفصل الرابع

التوحيد والممارسة الإيمانية

إذا كان الإيمان والتوحيد يمثلان أخطر قضية في حياة الإنسان، ويمثلان الحقيقة الكبرى في هذا الكون كله، فإن هذه القضية هي التي تلعب الدور الأساسيّ في حقيقة عمل الإنسان على الأرض، في حقيقة ممارساته ونشاطه وسلوكه كله.

ويأخذ التوحيد صورته المشرقة المتكاملة حين يصبح الموجّه الرئيسي لسلوك الإنسان، والحافز الصادق لنشاطه، والنبع الصافي لفكره وتصوره.

إن التوحيد يمثل العامل الأوَّل الذي يرسم الممارسة الإيمانيّة والعمل الصالح. نعم قد يكون هنالك عوامل أُخرى تؤثر وتوجه، ولكن جميع هذه العوامل تنبع من التوحيد وترتبط به، وهي تفقد أثرها وقوّتها إذا انفصلت عن التوحيد.

إن التوحيد هو أساس التصور الإيماني كله، الإيمان بالله والملائكة، والكتب والرسل، والبعث والحساب، والجنة والنار، والقضاء والقدر. وبغير التوحيد يضطرب التصوُّر ويختلط، ويفسد ويتعطل، ويمضي إلى شرك وكفر. وترى مثل ذلك عند أهل الكتاب، وعند كثير من الفرق والطوائف التي أضلها الشيطان، والتي دفعها التاريخ في درب الفساد وميدان الإفساد في الأرض.

والتوحيد هو أساس كلِّ علم. هو أساس العلم بمنهاج الله، قرآناً وسنة. ومنهاج الله يجب أن يكون أساس العلوم كلها، حتى تصدق العلوم وتصبح خيراً في حياة الإنسان. وبدون هذا الارتباط تصبح العلوم لدى الناس مصدر فتنة وفساد وشرّ. وواقع الإنسان اليوم في المجتمعات المادية، والمجتمعات المنحرفة مثل على ذلك.

وإذا كانت المواهب والقدرات عاملاً مؤثراً في عمل الإنسان وعطائه، فإنها لا تصدق بعطائها الخيِّر، إلا إذا ارتبطت بالتوحيد. وبدون التوحيد تظل مهدَّدة لتصبح عامل فتنة وشر وفساد، شأنها شأن العلوم، إلا بمقدار ما يبقى في الفطرة المشوّهة من ملامح تقوى، وقدرة كبح، وقوة توجيه. ولكن الأعمال كلها تفقد في جميع الحالات بركتها وأجرها عند الله إذا انقطعت عن التوحيد، مهما تكن المواهب والقدرات، ومهما

نما العلم وزاد، ومهما بدا للناس من خير ظاهري هنا أو هناك، في ظاهر محدود ومؤقت من الحياة الدنيا.

إن التصوّر الإيمانيّ، والعلم، والوسع والطاقة، والموهبة والقدرة، كُلُّ ذلك يكوِّن عوامل مساعدة مؤثرة في عمل الإنسان. ولكن تأثيرها يعتمد على مقدار ما ترتبط هذه العوامل بالتوحيد، وعلى صدق انطلاقها من التوحيد. إنها تصبح عوامل خير وبركة، مساعدة ومؤثرة، عندما تنبع من التوحيد، وترتوي منه.

١ ـ أهم الميادين التي يؤثر فيها التوحيد :

من هنا نرى أهمية تأثير التوحيد على حقيقة الممارسة الإيمانية. إنه تأثير شامل أساسيٌّ بالغ مدى بعيداً. إنه العامل الوحيد الذي ينبع منه الخير والحقُّ والجمال في عمل الإنسان، في الحياة، في الكون كله.

ولنوضح حقيقة هذا التأثير نعرض نقاطاً ونماذج لتلقي ضوءاً ولترسم نهجاً. ولكنّ التوضيح التام نجده في منهاج الله وحده. ونحن لا نستطيع هنا أن نعرض أكثر من قبسات.

أ ـ التوحيد والنية :

النيّة هي الخطوة الأُولى في الممارسة الإيمانية. هي ركن في الشعائر التعبدية، وهي محور صلاح عمل الإنسان كله، ومنطلق السعي المقبول عند الله، وقاعدة للأجر والثواب، والقوّة الدافعة للعمل والموجهة إليه. وهي الرَّيُّ الذي يمتدّ في جميع نواحي فطرة الإنسان. النيّة الصالحة تروي فطرة الإنسان في جميع نواحيها ريّاً عادلاً غنيّاً، حتى تظلّ الفطرةُ محافظة على توازنها العادل، وموازنتها الأمينة، وقدراتها العاملة. بغير النيّة الصادقة قد تنمو طاقة وتضمر أُخرى، ذلك حين يتجه الريُّ إلى ناحية وينقطع عن ناحية. حين تغيب النيّة الصادقة ينمو الحبُّ في ناحية من فطرة الإنسان حتى يتحول إلى عصبية جاهلية، وتنمو الشهوة الجنسية حتى يتغلب الفجور، وينمو الميل والهوى حتى يصبح فتنة وعدواناً. النيّة النابعة من التوحيد هي التي توزع الريّ على طاقات الفطرة حتى تحفظ فيها الموازنة الأمينة العادلة. بالتوحيد، بالنية النابعة منه، يمكن أن يظل حبُّ دار الإسلام خيراً وصلاحاً، وبرُّ الوالدين خيراً وفلاحاً، والشهوة

الجنسية سكناً وطهارة، ورحماً موصولة، والجهادُ دعوةً لله ولرسوله وبلاغاً لدين الله. وبغير النيّة النابعة من التوحيد يصبح حبُّ الوطن عصبية جاهلية وفساداً، وبرُّ الوالدين عصبية مؤذية أو قوة لباطل، والشهوة الجنسية فجوراً وتهتكاً وأمراضاً، وفاحشةً وساءت سبيلاً، زناً وشرّاً، والقتال يصبح عدواناً وظلمًا وفساداً. وقس على ذلك.

إن النيّة النابعة من التوحيد تظل طاهرة مشرقة، عاملة بالخير، كابحة للشّر. عندما تحدِّثُ النفسُ بشرٍ، فلا أحد يعلم ما يدور في النفس إلا الله. ويمضي الإنسان تحدثه نفسه بالشر حتى ينتقل إلى مرحلة التنفيذ، لا يردعه عن الشرِّ شيء مادام الشيطان يزيّنه له، ومادام التوحيد غائباً عن قلبه. إلا المؤمن الذي يعمر قلبَه التوحيدُ فإن التوحيد يوفرّ له ما يلجم هواه، وما يكبح شرّه. إنه يتذكرَّ أن الله مطلع على ما في صدره، يعلم ما توسوس به نفسه، وأنه هو وحده سبحانه وتعالى مطلع على ذلك، وأنه سيحاسبه يوم الحساب، وقد يكشفه في الدنيا، والله على كل شيء قدير، فعّال لما يريد. إنه يتذكر قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الملك: ١٣)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾. (ق: ١٦)

وآيات كثيرة وأحاديث عديدة تتزاحم في صدر المؤمن، المرتبط بربِّه وخالقه، على عهد وميثاق، حتى يعود فيحاسب نفسه، ويرتدع عن غيّه، فيهديه الله إلى سواء السبيل، كلما وسوس له الشيطان بسوء.

هذا هو دور التوحيد، الدور العظيم، في حياة ابن آدم، يصحح نيّته، ويلجم هواه، ويطلق سعيه المبارك إلى الخير والصلاح. هذا هو الدور العظيم للتوحيد في أول خطوة من خطوات الممارسة الإيمانية، حين ترتبط النيّة بالتوحيد، فيعمل عندئذ الإيمان بكل خصائصه، والعلم بكل مداه والوسع بكل طاقته، لتصدق النيّة مع الله، ولتخلص لله، فيمتد نور فيّاض يشقُّ الدرب وينير السبيل! وتعمل النيّة عندئذ في فطرة الإنسان، حتى تظل طاهرة نقيّة، سويّة متوازنة.

وبذلك تصبح النيّة النابعة من التوحيد نبعاً غنيّاً يمُدَّ عمل الإنسان الصالح

ونشاطه كله بالريّ والجمال. وتصبح النيّة بذلك مصدر الجمال في العمل الأدبي، في النثر والشعر، ولكنه الجمال الذي يُحسُّ به المؤمن ولا يحسُّ به الكافر. وفي مدرسة الإسلام يتمّ تدريب النفس على صدق النية وصفاء الإخلاص لله سبحانه وتعالى، بالآيات والأحاديث، ونماذج من السيرة ومن حياة الصحابة، ومدى الخطر الذي يهدد واقعنا اليوم إذا غابت النيّة أو فسدت.

ب ـ التوحيد والتصور الإيماني والفكر :

لاشكَّ أن الفكر يؤثر في عمل الإنسان وسعيه. وعلى أساس من الفكر الذي يحمله والتصور الذي يملأ قلبه يضع الإنسان نهجه ويرسم دربه ويحدِّد رأيه وكلمته وخطوته.

فإذا استقرَّ التوحيد بكامل خَصَائِصه في القلب، انطلق التصوّر والفكر على أساس سليم، وانطلق النهج بعد ذلك على درب مستقيم. إذا اضطرب التوحيد أو انحرف فإن التصور الإيمانيّ كله يضطرب بعد ذلك وينحرف أيضاً، وكذلك التفكير. ثم يضطرب النهج وينحرف، ويضطرب الرأي والكلمة والموقف.

ولقد سبق أن تحدثنا عن نماذج الانحراف في التوحيد، وعرضنا قبسات من آيات بينات، ورأينا مدى تأثير هذا الانحراف على الرأي والكلمة والموقف والخطوة. ولا بأس أن نذكر هنا أنفسنا بنقاط هامة من ذلك.

إن أخطر صور الانحراف عن التوحيد، وأكثرها شيوعاً في تاريخ البشرية هي حين يؤمن بعض الناس بصفة واحدة من صفات الله، معزولة عن سائر صفاته سبحانه وتعالى وأسمائه الحسنى. في هذه الحالة يفرز لهم تصورهم إلهاً آخر غير الله، أو آلهة أخرى متعددة. قد يتصورون إلهاً خالقاً، ويؤمنون بهذه الصفة، ولكنهم لا يؤمنون بالله الواحد الأحد بكامل صفاته وأسمائه الحسنى جميعها، مترابطة متناسقة، تعمل كلها معاً في فكره وتصوره، ليستقر في قلبه المعنى الحقُّ للتوحيد. إنهم لا يؤمنون بإله عليم حكيم خبير، فعّال لما يريد، على كل شيء قدير، له ملك السموات والأرض، إليه ترجع الأمور. إنهم لا يؤمنون بأن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين. إنهم لا يؤمنون بالقضاء والقدر. إنهم لا يؤمنون بذلك كله ولا بكثير غيره. إنهم يؤمنون بأن الله خالق

فقط أو أنه خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، ونزَّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها. طائفة تؤمن بهذه الصفة، وطائفة أخرى تؤمن بصفتين، وطوائف شتى وتصورات مضطربة أفرزت صوراً مضطربة للألوهية، صوراً أوقعتهم في شرك وضلال. ولنستمع إلى قبسات من كتاب الله:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(لقمان: ٢٥)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

(العنكبوت: ٦١)

هذا نموذج من نماذج الانحراف عن التوحيد، جعل التصور الإيماني مختلطاً أدَّى بأصحابه إلى الشرك والهلاك. أدَّى بهم إلى أن يؤمنوا ببعض أسماء الله ويكفروا ببعضها الآخر، ثم يجعلوا أوثاناً لهم يعبدونها من دون الله أو يعبدونها لتقرِّبهم إلى الله زلفى.

ولكن نماذج الانحراف أكبر وأوسع، ولقد عرضناها سابقاً في فصل سابق. وهنا نعيد قبسات من آيات الله في هذا الصدد لنرى مدى تأثير الانحراف على التصوّر والفكر، ومدى تأثير ذلك كله على الممارسة الإيمانية كلها.

إذا انحرف التصور والفكر عن التوحيد، فكل نهج بعد ذلك ينحرف عن نهج الإيمان. وإذا انحرف النهج انحرفت الخطوة والكلمة والرأي والموقف. إن الانحراف عن التوحيد يؤثر في الحالة النفسية والعواطف والشعور. إن التوحيد يُعلِّم الإنسان أن الأجل محدود، والرزق مقدّر. وهذا الإيمان يضبط ويلجم ما في نفس الإنسان من حبٍّ للحياة العاجلة، ورغبة في المال وجمعه.

إن الانحراف عن التوحيد، مهما كان شكله ومقداره، ليؤثِّر في التصور والفكر والنهج والعمل. ولنستمع إلى آيات الله تجلو لنا ذلك:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾.

(المائدة: ٧٢)

وكذلك :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المائدة : ٧٣)

ونرى الأثر الواسع لانحراف الفكر عن التوحيد في العمل والتطبيق آيات كثيرة في كتاب الله :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (المائدة : ٧٨ - ٨٠)

نرى من الآيات الكريمة السابقة كيف أدَّى الانحراف عن التوحيد إلى الشرك : ﴿ . . . **إنه من يشرك بالله** . . . ﴾ ، وإلى الكفر : ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** . . . ﴾ . ومضت الآيات تحضّ على التوحيد وتعرض أسسه . ونرى من الآية الأخيرة أعلاه أثر الانحراف على العمل والتطبيق : ﴿ . . . **ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه** . . . . ﴾ . يؤدي الانحراف إذن إلى الظلم والمعصية والعدوان ، إلى سوء الممارسة .

إن هذا التوجيه الربّاني لا ينحصر على بني إسرائيل وحدهم ، وإنما يمسُّ كل من سلك هذا السبيل وأصابه هذا الانحراف . ألا نرى أنَّ واقعنا اليوم أصابه بعض ما تعرضه الآيات الكريمة : ﴿ . . . **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه** . . . ﴾ . ولقد بلغ الشطط مداه في بني إسرائيل حين أدى بهم الانحراف عن التوحيد إلى أسوأ عمل وأسوأ ممارسة وأقبح جريمة : ﴿ . . . **ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون**﴾ أليس بيننا اليوم من يتولون الذين كفروا؟ .

إنه انحراف واسع ، وعمل باطل قبيح مفسد ، امتدَّ حتى سخط الله عليهم ، وما أشدَّ سخط الله ، وجعلهم في العذاب خالدين .

فلننظر في واقعنا اليوم، ولننظر إلى أي مدى يَعْمر التوحيدُ قلوبَ الناس، وإلى أيِّ مدى تصدق التصوّرات ويصحُّ الفكر. إنَّ الانحراف في بني إسرائيل دفعهم إلى أن يتولوا الذين كفروا، بئس العمل وبئس الولاء، فسخط الله عليهم، ورماهم خالدين في العذاب.

إن منهاج الله يقدم لنا نماذج عديدة عن تأثير الانحراف عن التوحيد في التصور والفكر. إن التوحيد يحمل معه التصوّر المتميّز لكل شئون الحياة والكون، من أصغر شيء فيه إلى أكبر شيء.

يظل التوحيد يعمل في قلب الإنسان وفي نفسه، ليصوغ له تصوره الإيماني المتميّز، وفكره المتميز، ورؤيته المتميزة. ويجلو منهاج الله التوحيد حتى يصبح عمل التوحيد في القلب والنفس أقوى وأشدَّ حين يتلو المسلم آيات الله، ويعيش مع أحاديث رسوله. يأتي العلم بمنهاج الله قرآناً وسنّة فيجلو الإيمان بإذن الله، ويثبِّت التوحيد، لمن أراد الله له الهداية. فينطلق التوحيد على إيمان وعلم ليصوغ أجمل صياغة، ويشرق أجمل إشراق.

إن المؤمن الصادق العالم بمنهاج الله يردُّ قضاياه كلها إلى منهاج الله، ذلك لأن هذا الردَّ إلى منهاج الله جزءٌ أساسيٌّ من التوحيد. فلو ردّ المسلم قضاياه إلى غير منهاج الله اضطرب التوحيد حتى ينحرف. وإذا اضطرب التوحيد وانحرف اضطرب معه النهج وانحرف، واضطربت الكلمة وانحرفت، وكذلك الرأي والموقف والسلوك.

للمؤمن رؤيته المتميّزة للواقع وأحداثه. إنها رؤية تنبع من ردِّ الواقع إلى منهاج الله، فيصوغ التوحيد بذلك الرؤية المتميّزة. إنها رؤية متميزة يصوغها التوحيد في كل ميدان من ميادين الحياة والواقع والكون. ولا يمنع هذا من أن تلتقي رؤية المؤمن ورؤية غير المؤمن لأمر أو حدث أو نظرية علمية. ولكن هذا الالتقاء يظل محدوداً في الظواهر المادية، الظواهر التي يراها الإنسان على أحد حالتين: فهو إما يرى المظهر الماديَّ ويقف عنده وهذا أبعد ما يراه غير المؤمن، وإما أن يربط هذا المظهر الماديَّ بخالقه، ويربطه مع نظام الكون، فتمتد النظرة امتداد الإيمان والتوحيد، لترتبط الظواهر المادية كلها مع جوهر الحياة، مع الحقيقة الكبرى في الكون. فالمؤمن أو غير المؤمن يرى في

الموت ظاهرة توقف القلب وتوقف نشاط سائر الأعضاء. ولكن المؤمن يرى في الموت ما لا يراه الكـافر. يرى المؤمن البرزخ إلى يوم القيامة، ويرى ضمّـة القبر وعذاب القبر، ويرى البعث والحساب والجزاء. يرى المؤمن في الولادة ما يراه الكافر من ظواهر مادية، ويرى ما لا يراه الكافر آيات بينات تدلُّ على وجود الله الواحد الأحد. تصوّر إيماني متميز في كل ميادين الحياة، تميّز تحمله نظرة المؤمن يصوغها له التوحيد، تصوغها له الحقيقة الكبرى في الكون. وأنى للكافر مثل ذلك.

إن هذا التصور الإيماني المتميّز لا ينحصر في ميدان دون ميدان، إنه في شعائر العبادة، في الدعوة والبلاغ، في التربية والبناء، في الجهاد في سبيل الله، في السياسة والاقتصاد والاجتماع، إنه في الأدب شعره ونثره، إنه في عمارة الأرض وأداء الأمانة، والقيام بالخـلافـة، وأداء العبادة. إنها مع الابتلاء، مع الرضاء والحزن، والبسمة والـدمعـة، والسعي والراحة. إنه ذكر الله، الذكر الدائم الذي لا يغيب عن قلب المؤمن، يدفعه التوحيد تصوراً إيمانياً، وفكراً ماضياً مع الإنسان في كل حالاته، يوجهه منهاج الله قرآناً وسنة!

في كل سورة في كتاب الله، ومع كل حديثٍ لرسول الله ﷺ نموذج لهذا التصور الإيماني الذي يصوغه التوحيد. إننا لا نستطيع هنا أن نوفي هذا التصور حقَّه أبداً، ولا يستطيع أحد ذلك، ولكن منهاج الله، قرآناً وسنة، هو وحده الذي يوفي بذلك.

جـ ـ التوحيد والصياغة النفسية :

إن التوحيد لا ينحصر أثره في النيّة والتصور الإيمانيّ والفكر، إنه يمتد إلى النفس ليصـوغ حالاتهـا النفسية، ليصوغ لها فرحها وحزنها، ورضاءها وغضبها، وخوفها واطمئنـانها، وعـزمهـا وتـرددها، وعجلتها وأناتها، وحبها وبغضها، وسائر حالاتها النفسية. إنَّ منهاج الله يعرض التوحيد عرضاً كاملاً فيعالج به نفس الإنسان وقلبه، ويربط ذلك كله ربطاً معجزاً مع معالجة الفكر والتصور، ومعالجة النيّة، ومعالجة جميع حالات الإنسان، ويربط ذلك كله بالتوحيد والإيمان. يرتبط ذلك كله ترابطاً متناسقاً متكاملاً، لا ينفصل شيء عن شيء.

ولنأخذ الفرح مثلاً. فالمؤمن يفرح لشيء ولأسباب، والكافر يفرح لأسباب أُخرى.

كذلك هنا قد يكون المظهر المادي واحداً هنا وهناك، رزق من المال مثلاً، أو زواج، أو منصب، أو ملبس جديد، أو غير ذلك. فالمؤمن يفرح وهو يوقن أن هذا فضل من الله، وأنه يفرح بفضل الله وبنعمته، وأن معاني فرح المؤمن الشكر لله والحمد:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨)

وانظر إلى صورة أخرى من الفرح يرسمها القرآن، فرح الكافر بالنعمة من الله يحسبها منه ومن جهده. فهذا قارون لما أُعطي مالاً وكنوزاً تنوء بالعصبة أُولي القوة، ظن أنه نال هذه النعمة بفضله هو، ونالها على علم عنده، ففرح فرح الكِبْر والبَطَر والغرور، فرح الكفر والفتنة، فخسف الله به وبداره الأرض:

﴿... إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦)

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ...﴾ (القصص: ٧٨)

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ...﴾ (القصص: ٨١)

وكذلك الحبُّ. فإن المؤمن لا يحبُّ إلا لله ولا يبغض إلا لله. ويظل أعلى حب عند المؤمن هو حبُّ الله ورسوله لا يعلو عليه حب أهل أو ولد أو مال أو نفس. هذا هو الحبُّ الذي يصوغه التوحيد، ليكون حب الله ورسوله هو ينبوع الحب في الحياة، يصدر عنه كل حب يتصل به.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (رواه مسلم)[١]

وعن أنس أيضاً عن النبيّ ﷺ قال: «ثلاث من كنّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان. من كان اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما. وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» (رواه مسلم)[٢]

وفي كتاب الله نجد التصوير الدقيق كذلك لهذه القضية. ونأخذ من كتاب الله قبسات:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ...﴾ (البقرة: ١٦٥)

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١). باب (١٦). حديث (٤٤/٦٩).
(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١). باب (١٥) حديث (٤٣/٦٧).

كم من الناس، يصلُّون ويصومون، ولكنهم يؤثرون القرابة ونصرتها على نصرة كلمة الله، أو يؤثرون نصرة سيد أو صاحب أو مصلحة على نصرة دين الله أو أمر الله!

هذا اللون من الشرك يسهل الانزلاق فيه، حين يزين الشيطان هذا الهوى أو ذاك، وقد نرى في واقعنا المعاصر نماذج بين الناس انزلقت في هذه الضلالة القاتلة.

ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة هنا، لنؤكد كما نؤكد دائماً، أن منهاج الله يعطي جميع التفاصيل في هذا الصدد وفي غيره، تفاصيل لا نستطيع الإحاطة بها هنا[1].

ولكن لابد من الإشارة إلى أن قضية «الحبّ» والتصور الإيماني قضيّةٌ تَمسُّ صميم مشاكِلنا، وصميم واقعنا اليوم. إن اضطراب التصور للحب كما يرسمه التوحيد هزَّ العلاقات كلَّها في المجتمع الإسلامي، ودمَّرها في المجتمع الإنساني. لقد أصبحت كلمة الحبُّ مقترنة بالشهوة الجنسية، وطغى هذا التصوُّر حتى صار محوراً أساسيّاً فيما يسمونه «الفنّ»، ومحوراً رئيسياً في الأدب، ومحوراً رئيسياً في سائر نواحي الفكر. وجاء المسرح والتمثيل ليغذي هذا التصور الفاسد. وامتد هذا التصور الفاسد إلى معاني الجمال لدى كثير من الناس.

وأدى اضطراب تصور الحبّ وانحرافه عن التوحيد إلى اضطراب قواعد أساسية في الإيمان، وفي علاقات الناس، وفي بناء المجتمع. إن التوحيد يطلب أن يكون «الولاء» الأول والأكبر هو لله سبحانه وتعالى ولرسوله. وأن ينبع كلُّ ولاء في الحياة الدنيا من الولاء لله رب العالمين. فلما اضطرب تصور التوحيد، اضطربت التصورات العاطفية والنفسية والفكرية، واضطرب الولاء تبعاً لذلك. وحين اضطرب تصور الولاء وانحرف، واضطربت ممارسته تبعاً لذلك وانحرفت، واستحل كثير من الناس بناء ولاءات لا تتفق والتصور الإيماني القائم على التوحيد. اضطربت بذلك الروابط الإيمانية، وانقطعت في كثير من الأحيان وشائج الأرحام، وسقط بعض الناس في أوحال علاقات غير كريمة، وصلات غير أمينة، وولاء مريب. وأصبحت الإقليمية والقومية، والعائلية والحزبية، أصبحت هذه كلها تمثل عصبيات جاهلية، تربط

(١) يُراجع كتاب: الشورى وممارستها الإيمانية، الباب الخامس، (ص: ٣٣٠)، لتوافر تفاصيل أوسع، وأدلة أكثر في هذا الموضوع.

الناس أو تمزقهم بجاهليتها. ولم يعد يُحسُّ كثير من الناس بحقيقة هذا الخطر، حتى امتد الولاء إلى عدوٍّ وانقطع عن صديق، واتصل بمجرم شقيّ وانقطع عن مؤمن تقيّ. اضطربت العلاقات كلها واهتزت وتقطعت، حتى لم تعد تعرف أين هي الروابط. ولكننا لا ننكر أن الله يحفظ لهذه الأمة دائماً من يصون ولاءه وحبه عن أن يدّنسَ أو يضطرب أو ينحرف. وسيبقى في هذه الأُمة نواة الخير مهما اشتد الظلام.

لابد من أن تنهض جهود حقيقية، جهود صادقة، لتبرز أهمية التوحيد في صياغة الحالات النفسيَّة كُلِّها وتوجيهها. ولا يستقيم التصوّر الإيماني إلا إذا أخذت النفوس مجراها السليم، وانطلقت العواطف في قنواتها الصادقة، وصدق الولاء الحقُّ، وصدق الحب، وصح الرجاء!

وكذلك فإن التوحيد يجعل القلب معلّقاً بالله في رجائه وآماله، وخوفه وخشيته، وسؤاله وطلبه. يصبح التوحيد هو الذي يصوغ الاطمئنان في النفوس:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)

وكذلك:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢)

ويظلّ المؤمن بين خشية ووجل، وبين سكينة واطمئنان. فهو إذا ابتلاه الله بشدة ذكر الله فاطمأن قلبه، وإذا ابتلاه الله بنعمة ذكر الله فوجل قلبه، وعرف أن الله هو الرزاق، هو الذي يعطي ويمنع.

هذه الصلة مع الله من رجاء وخشية، وسؤال وأمل، يرسمها لنا حديث رسول الله ﷺ:

عن أبي العباس عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبيّ ﷺ يوماً فقال: «ياغلام إني أُعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأُمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصحف». (رواه الترمذي وقال حسن صحيح)[1]

(١) سنن الترمذي ـ الجامع الصحيح ـ كتاب صفة القيامة (٣٨). باب (٥٩). حديث (٢٥١٦).

«**احفـظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**»! رجاء وأمل وثقة، «**وإذا سألت فاسأل الله**»! هذا هو التوحيد في أجمل صوره، وأوسع معانيه! «**واعلم أن الأُمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. . .**»! هكذا تنهار قوى الناس كلها أمام قوة الله ومشيئته، وهكذا تعمل كل قوى الكون لتحقق مشيئة الله، وليمضي قضاؤه وقدره!

﴿**. . . والله غالب على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون**﴾. (يوسف : ٢١)

هكذا يصوغ التوحيد النيّة والتصور والشعور والحالة النفسيّة، لينطلق الإنسان المؤمن عابداً خاشعاً، يحمل أمانة وعهداً، وليوفي بأمانة وعهد.

وانظر إلى هذه الصورة القرآنية ترسم التوحيد وهو يعمل في القلب والعقل، وفي النفس والشعور، يرسم ميادين الخوف وميادين الأمل والرجاء، ويشقُّ الدرب للمؤمن، ويحدِّد الولاء:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٤ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٨ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام : ١٤ - ١٩)

هذا هو التوحيد يصنع الإنسان المؤمن نيّة واتجاهاً، وعقلاً وتصوراً، وفكراً ونهجاً، وعاطفة وشعوراً، ليكون عبداً لله الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو، الله الذي لا شريك له، فاطر السموات والأرض!.

إن جميع الحالات النفسية للإنسان يدرسها منهاج الله دراسة مفصّلة معجزة، من خلال التوحيد بجميع خصائصه، وترتبط هذه الحالات النفسية مع الدراسة بجميع قدرات الإنسان ووسعه وفطرته ومعدنه. فاستمع إلى نماذج وقبسات من كتاب الله

تعرض بعض الحالات النفسية عرضاً ربّانياً:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ (المعارج : ١٩ - ٢٣)

تربط هذه الآيات الكريمة هذه الحالات النفسية بخلق الإنسان بطبيعته واستعداده. ثم تربطها كلها بالتوحيد والإيمان، وتعدِّد بعض قواعد التوحيد: مداومة إقامة الصلاة بخشوعها وصدقها، والإنفاق الحق على السائل والمحروم، والتصديق بيوم الدين، والإشفاق من عذاب الله، فهو عذابٌ غير مأمون. وحفظ الفروج عن الزنا، ورعاية العهد والأمانة، والقيام الصادق بالشهادة، والمحافظة على الصلاة! ميادين مفتحة للمؤمن ليمارس إيمانه فيها.

وتعرض سور كثيرة في كتاب الله هذه الحالات النفسية، وكذلك أحاديث رسول الله، عرضاً معجزاً لا غناء عنه أبداً للمؤمن في حياته، وهو يدعو ويجاهد، ويتعبّد، وهو يخوض ميادين الحياة.

إن هذا العرض في منهاج الله هو أساس علم النفس الإسلامي، علم النفس الذي يدرس قواعد معالجة نفس الإنسان في مدرسة الدعوة، وميادين التربية، وساحات العمل، لترتبط ارتباطاً حقّاً بالتوحيد، ولتصدُقَ بعد ذلك في ممارستها وتطبيقها.

إن علم النفس في الحياة الإسلامية يحمل أهدافاً واضحة متميّزة. إنه علم يقوم على أسس التوحيد والإيمان، وعلى أُسس واقع نفس الإنسان، ليكون التوحيد والإيمان باب علاج ومعالجة من ناحية، وليكون باب بناء وإعداد، وتوجيه وتكوين. ولن يجد الإنسان أغنى من زاد منهاج الله لانطلاق علم النفس الإسلامي، علماً متميّزاً بانطلاقه وأُسسه، وبأهدافه ومهمته، وبمسيرته ودربه.

لذلك ندعو أن تنصب الجهود والأبحاث والدراسات لتحقيق أهداف التوحيد في واقع حياة الإنسان على الأرض. وكذلك لمعالجة ما يحمله المجتمع البشريُّ عامة، والمجتمع المسلم المعاصر، من علل نفسية وأمراض فكرية. وكذلك لتوفير الزاد

الحقيقي للدعاة، الزاد الذي يعينهم حقاً على دعوة النفوس إلى الإيمان، إلى معرفة الأبـواب والمنـافذ إلى مداخل النفوس، وإلى تنقية المسالك حتى تصل الكلمة إلى القلب، إلى النفس، الكلمة الصادقة الطاهرة، الكلمة الذكيّة الواعية، الكلمة التي تأتي في وقتها المناسب، ومكانها المناسب، وأسلوبها المناسب!

لقـد ضجّ واقعنـا المعـاصر بالنـظريات المادية الوافدة من عالم الشيوعية أو عالم الـرأسمالية عن نفس الإنسان، وعن علم النفس. ويكاد الإنسان يقول إن هؤلاء الذين يدفعون لنا بضاعتهم هم أولُ المرضى في واقعنا اليوم، وهم أحوج الناس إلى علاج. وكذلك فإنَّ بضاعتهم مزجاة مادامت غير مرتبطة بمنهاج الله، وغير قائمة على أُسس التوحيد. ولكنّ المهمة تصبح مهمتنا حتى نأخذ من دراساتهم الماديّة ما يصدق في موازين العلم الماديّ، فنسخُره كما أمر الله سبحانه وتعالى، لخدمة الإيمان والتوحيد من ناحية، ولـلاستفـادة من الإيمان والتـوحيد في بناء النظريات المادية وتطويرها، وصياغتها صياغة إيمانية.

د ـ التوحيد وميدان العمل والتطبيق :

إن عمل الإنسان، أي إنسان، يؤثر فيه ويدفعه ويوجهه عوامل كثيرة. ولابد من دراسة هذه العوامل وفهمها في ميدان الدعوة الإسلامية، حتى نستطيع أن نضع منهج البنـاء والتدريب والتربية، لتوجيه الإنسان إلى صدق الممارسة الإيمانية، إلى العمل الصـالح. لابدَّ لهذه الدراسات أن تنهض في واقعنا المعاصر، حتى نستطيع تحقيق الهدف الكبير، الهدف العظيم، ألا وهو: صدق الممارسة الإيمانية، سلامة العمل الصالح.

ولتكـون الأهـداف واضحة جلية أمامنا، لابد أن نقرر مع اللحظة الأُولى هنا الهدف أو الأهداف التي نريد تحقيقها في الممارسة الإيمانية، في العمل الصالح. ولذلك نقول: إن الهدف الأول الذي يجب توفيره في الممارسة الإيمانية هو: **أن يكون العمل مقبولاً عند الله سبحانه وتعالى**. وبغير تحقيق هذا الهدف لا يكون للعمل قيمة أو أهمية يسعى الإسلام إلى تحقيقها.

وحتى يكون العمل مقبولاً عند الله يجب توافر شرطين، يجب تحقيقهما في العمل

حتى يكون عملاً صالحاً أو ممارسة إيمانية. وبغير توافر هذين الشرطين مجتمعين معاً، لا يغني أحدهما عن الآخر، فإن العمل لا يكون عملاً صالحاً، ولا يكون ممارسة إيمانيّة، وبذلك لا يكون مقبولاً عند الله، فيضيع جهد الإنسان في ميزان الإيمان والتوحيد، في ميزان الإسلام، هباءً منثوراً. هذان الشرطان هما :

أولاً : أن يكون العمل خالصاً لوجه الله. وهذه هي النيّة.

ثانياً: أن يكون خاضعاً لقواعد منهاج الله مطابقاً له.

من أجل ذلك يجب أن تنصبَّ الجهود في ميدان الدعوة الإسلامية، في واقعنا المعاصر، لتحقيق هذين الهدفين معاً تدريباً وإعداداً، بناء وتكويناً، تربيةً وتوجيهاً. إن الأمر لا يقف عند حفظ آية أو حديث، ولا عند لقاء وندوة، ولا عند قراءة مقالة أو كتاب. لا! إن هذا كله مفيد وضروري، ولكنه وحده قد لا يكفي، والهداية والتثبيت بيد الله، يهدي من يشاء ويضل من يشاء. لابد في أثناء محاولة تحقيق هذين الهدفين من إشراف مستمرّ وتوجيه دائم، ومراقبة حانية، ودراسات وأبحاث، وتقويم وتصحيح، ودراسة الأخطاء هنا وهناك، وشورى ورأي. لابد من تدريب طاقات الإنسان وقدراته، وتوجيهها ورعايتها.

إنها قضية هامة جداً في ميزان الإسلام. إنها تستحق قوة الجهود وعمق الدراسات، وجدية التجارب والمحاولات، لتحقيقها، ولتحقيق حقيقة الأهداف والإيمان.

نعم إنَّ الهداية بيد الله، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ولكن الله سبحانه وتعالى يجعل هدايته لعبد من عباده على يد هذا الداعية أو ذاك، أو على يد هذا الإنسان أو ذاك، على حكمة لله غالبة. والإنسان مكلف بالدعوة مأمور بها، فما عليه إلا أن يبذل جهده في ممارسة إيمانية تستوعب شروطها الإيمانية كلها.

إن تحقيق هذه الشروط يعني في حقيقة أمره ربط الإنسان بربِّه وخالقه، ربطاً إيمانياً صادقاً، ربطاً يكوِّنُ ولاءَه الأول لله، وحبَّه الأكبر الصادق لله ورسوله، وعهده الأشمل والأوسع مع الله، ربطاً إيمانياً صادقاً يدفعه لمصاحبة منهاج الله، قرآناً وسنّة، مصاحبة عمر وحياة، مصاحبة لا تتوقف أبداً، مصاحبة منهجيّة مدروسة، مصاحبة تغذِّي الإيمان والولاء والحب على وعي وجلاء، ربطاً يدفعه لدراسة الواقع دراسة يأخذ معها

من الواقع الموعظة والعبرة، دراسة من خلال منهاج الله تُيسِّر له ممارسة منهاج الله في الواقع.

إن هذه النقلة في حياة الإنسان هي نقلة هائلة ضخمة. إنها أعظم عمل يقوم به أيُّ إنسان في حياته، وهي أهم عمل كذلك. فلا عمل في حياة الإنسان، أيِّ إنسان، أعظم من هذه الوثبة ولا أهم منها. ومع هذه العظمة والأهمية، فهي عمل مُيسَّر لمن شاء الله له الهداية، عمل يكتسب يُسْرَه وسهولته من انسجامه مع الفطرة التي فطر الله الناسَ عليها، ومن تلبيته لحاجات هذه الفطرة نفسها، ومن استجابة قوى الكون كله لتحقيق حاجات هذه الفطرة، إذا صدقت النفسُ بنيَّتها، وصحت الأعمال بطهارتها ونقائها. إن قوى الكون كلها مسخَّرة بأمر الله لتحقيق أمر الله. ولكنّ هذا اليُسر لا يتعارض مع حقيقة ما يلقاه الإنسان من ابتلاء وتمحيص، ذلك لأن هذا الابتلاء سنّة من سنن الله وأمر من عنده، وعامل من عوامل نجاح الوثبة إذا صدقت النيّة وصحّت العزيمة.

وعند دراسة الممارسة الإيمانية والعمل الصالح في حياة الإنسان لابد من أن يعي الإنسان غاية حياته، وهدف وجوده، ومهمته في هذه الحياة الدنيا. لابد من أن تتوافر لدى الإنسان قناعة لحقيقة مهمته في حياته الدنيا، وغاية سعيه، ومنتهى دربه. وهذا التصوّر هو جزء من التوحيد والإيمان.

ولقد حدّد الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز مهمّة الإنسان على الأرض في الحياة الدنيا، وعبَّر القرآن الكريم بتعبيرات متعددة، نختار منها أربعة تعبيرات شاملة تعرض المهمة نفسها من ناحية من نواحيها، ومن خلال ظلٍّ من ظلالها. وهذه التعبيرات ذكرناها في أكثر من كتاب من كتب الدعوة، مع التأكيد عليها لأهميتها في سلامة التصوّر الإيماني، عرضناها مع الآيات الكريمة الدالة عليها. وهنا نوجزها بما يلي:

أولاً: العبادة.

ثانياً: الأمانة.

ثالثاً: الخلافة.

رابعاً: العمارة.

ويمضي الإنسان في الوفاء بهذه المهمة التي خُلِقَ لها من خلال ابتلاء وتمحيص، يكشف معدنه، ويجلو سجاياه، ويقيم له الحجة يوم القيامة أو يقيمها عليه.

والاختلاف سنّة من سنن الله في الحياة، جعله الله صورة من صور الابتلاء والتمحيص، وعاملاً من عوامل النمو والتطور، أو التراجع والتخلف، على ضوء ما يجعل منه الإنسان. فالإيمان والتوحيد يسخّر الاختلاف ليكون قوة من قوى النمو والتطور، والإحسان والإتقان[1].

إذن فَفَهْمُ مهمة الإنسان في حياته الدنيا ونهاية دربه فيها ضرورة لسلامة الممارسة الإيمانية. فالمؤمن يدرك ويؤمن أن الموت نقلة من الحياة الدنيا في برزخ يحمله إلى الدار الآخرة، يوم القيامة، يوم البعث والحساب، لينتهي الخلق كلهم إلى جنّة أو إلى نار.

هذا هو موجز مهمة الإنسان في حياته الدنيا، وموجز دربه ومسيرته.

بهذا التصور تكون الصورة واضحة أمام المؤمن، جليّة في مسيرته، لا تختلط عليه الأمور ولا تضطرب. وبمقدار ما يكون هذا التصوّر الإيماني جلياً، وبمقدار ما تكون المهمة واضحة، والغاية يقينية، بمقدار ذلك كله، وبمقدار صدق الرؤية، تكون الممارسة الإيمانيّة أقرب للتقوى وأدنى إلى الصواب.

ولابد من التأكيد على أن منهاج الله يوضح هذه القضية تفصيلاً وبياناً وتأكيداً.

من أجل ذلك كلِّه، ومن أجل تحقيق سلامة الممارسة الإيمانية، وتحقيق أهدافها كلها، فلابد من أن يقوم النهج والتخطيط على القواعد الأربع التالية:

أولاً: بناء الإيمان والتوحيد والدعوة لهما وحمايتهما في فطرة الإنسان.

ثانياً: المنهاج الرباني دراسةً وتدبراً وإيماناً وتصديقاً.

ثالثاً: الواقع الذي نعيش فيه ونعمل فيه، ودراسته من خلال المنهاج الرباني.

رابعاً: التدريب على ممارسة منهاج الله في الواقع البشريّ.

ويمكن أن نعتبر أن الأمانة التي يحملها الإنسان في الحياة الدنيا، الأمانة التي

---

(١) يراجع كتاب: الشورى وممارستها الإيمانية لتوافر تفصيلات أوسع في موضوع الاختلاف. الطبعة الثالثة، الباب الرابع (ص: ٢٢٩ ـ ٣٠٤).

سيحاسب عليها يوم القيامة، هي ممارسة منهاج الله في واقع حياة الإنسان. إنها الأمانة في صورتها الواسعة، في صورتها التي تشمل الصور الأخرى كلها فيها، تحمل معها أهدافها وجوهرها وصراطها المستقيم.

٢ ـ العوامل الرئيسية في الانسان التي تؤثر في الممارسة الايمانية :

ونعود بعد هذا العرض للنقطة الأولى التي ابتدأنا بها هذه الفقرة من هذا الفصل، ألا وهي العوامل التي تؤثر في طبيعة الممارسة الإيمانية في ميدان العمل والتطبيق.

ويمكن أن نقسم هذه العوامل إلى مجموعتين للتيسير والتوضيح، وتظل المجموعتان تعملان معاً في وقت واحد، ويظل هنالك تأثير متبادل بين كل عامل وبين العوامل الأخرى في المجموعتين:

أ ـ المجموعة الأولى: وتمثل العوامل الذاتية في الإنسان، العوامل التي تولد معه وتنمو معه، وتتأثر بكل ما تتأثر به إمكاناته وطاقاته، تتأثر بالبيئة والمجتمع وأحداث الحياة. ويمكن أن نعدد فيها العوامل التالية:

أ. ١ ـ الوسع والطاقة: إنه الوسع الذي يهبه الله للإنسان، الوسع الذي تحدث عنه القرآن الكريم. إنه يشمل إمكاناته الذاتية، وقدراته، ومواهبه. إنه الوسع الذاتي الذي يولد مع الإنسان وينمو معه، ثمَّ تنضمُّ إليه إمكانات من الواقع. ويشمل هذا الوسع المواهب وطاقات الإبداع. هذه كلها تؤلف وسعاً واحداً يحاسبه الله عليه، ويكون مناط التكليف والمسئولية. هذا الوسع، بهذا التصور يؤثر في طبيعة ممارسة الإنسان وأعماله.

أ. ٢ ـ المعدن: إنه مجموعة السجايا والطبيعة والأخلاق التي تؤلف جزءاً من شخصية الإنسان. إنها السجايا الذاتية التي تولد وتنشأ معه. إنه المعدن الذي تحدث عنه الرسول ﷺ في حديثه الشريف:

«الناس معادن كمعادن الذهب والفضَّة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا. والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف».

(رواه مسلم)[١]

---

(١) صحيح مسلم : كتاب (٤٥) باب (٤٩). حديث (٢٦٣٨).

هذا المعدن يؤثر في عمل الإنسان، يؤثر في فكره وكلمته، وموقفه وسلوكه.

أ. ٣ ـ **الفطرة والإيمان**: إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها، كما سبق أن فصَّلنا في أبواب سابقة.

ب ـ **المجموعة الثانية**: وهي العوامل التي يكتسبها الإنسان في حياته، فتتولَّد فيه وتنمو معه، وتعمل وتؤثر. ويمكن أن نعدد منها العوامل التالية:

ب. ١ ـ **العلم بمنهاج الله والواقع**: ويمكن أن ينضم إليها سائر العلوم التي يكتسبها الإنسان.

ب. ٢ ـ **النيّة**: وقد سبق أن تحدثنا عنها.

ب. ٣ ـ **التصوّر الإيماني والفكر**: كما عرضناه سابقاً وكما ينمو مع الإنسان.

ب. ٤ ـ **الحالة النفسية وصياغتها**: كما عرضناها سابقاً، وكما تتولَّد مع الإنسان.

هذه العوامل كلها لا يمكن فصل بعضها عن بعض، ولا فصل مجموعة عن مجموعة. إنه يقوم بينها تأثير متبادل من ناحية، وكل عامل منها له تأثيره المباشر على ممارسة الإنسان. وتصبح هذه الممارسة ممارسة إيمانية إذا صاغ التوحيد والإيمان هذه العوامل كلَّها، وصاغ دورها وتأثيرها، ونظم العلاقة والتأثير المتبادل بينها. عندما يحتضن الإيمان والتوحيد هذه العوامل كلها، فيمدّها بالغذاء والريّ، ويرعى نموها، عندئذ ينطلق منها العمل الصالح، وتنطلق الممارسة الإيمانية، تحمل خصائصها الإيمانية.

٣ ـ اتجاهان لغرائز الانسان وطاقاته:

لا يوجد في الإنسان قوتان منفصلتان واحدة للخير وواحدة للشرِّ، يدور الصراع بينهما في داخل الإنسان أو خارجه. كلا! إن في الإنسان غرائز وسجايا وطبائع، أو سمِّها ما شئت، وضع الله كل واحدة منها في كيان الإنسان وبنائه لتؤدِّي مُهمَّة محدَّدة في الحياة الدنيا: الغريزة الجنسية، حبُّ الأبوين، حب المال، حبُّ سائر شهوات الدنيا، الخوف، وغير ذلك مما يحسُّ به الناس جميعاً في عواطفهم وفكرهم، وما يدفعهم إلى هذا السلوك أو ذاك.

وفي الفطرة السليمة، حيث يكون الإيمان والتوحيد أهم قواها وطاقاتها، تتوازن جميع الغرائز موازنة عادلة أمينة من ناحية، وتنطلق كل غريزة في اتجاهها الصحيح الذي خُلِقتْ لأجله، لتتعامل مع واقع الحياة وسننها، مع سنن الله في الحياة الدنيا بين ابتلاء وتمحيص ودفع وعطاء، لتحقّق غايتها ومهمَّتَها.

في هذه الحالة يظل التوحيد يروي هذه الغرائز والقوى ريّاً متعادلاً ويغذّيها غذاءً متوازناً، فتنمو كلها على قدر أمين عادل، لا تطغى واحدة منها لتتجاوز حدودها ومهمتها، ولا تضمر أُخرى لتجفَّ فتفقد دورها وميدانها. في هذه الحالة تعمل طاقات الإنسان وغرائزه كلها في صورة متوازنة عادلة أمينة.

هذه الحالة هي حالة الخير والصلاح، حالة البّر والتقوى، في أحسن صورها، وذروة عطائها، وجمال إحسانها. في هذه الحالة يعرف الإنسان أكرم معاني الإنسان، يعرف نفسه، يعرف ربَّه وخالقه ومولاه، يعرف دربه، يعرف السعادة الحقيقية في حياته الدنيا، يعرف أصدق علاقاته مع الناس.

في هذه الحالة يكون الإيمان والتوحيد نبعاً غنيّاً، وفيضاً ممتدّاً، وريّاً دائماً، حتى إنك لتلمس الإيمان في الكلمة والموقف والسلوك. في هذه الحالة يخشع الإنسان لله خشوعاً وإنابة وإسلاماً.

ويحافظ الإنسان على هذا الخير بمداومة الصلة مع الله، بالذكر الممتد كله، وكذلك بالعمل الصالح الممتد: ذكر لله ممتد، وعمل صالح ممتدٌّ في واقع الحياة.

فإذا انقطع من حياة الإنسان هذا الذكر، وإذا مال الإنسان إلى عمل فاسد طالح، مضت عليه سنّة الله في الحياة فتُنكَتُ نكتة سوداء على قلبه. فإذا لم يتب وتابع غيه توالت نكتة بعد نكتة، حتى يغشى الرانُ قلبَ الإنسان، ثمَّ يزيد حتى تتعطل فيه قوة السمع والإبصار وصدق الإدراك، فيقع في الكفر والشرك.

عندئذ ينقطع الريُّ العادل المتوازن والغذاء الصادق الأمين، فتنمو غريزة أو طاقة فيه نموّاً زائداً، وتضمر أُخرى. فتنمو الغريزة الجنسية مثلاً لتندفع في مجرى ضالٍّ فاسدٍ حتى يقع الإنسان في الفاحشة، وينغمس في شهوته انغماس إثم ومعصية تصادم الفطرة وتصادم سنن الله في الكون. وينمو حبُّ الوطن مثلاً ليصبح عصبية جاهلية

مؤذية مفسدة، لا تنسجم مع سلامة الفطرة وتوازنها، ثم تتحول إلى عدوان وظلم وفساد، ثم تلتهب الأرض حروباً ومجازر. وكلهم قد يدعون إلى السلام، وأبواب السلام أوصدتها شهوات طاغية وجاهليّة مستحكمة. وقد ينمو حبُّ الوالدين حتى يعلو على حب الله، فيصبح حبُّ الوالدين غير نابع من طاعة الله، غير منسجم مع الفطرة السليمة، مصادم للتوحيد والإيمان. فإذا هو عصبية جاهلية لا تنشر إلا فتنة وفساداً. وقس على ذلك سائر الغرائز والطبائع والسجايا والقوى.

في هذه الحـالة تنحرف هذه الطاقة أو تلك مندفعة في مجرى شرٍّ وفساد، حتى تتكون منها قوة للشرّ.

فقوة الشرِّ في الإنسان إذن هي انحراف هذه السجية أو تلك، هذه الغريزة أو تلك، هذه القوّة أو تلك، انحرافها في مجرى فاسد من الشرّ، بعد أن تنمو نمواً زائداً تفقد معه الموازنة الأمينة في كيان الإنسان وبنائه.

من هذا التصوّر نستطيع أن نفهم بصورة أكثر تناسقاً معنى الآية الكريمة:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾

(الشمس: ٧ ـ ١٠)

وكذلك حديث رسول الله ﷺ:

«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصرانه، كما تناتج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحسُّ من جدعاء؟» قالوا: يارسول الله، أفرأيت من يموت وهو صغير؟ «الله أعلم بما كانوا يعملون» (رواه البخاري ومسلم وأبو داود)[1]

﴿ونفس وما سوّاها﴾: أي خلقها سوية على الفطرة التي فطر عليها عباده كلهم، تحمل الإيمان والتوحيد، والغرائز والطاقات يوجهها التوحيد.

﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾: فأرشدها إلى النجدين لتكون مسئولية الإنسان أي النجدين يختار. وتؤكد الآيتان بعدها هذه المسئولية ونتائجها. **﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسَّاها﴾** هي مسئولية الإنسان أن يزكي نفسه ويسلك سبيل التقوى بعمله،

(١) البخاري في كتاب الجنائز والقدر والتفسير. ومسلم في كتاب القدر حديث (٢١٣٩) وأبو داود: كتاب السنة (٣٤). باب (١٨). حديث (٤٧١٤).

ولو سلك غير ذلك بالعمل غير الصالح فهي مسئوليته التي يحاسب عليها. والذكر والعمل الصالح هما سبيل تزكية النفس:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ (سبح : ١٤، ١٥)

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد : ٨ - ١٠)

ويظل الإنسان يجاهد في نفسه ليرقى درجات أعلى في التزكية، ولينال من رضاء الله. ويمضي هذا كله على قدر من الله غالب، ومشيئته ماضية، وحكمة ربّانية، وعلم منه سبحانه وتعالى يعطي منه ما يشاء لعباده.

٤ ـ خصائص الممارسة الايمانية والعمل الصالح :

أ ـ بداية الممارسة الإيمانية :

تبدأ الممارسة الإيمانيّة في حياة المؤمن من لحظة تلفظه بالشهادتين والإقرار بهما، ثم تمتد في حياته كلها حتى يواريه الموت، من خلال ابتلاء وتمحيص له في الحياة الدنيا حتى تقوم له الحجة أو عليه في الدار الآخرة يوم الحساب.

ب ـ النية :

تقوم الممارسة الإيمانية في حياة المؤمن على أساس النيّة الطاهرة المبرأة من الهوى والشهوات، وعلى أساس ردِّ الأُمور إلى منهاج الله ردّاً أميناً يقوم على الإيمان وصفائه، والعلم، والخبرة، والاختصاص والمسئولية ولقد سبق الحديث عنها في أكثر من موضع في هذا الكتاب.

جـ ـ الشمول :

تمتد الممارسة الإيمانية في شمولها لتضم حياة المؤمن وميادينه، وحياة الأُمة وميادينها، في جميع الظروف والأحوال، ومع جميع الناس من مؤمنين ومنافقين وكافرين.

د ـ البدء بالنية والشعائر والأذكار :

تبدأُ الممارسة الإيمانية بالنيّة والشعائر التعبدية مع المضي إلى جميع ميادين التكليف والمسئولية: من أُسرة وعائلة وأرحام، ومجتمع وأُمة، والإنسان عامة في الأرض.

هـ ـ العلم :

إن سلامة الممارسة الإيمانيّة تتطلب توافر العلم بمنهاج الله والواقع، وتتطلب من الأُمة والدعوة توفير التدريب الأمين على ممارسة منهاج الله في الواقع البشري، حتى ينطلق كل مؤمن في أداء دوره وأمانته مع نفسه وأُسرته وأرحامه، وتربية أبنائه، ورعاية زوجه، وحماية أمته، ودفع الخير إلى حياة الإنسان في الأرض، ومقاومة الفساد والإفساد والشر كله، والعدوان والطغيان. والإنسان بطبعه يحتاج إلى التدريب والإعداد.

و ـ النمو والتطور :

الممارسة الإيمانية جهد بشري، فإذا توافرت الشروط السابقة كلها أصبح هذا الجهد البشريّ قابلاً للنموّ والتطور، على نهج صالح وأهداف كريمة. وجميع خصائص الممارسة الإيمانيّة تدفع إلى نموِّ الجهد البشريّ وتطوره من خير إلى خير على نهج كريم. ولكننا نبرز هنا أربع خصائص لأهميتها المباشرة في النمو:

و. ١ ـ **الثوابت الإيمانية** : وجود ثوابت راسخة في حياة المؤمن وحياة أُمته من قواعد الإيمان والدين. وتمتدُّ هذه الثوابت في كل ميادين الحياة لتضع أُسس نمو الجهد البشريّ وتطوره.

و. ٢ ـ المداومة والاستمرار على الممارسة الإيمانية والعمل الصالح، وإن كان قليلاً:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل» (رواه مسلم)[١]

وفي رواية أُخرى لمسلم عن عائشة: «يأيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون. فإن الله لا يملّ حتى تملّوا. وإن أحبَّ الأعمال إلى الله ما دووم عليه وإن قلّ»[٢].

(١) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٦). باب فضيلة العمل الدائم (٣٠) حديث (٧٨٣/ ٢١٨).

(٢) نفس المصدر والكتاب والباب. حديث (٧٨٢/ ٢١٥).

و.٣ ـ الإتقان والإحسان : يرسّخان نهج الممارسة الإيمانية، ونهج النمو والتطور، والإحسان الذي كتبه الله على كل شيء هو أساس الإتقان، والعدل في الأمور كلها هو نهج الإحسان وسبيل النمو والتطور:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ..... ﴾ (النحل : ٩٠)

﴿..... وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة : ١٩٥)

وعن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليُحِدَّ أحدكم شفرته. وليرح ذبيحته» (رواه مسلم)[1]

والإحسان هو إتقان العمل على ما أمر به الله، وعلى نهج الإيمان والإسلام.

و. ٤ ـ المبادرة الذاتية : تحمل الممارسة الإيمانية حوافزها من الإيمان وصدق النية والإخلاص لله سبحانه وتعالى. وهذه كلُّها توفِّر **المبادرة الذاتيّة** مع طاقة كبيرة تحملها. والمبادرة الذاتية وطاقتها تدفع العمل الصالح لينمو ويتطور، على نهج كريم وخير واسع.

ز ـ الموازنة الإيمانية :

الموازنة العادلة الأمينة القائمة على ميزان رباني عادل أمين دقيق، ميزان منهاج الله، حتى يتجنّبَ المؤمن المغالاة من ناحية والعجز من ناحية أُخرى. والموازنة الأمينة تدفع النمو والتطور كذلك.

حـ ـ استيعاب الوسع :

تستوعب الممارسة الإيمانيّة وسع المؤمن وطاقته، حتى يحقق هذا الاستيعاب سائر خصائص الممارسة الإيمانية: الإحسان والإتقان، المداومة والاستمرار، النمو والتطور، المبادرة الذاتية، وحتى ينشأ التعاون بين المؤمنين.

ط ـ التعاون والجماعة :

إنها من الخصائص الهامة في الممارسة الإيمانية، وتقوم متماسكة مع سائر

(١) صحيح مسلم:كتاب الصيد والذبائح (٣٤). باب (١١). حديث (١٩٥٥/٥٧).

الخصائص. ولا يكون التعاون إلا على البِّر والتقوى، ولا تقوم الجماعة إلا على الحق.

﴿ ... وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾
(المائدة : ٢)

وعن ابن عمر قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يأيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال: أُوصيكم بأصحابي ثمَّ الذين يلونهم ثمَّ الذين يلونهم ثمَّ يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يُسْتَحلف، ويَشهد الشاهد ولا يُستشهد، ألا لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة. من سرّته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن» (رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح غريب)[١]

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يد الله مع الجماعة».
(رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب)[٢]

قال أبو عيسى: وتفسير الجماعة عند أهل العلم هم أهل العلم والفقه والحديث. قال وسمعتُ الجارود بن معاذ يقول: سمعت عليَّ بن الحسن يقول: سألتُ عبدالله ابن المبارك من الجماعة؟ فقال: أبو بكر وعمر. قيل له: قد مات أبو بكر وعمر؟ قال: فلان وفلان. قيل له: قد مات فلان وفلان، فقال عبدالله بن المبارك: أبو حمزة السكريّ جماعة. قال أبو عيسى: أبو حمزة هو محمد بن ميمون، وكان شيخاً صالحاً. وإنما قال هذا في حياته عندنا[٣].

وإنما ذكرنا ذلك لنبين أن الجماعة ليست عدداً، ولا تجمعاً على ضلالة، أو جهل، أو باطل، أو عجز، أو ظلم. ولقد شرحنا بعض ذلك في كتاب الشورى وممارستها الإيمانية[٤]. ونوجز ذلك كله هنا بقولنا إن الأصل أن يكون المسلمون أمة واحدة. والجماعة فيها من يتبع الحق أو ما هو أقرب للحق. وليس التمييز في موقف فحسب،

(١) سنن الترمذي. الجامع الصحيح. كتاب الفتن (٣٤). باب (٧). حديث (٢١٦٥).
(٢) نفس المصدر والكتاب والباب. حديث (٢١٦٦).
(٣) الجامع الصحيح سنن الترمذي في شرح الحديث (٢١٦٧).
(٤) الشورى وممارستها الإيمانية للمؤلف. الباب الثالث الفصل الرابع. البند (٤). ص (١٨٦ - ١٩٣).

وإنما هو في النهج الذي ترسمه الجماعة ليعين على تحري الحق أو ما هو أقرب للحق.

ي - الإشراف والمراقبة الإيمانية والمتابعة:

وتبرز أهمية ذلك في دراسة العمل والممارسة على أُسس سليمة صادقة. فبغير الإشراف والمراقبة والمتابعة لا تتوافر أُسس الدراسة والتوجيه، ولا تتوافر الحقائق والمعلومات.

ك - النصيحة والتوجيه:

قاعدة أساسية حتى جعل رسول الله ﷺ الدين النصيحة في حديثه المشهور:

عن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «الدين النصيحة». قلنا لمن يارسول الله؟! قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

(رواه الخمسة)[1]

ل - التذكير والمحاسبة والتقدير:

وذلك لتوفير وقفة إيمانية يراجع بها المؤمن نفسه، ويدرس عمله ونهجه، ويقدر مواقفه وسلوكه، ليعرف مدى مطابقتها لمنهاج الله. وذلك ضمن مسئولياته واختصاصته وأمانته، وفي نطاق وسعه وطاقته وحدوده وكذلك يجب أن تقف الجماعة وقفة الإيمان والمحاسبة والتقويم وقفات دورية، وتقوم الأُمة كلها كذلك من خلال أجهزتها ومؤسساتها لمراجعة نشاطها وتقويمه.

م - دراسة الخطأ ومعالجته:

وذلك في المدرسة الإيمانية حيث تستفيد الأُمة والفرد من معالجة الأخطاء لتصح المسيرة، ويصدق النهج، وينمو العمل ويتطور من خير إلى خير، دون أن تدفع الدراسة هذه إلى خطأ أكبر أو إلى امتداد فيه.

ن - تجميع الخبرات يؤلف زادا ناميا:

تتميّز الممارسة الإيمانية بأنها تجمع الخبرات زاداً نامياً على النّهج الإيماني المعروض،

(١) صحيح البخاري. كتاب الإيمان (٢). صحيح مسلم. كتاب الإيمان (١). باب (٢٣). حديث (٩٥/٥٥). يراجع كتاب الشورى وممارستها الإيمانية عن النصيحة. الباب الثالث، الفصل الثاني. (ص: ١٣٩ - ١٤٩).

بين شورى صادقة ونصيحة واعية، ودراسة أمينة، وتقويم عادل، ومعالجة حكيمة، فتنتقل الخبرات من جيل إلى جيل في مدرسة التوحيد الممتدة في الأرض والزمن.

س - النهج والتخطيط:

تتميز الممارسة الإيمانيّة والعمل الصالح بجمع الجهود والطاقات المؤمنة على نهج إيمانيٍّ واعٍ، وتخطيط مدروس يقوم ذلك كله على أساس من منهاج الله والواقع. ويقتضي النهج والتخطيط صدق النيّة أولاً، ورسم الدرب، وتحديد الأهداف، وردّ ذلك كله إلى منهاج الله على ضوء الواقع الذي يُدرَس من خلال منهاج الله دراسة منهجية واعية. هذا النهج والتخطيط ينفي الارتجال وردود الفعل، ويغلق أبواب الظنون والتأويلات، ويوحّد النيّة والعزيمة، ويوحّد الدرب والمسيرة إلى أهداف جلية محددة. فتتوحد الجهود على صفاء وقوة وإيمان.

ع - الشورى الإيمانية:

تكون الشورى الإيمانية من أهم خصائص الممارسة الإيمانية. وهي صفة جامعة لكثير من الخصائص السابقة: من نصيحة ورأي وموازنة وإشراف وتقويم ومعالجة للخطأ وغير ذلك مما ذكرناه أعلاه.

وحين يمضي المؤمن في مصاحبة منهاج الله، قرآناً وسنة، صحبة منهجيّة، صحبة عُمْرٍ وحياة، فإنه يجد الخصائص التفصيلية للعمل الصالح، وللممارسة الإيمانية ابتداء من نجوى النفس إلى بذل الروح والمال في سبيل الله. في منهاج الله نجد أدق التفاصيل للممارسة الإيمانية، ونجد أوسع الشمول، مرتبطة كلها بالتوحيد والإيمان على نهج ربّانيٍّ معجز، مما لا نستطيع جمعه كله هنا[1].

وما هدفنا هنا إلا تقديم الإشارة، والتذكير بأهم الخصائص العامة، والتذكير بمنهاج الله، ليعكف المؤمنون عليه دراسة وتدبراً ووعياً، وإيماناً وتصديقاً، وعملاً وعلماً وممارسة.

(١) يراجع كتاب الشورى وممارستها الإيمانية ط٣ حيث تعالج معظم هذه القضايا بتفصيل أوسع مع الأدلة من الكتاب والسنة. ففيه فصول مستقلة عن الرأي، النصيحة، السمع والطاعة، البيعة، النية، الإختلاف، الموازنة، الإنسان بين الخطأ والصواب.

مع هذا العرض الموجز للممارسة الإيمانية نجد شدّة ارتباط كل نقطة بالتوحيد، حتى كَأنَّ كلَّ نقطة تنبع منه وترتوي من فيضه. ونجد كذلك شدة ارتباط كل نقطة بسائر النقط الأخرى، وارتباطها كلها بالمنهاج الرباني، بالتوحيد، بالإيمان.

إن التوحيد الحقَّ ليس مجرّد تصوُّر فكريٍّ، وتأمُّل من مقاعد الراحة والاسترخاء. إن التوحيد يبرز في صفائه ونقائه في ميدان الممارسة الإيمانية، في جميع ميادين الحياة. إنه مع المعاناة النفسية والفكرية والجسدية، إنه مع السعي والراحة، والسفر والإقامة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، والقوة والضعف، إنه مع الجهاد في سبيل الله، إنه مع الإنفاق على الرغم من الحاجة، إنه عمل يبتدىء بالنيّة في همسة ضمير ونجوى نفس، ويمتدُّ إلى بذل الروح في سبيل الله، كما ذكرنا قبل قليل.

وجميع هذه الأعمال تفقد بريقها وجمالها وعظمتها حين تفقد صلتها بالتوحيد. إن العمل هو نفسه: صدقة هنا وصدقة هناك: فهذه صدقة قليلة خرجت بنيّة صادقة، بارك الله فيها وتقبلها وضاعف أجرها، وتلك صدقة كبيرة خرجت لدنيا، فمحقها الله، ومانال صاحبها إلا وزراً وخسراناً. شتان بين عمل يصوغه التوحيد ويوجهه التوحيد، وعمل صاغته الشهوات ودفعه الهوى. الأول خير وصلاح وبركة في الدنيا والآخرة، والثاني شرّ وفساد في الدنيا وخسران في الدنيا والآخرة. وتمتدُّ هذه القاعدة إلى كل ميادين الحياة: السياسية والاجتماعية وغيرهما.

إن التوحيد هو قضية الإنسان الكبرى في كل زمان وكلِّ واقع، ولكن حاجتنا إليه في واقعنا اليوم أكثر من أي أمر آخر! لو تفحصنا واقعنا اليوم ورددنا أمورنا إلى منهاج الله، إلى إشراقة التوحيد وجمال الإيمان، لو فعلنا ذلك لهالنا الأمر، ولأدركنا شدة حاجتنا إلى التوحيد ليكون أساس كل خطوة.

كم من مظهر مُغرٍ، وزُخْرف جَذَّاب، وراية بَرّاقة جمعت الناسَ على ما زيَّنَتْه شياطينُ الإنس والجنِّ. وما صحا الناس على الفتنة التي وقعوا فيها إلا بعد عشرات السنين. وكان أيسر عليهم لو ردُّوا الأمر إلى قواعد التوحيد من أوله، فنجوا ووفَّروا على أنفسهم الجهد والوقت، وربحوا بدلاً من أن يخسروا، وانتصروا بدلاً من أن يُهزَموا.

إن معظم أسباب الخلاف والشقاق والتدابر في واقعنا اليوم تعود إلى انقطاع مدد التوحيد عن كثير من المواقف والآراء، والمناهج والسلوك. لقد أصبح الميزان لدى كثير من الناس يرتبط بصاحب العمل أو القول أو النهج. فإن كان القول لفلان قبلناه ولو كان مخالفاً لدين الله، وإن كان لفلان رفضناه ولو كان من صميم منهاج الله. هذا نموذج واضح في واقعنا وتاريخنا الحديث. وربما كانت الأمثلة أكثر في التاريخ الممتد وفي حياة الشعوب الأُخرى.

لقد أقام الناس لأنفسهم أوثاناً من أهوائهم، وأحزابهم، وسادتهم وأقربائهم، وعائلاتهم، وأوطانهم، ومصالحهم، حتى اختلطت الأُمور في زحمة الأوثان، وشوِّهت الصورة في صراع الأوثان وصراع عبيدها، وغابت أصوات الخير حين علاها ضجيج الأوثان والأتباع والقطعان، وزاد الظلم بين الناس حين غاب الميزان وفُقدت الموازنة.

وغاب كثير من الناس تحت تأثير الخدر والسكر الذي دفعَتْه الأوثان في العروق، حتى انطفأ الوعي في سكرة الأحلام، وغرور الأماني، وظلمة الشرك. فانطلق الناس يتلمسون الأعذار للباطل ويدعمونه ويقبلونه، واختلطت الموازين، حتى اعتاد الناس هذا السوء أو ذاك شيئاً فشيئاً، وعلى مراحل أو في دفقة مفاجئة.

لو أردت أن أُوجز جميع مشاكل واقعنا اليوم في جميع ميادين الحياة، لقلت إنها اضطراب التوحيد، واختلال التصور. إن حقيقة معركتنا اليوم هي التوحيد، هي دعوة القلوب إلى التوحيد بصفائه وصدقه، هي إعلان التوحيد والدعوة إليه، وانطلاق الجهود في الدعوة والتربية والتوجيه، وفي بناء أفضل الأساليب وأصدق المناهج لتثبيت الإيمان والتوحيد في القلوب، ولإعادة الفطرة إلى سلامتها وطهارتها، إلى تقواها، ليخنس فجورها، وإلى صفائها ليهدأ اضطرابها.

إن قضية التوحيد هي تاريخ الإنسان على الأرض منذ بعث الله للناس أول رسول يدعو إلى التوحيد. ويمضي تاريخ الإنسان يحمل هذه القضية العظيمة حتى لتجد تاريخ الإنسان في جوهره هو صراع بين التوحيد والشرك.

إنّ التوحيد هو قضية الإنسان على الأرض، إنها تاريخه، إنها محور صراعه إنها محور الرسالات كلها، ومهمة الأنبياء والرسل كلهم.

إن قضيتنا في فلسطين هي قضية التوحيد والإيمان. إنّ أي تصور سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي أو قانوني أو تاريخي لا ينبع من قضية التوحيد والإيمان، من قضية الإسلام، من قضية هذا الدين العظيم، دين الله، يكون تصوراً باطلاً. إن التوحيد، الإيمان، الإسلام، هو التصور الحقُّ الشامل لقضية فلسطين، ومن هذا التصور ينبع تصور الجوانب الأُخرى من مظاهر القضية.

وقضيتنا في أفغانستان هي قضية التوحيد. ولقد انطلقت القضية منذ بدايتها صراعاً بين توحيد وشرك، وبين إيمان وكفر. وقضيتنا في الفلبين، وفي الهند وكشمير، وفي أقطار أفريقيا الإسلامية، وأقطار آسيا الإسلامية، وفي الأقليات المسلمة في أوروبا وأمريكا، قضيتنا في جميع بقاع الأرض هي قضيّة واحدة لا ثاني لها، إنها قضية التوحيد.

وحين نتخلى عن قضية التوحيد فإننا خاسرون مهما رفعنا من شعارات، حتى لو كانت شعارات إسلامية تحمل كل الزخارف والأصباغ. إن هذه الزخارف والأصباغ والشعارات لا تقدم شيئاً عند الله ولا تؤخر، إنه الجوهر، إنه الحقيقة، الجوهر والحقيقة هما اللذان يزنان عند الله.

إن جميع قضايانا يجب أن تكون جزءاً من التوحيد والإيمان. إننا يجب أن نتقدم إلى العالم بهذه القضية، صادقين فيها مع الله، صادقين فيها مع أنفسنا، صادقين مع أهل الأرض والناس جميعاً. إن هذه القضية هي أساس علاقتنا مع الناس، هي أساس اللقاء والافتراق، هي أساس الدعوة والبلاغ. إن التوحيد هو أساس قوتنا، فما بال الكثيرين يستحون من إعلان دينهم، وإعلان تمسكهم بالتوحيد والعبودية لله، والولاء الخالص لله.

يحاول بعض المسلمين أن يدخل في مجاملات على حساب ولائه لله، وعبوديته لله، على حساب التوحيد الخالص وقواعده، والإيمان وأُسسه، والدين ومنهجه.

لابد من أن نؤكد قضية أساسية. إن قضية التوحيد يقف الإسلام منها موقفاً حاسمًا حازماً، لا مهادنة فيه ولا مواربة ولا مداراة. لابد من عرض التوحيد بكل جلائه ووضوحه عرضاً قرآنياً ربانياً. عندما يعرض القرآن الكريم قضية الكفر والإيمان تأتي

الآيات الكريمة جليّة حاسمة قاطعة. واستمع إلى قبسات من آيات الله تجلو القضية:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٩٨ ـ ١٠٢)

فصل حاسم، ومفاصلة حازمة بين الإيمان والكفر: **﴿اتقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾**. وكذلك: **﴿... إن تطيعوا فريقاً من الذين أُوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾**. وكذلك: **﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ...﴾**.

مواقف حاسمة يجب أن يقفها المؤمن، مواقف حاسمة مع أهل الشرك والكفر والنفاق، مواقف حاسمة في كل ما يتصل بالإيمان أو ينبع عنه، أو يُبنى عليه، ليظل الإيمان والتوحيد يصوغان للمؤمن رأيه وموقفه، وكلمته وخطوته.

لا مجال في دين الله للمساومة على العقيدة وما يرتبط به من سلوك ومواقف وديار وثروات.

أما بين المؤمنين أنفسهم، مع الأهل والأزواج والأولاد، مع الأرحام المؤمنين، فلا مجال هناك لمفاصلة في الموقف والكلمة والسلوك. فكلهم مؤمنون، يخضعون كلهم لمنهاج الله ويمارسونه في واقعهم، فهذا هو أساس الموازنة والتقدير. وإنما هي تعامل وتعاطف، أو نفور وخصومة، مما مضت به سنة الحياة مع الناس. فهنا تقوم المعاناة بين العواطف والمواقف، وبين المودة والحاجة. وكل ذلك في إطار الدين والإيمان، مما يدفع المؤمن ليوازن ويقارن، وليجاهد في نفسه. أيفعل هذا أو ذاك! فهنا حيث لا يقتضي الموقف مفاصلة بين إيمان وشرك، وإسلام وغير إسلام، هنا يأتي أمر الله على صيغة أخرى، تجمع بين عاطفة القربى وسلامة الموقف. هنا يأتي أمر الله: **﴿... فاتقوا الله ما استطعتم ...﴾**!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (التغابن : ١٤ ـ ١٦)

هذه الآيات من سورة التغابن تعرض موقفاً من مواقف الممارسة الإيمانية يختلف كليّة عن الموقف الذي تعرضه الآيات من سورة آل عمران. فالآيات من سورة آل عمران تنص: ﴿. . . **اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾. وأما في سورة التغابن: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم** . . .﴾. وواضح من الآيات أن سورة آل عمران تعرض موقفاً يرتبط بالإيمان والتوحيد، مما يتطلب مفاصلة حاسمة، لا ضعف فيها ولا لين. وأما في سورة التغابن فهو موقف بين المؤمنين أنفسهم، موقف يحمل عاطفة القربى والرحم، والأزواج والأولاد، والأموال والثروات. معاناة تنبع من طبيعة الإنسان التي خلقها الله وهو أعلم بها. فجاء أمر الله يراعي ذلك كله، ويطلب من المسلم قدر وسعه وطاقته، وكل موقف يقفه هو في حدود الإيمان.

وتذهب بعض كتب التفسير إلى أن الآية من سورة آل عمران منسوخة بالآية من سورة التغابن. وبعضهم ينكر النسخ ولكن يوفّق بين الآيتين بطريقة مثل: فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم.

ولكننا نرى أنه لا نسخ في الآية. ذلك لأن كل آية تعالج موقفاً يختلف عما تعالجه الآية الأخرى، وتعرض ميداناً للممارسة الإيمانية يختلف عن ميدان الآية الأخرى. ففي سورة آل عمران تبحث الآية الموقف مع أهل الكتاب، موقفاً يرسم العلاقة بين الإيمان والكفر. أما في سورة التغابن فتعرض الآيات أجواء الأسرة المسلمة، حيث تمرُّ مواقف يعاني فيها المؤمن بين أكثر من قوة تشده، وأكثر من عاطفة تدفعه، فتقوم التقوى عندئذ على قدر استطاعة المسلم في أن يوازن وأن يعفو ويصفح. إنها تتطلب من المؤمن أن يغالب شيئاً من طبيعته. إنها تطلب منه أن ينفق فيغالب ما في النفس من شحٍّ، وتطلب منه أن يعفو حين يجد في نفسه العفوَ قاسياً عليها. وقدرة الناس

تتفاوت في هذه الميادين: ميادين كظم الغيظ، والعفو، والصفح، والمغفرة، والصبر، وكثير غير ذلك.

ولما تغيّر الموقف تغيّر التوجيه وتغيّرت التكاليف. وبمثل هذه الرحمة الربّانية يمضي توجيه منهاج الله للمؤمنين في ممارساتهم الإيمانية، في جميع ميادين الحياة، توجيهاً نابعاً من التوحيد، متصلاً به، لا ينفصل عنه أبداً.

الخاتمة

يجابه المسلمون اليوم، في كل قطر من أقطارهم، أخطاراً حقيقية تهدد وجودهم، وتهدِّد مستقبلهم. ويجابهون عدواناً بعد عدوان، وظلمـاً بعد ظلم، تلتقي فيه أطماع الدول المعتدية في الأرض كلها.

ويقف المسلمون أمام هذا كله في حيرة وارتباك، يبذلون ما يستطيعون لدفع الخطر والعـدوان. وفي وقفتهم هنـا أو هناك ردود فعل وارتجال أكثر مما فيها نهج وتخطيط ووعي. وفيها افتراق وشتات أكثر مما فيها تقارب ولقاء.

ومـع مضـيّ السنـين حتى اليوم، ومـع الجهد والبذل، نجد أن الخطر يشتد، والدماء تنزف، والعدوان يكشر عن أنيابه في عدوان صريح وظلم مذهل.

وقد يحسب بعضهم أن الله سبحانه وتعالى أعطى للكافرين والمشركين، ولأهل الكتاب عدداً ونفيراً، ومالاً كثيراً، وقوة وعدة، حتى استطاعوا أن يغلوبنا. إن هذه الصورة غير دقيقة ولا هي أمينة. فإن الله سبحانه وتعالى أعطى المسلمين في الأرض أوسـع عطاء: أعطاهم العدد الكبير حتى زاد عددهم عن ألف مليون. وأعطاهم الموقع الوسط الذي يتنافس عليه جبابرة الأرض كلهم عبر التاريخ، وأعطاهم أغنى الثـروات والكنـوز في باطن الأرض وظاهرها. أعطاهم كل هذا حتى لم يعد عذر للمسلمين في تقصير وعجز. وأعطاهم أعظم عقيدة لدى الإنسان وأصدقها.

إلا أنه الجهد المبذول والجهاد المطلوب، فذلك هو موضع العجز والتقصير. فما كان للأعـداء من شيء يمتـازون به إلا أنهم أخـرجـوا الكنـوز من الأرض وسخـروها لمصلحتهم، وجـابـوا الآفاق واكتشفوا عالماً بعد عالم، ونهضوا إلى الأرض والأجواء يشقّون فيها سبل التقدم المادّي.

وسنة الله في الكون جعلت مصادر الكون مفتوحة للإنسان، مفتوحة لكل من يبذل ويعاني ويجاهد. لا ينحصر عطاء الله ونعمته على فئة دون فئة. وإنما هي محصورة فيمن ينهض ويبذل ويجاهد، فيمن يسعى السعي الصادق:

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾. (الإسراء : ٢٠)

وأمام هذه الأخطار والأهوال نجد أن من واجبنا أن نقرر الحقيقة الهامة، وهي أن التوحيد الصادق إيماناً وتصوراً، وفكراً وعاطفة، وعلماً وزاداً، وممارسة في واقع الحياة، هذا التوحيد هو مفتاح كل سبيل للنجاة، وأساس كل خطة ونهج، وسعي وجهاد.

قبل أن يصدق التوحيد في القلوب وفي واقع حياة المسلمين، فستظل كثير من الجهود ضائعة، وكثير من السعي غير مثمر.

ففي صدق التوحيد، حين يراه الله سبحانه وتعالى في القلوب وفي العمل، أمل برحمة الله، ورجاء بنصره، وفيه أيضاً نور يشق الظلمات ويهدي إلى صراط مستقيم، وفيه جمع لقوى متناثرة، وحشد لعدّة ورجال.

في واقع المسلمين اليوم اضطراب في تصور التوحيد، اضطراب يبتدىء من حيرة وشك، ويمتدُّ حتى تعجَّ به الفلسفة. وبين هذا وذاك ممارسات خاطئة في واقع المسلمين.

لقد عرضنا في أحد الفصول من هذا الكتاب نماذج الانحراف عن التوحيد، حتى يتيسَّر للقارىء الكريم أن يستعرض ما يمر به المسلمون اليوم، فيقيس حاضراً على ماض، ويردَّ ذلك كله إلى منهاج الله، ليميز الحقَّ من الباطل.

وإذا كان التوحيد، كما نفهمه من كتاب الله وسنة رسوله، هو مفتاح الحلول لمشكلاتنا وقضايانا، وهو باب النجاة من الأخطار والأهوال التي أحدقت بنا، فلابدّ إذن من أن نختم بحثنا هذا بموجز نحدد فيه أهم الأُسس التي يجب أن ننطلق بها في جميع ميادين حياتنا، وخاصة في ميادين البناء والتربية، وميادين الإعداد والتكوين. ومع كل أساس نذكره نستطيع أن نستنتج مدى تقصيرنا في تحقيقه في واقعنا اليوم، ومدى انتشار هذا المرض أو ذاك، حتى تنجلي عيوبنا للمؤمنين الصادقين الذين يريدون حقّاً علاج الأمراض. ونورد أدناه أهم هذه الأُسس التي سبق عرضها في بحثنا هذا، والتي نعيدها ونكررها لأهميتها:

١ ـ التوحيد في جلال الألوهية والربوبية:

إن استيعاب معنى الأُلوهية والربوبية وخصائصها استيعاباً ينبع من منهاج الله قرآناً وسنة، ويرتبط مع الفطرة إيماناً وتصديقاً، أمر ضروري حتى تُشرق معاني التوحيد في القلوب، وحتى تخبت النفوس لله الواحد الأحد، رب العالمين، رب العرش العظيم،

وحتى يخشع الإنسان إيماناً وتصديقاً، إيماناً يجمع أسماء الله الحسنى وصفاته في صورة متكاملة مترابطة متناسقة، وحتى ترى القلوب المؤمنة أن الله هو وحده الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى، فتنتفي عنه صفات المخلوق، ويخلص إيمان الإنسان من التناقض والاضطراب.

٢ ـ عبودية الانسان لله رب العالمين:

لابدّ من أن يدرك الإنسان أنه عبد لله، عبد مخلوق، عبد له صفات المخلوق الذي يُسْأَلُ ويُحَاسبُ بين يدي خالقه وربّه ومولاه. وليست له صفات الخالق أبداً. لابُدَّ من أن يدرك الإنسان هذا حتى يعرف حدوده ويخف كبره وغروره، وينتهي عن التمادي في تساؤل متناقض، وتأمل تائه غير منضبط. فيعرف الإنسان من ذلك حقيقة علاقته مع الله رب السموات والأرض، رب كل شيء.

٣ ـ الولاء الخالص لله رب العالمين:

من الأساسين السابقين تتضح العلاقة بين العبد وخالقه وربه، تتضح أنها علاقة عبودية الإنسان لله، عبودية ترتبط بولاء خالص صادق صاف، ولاء لا يعلوه ولاء آخر أبداً. إنه ولاء الإنسان لله، ولاء تدفعه الفطرة التي فطر الله الناسَ عليها، ولاء ينشأ عنه، وينبع منه، ويرتبط به، كل ولاء يقيمه الإنسان في حياته الدنيا مع رحم، أو مؤمن، أو جوار، أو أخوة في الله، أو رفقة، ولاء يرتبط به وينبع منه ولاء المؤمنين بعضهم ببعض، وتنبع منه روابط المؤمنين كلها في حياتهم الدنيا. وينشأ عن هذا الولاء الأول، الولاء الخالص لله، أمور أساسية:

أ ـ النية الخالصة لله مع كل عمل يقوم به المؤمن، نيّة واعية ممتدة.

ب ـ الحبُّ الأكبر لله ولرسوله، لا يعلوه حبٌّ آخر أبداً، وإنما ينشأ عنه وينبع منه ويرتبط به.

جـ ـ الخشية والرجاء والدعاء والتضرع، كلُّ ذلك يتوجه به الإنسان لربه خالقه، لله رب العالمين.

د ـ السمع والطاعة لله ولرسوله أمران هامان ينشآن عن صدق الولاء لله، وصدق النية، وصدق الحب الأكبر لله ولرسوله.

٤ ـ العهد مع الله :

إنه من أُسس التوحيد ومن قواعد الإيمان أن يتذكر الإنسان عهده مع الله، عهده الـذي امتد في تاريخ الإنسان كله موثَّقاً، امتد مع الأمم والشعوب، ومع الأنبياء والرسل. إنه العهد الذي ينبع من التوحيد ويمضـي معه في حياة الإنسان، مع كلِّ العصور والأجيال.

هذا العهـد غفل عنه المسلمون في عصور طويلة، وانقطعت صلة عهودهم في الدنيا معه. لذلك كان لابد من إعادة صورته إلى القلوب، وإعادة مهمته في الحياة.

من هذا العهد مع الله يجب أن ينشأ وينبع كل عهد في حياة الإنسان، ويرتبط به.

٥ ـ الشهادتـان :

إن الشهـادتين هما التعبير الجلـيّ عن العناصر التي سبق ذكرها، تحملان معها خلاصة الصدق والنية والولاء والحب، والخشية والرجاء والسمع والطاعة لله ورسوله والعهد مع الله. إنهما تحملان الصورة الجلية لإقرار الإنسان بعبوديته لله رب العالمين، وإقراره بالتوحيد.

٦ ـ المنهاج الرباني :

فإذا استقرَّ الإيمان والتوحيد في قلب الإنسان مع كل عناصره السابقة، يصبح بعد ذلك الواجب الأوّل على الإنسان أن يعرف التكاليف التي أمره الله بها، والنهج الذي رسمه له، والسبيل الذي يسَّره. ولا يتحقق له ذلك إلا بدراسة المنهاج الرباني وتدبره بعنـاصره الثـلاثة: القرآن والسنة واللغة العربية. ثلاثة عناصر لا تفترق أبداً. ثم تصبح هذه الدراسة منهج حياة وصحبة عمر لا تتوقف. وتمضـي على نهج مدروس وخطة واعية، تقوم على فهم للواقع الذي يعيش فيه، الواقع الذي يفهمه من خلال منهاج الله.

٧ ـ الممارسة الايمانية :

تقوم الممارسة الإيمانية بعد ذلك على أساس من الإيمان والتوحيد، وعلى أساس من العلم والدراسة والتدبر، لتحمل معها خصائصها الإيمانية في الواقع البشريّ. هذه

الممارسة الإيمانية هي التي يسميها القرآن الكريم: «**العمل الصالح**». والتدريب على هذه الممارسة الإيمانية (**العمل الصالح**) يصبح واجب البيت والمعهد والدعوة الإسلامية وسائر المؤسسات الإيمانية، على النهج الذي عرضناه في أكثر من كتاب من كتب الدعوة، نهج يحمل المرونة ليسهل تطبيقه مع كل واقع.

وتمضي حياة الإنسان على درب مشرق بالإيمان، وعلى ابتلاء وتمحيص حتى يلقى الله بإيمانه وعمله، عسى أن يرحمه الله فيدخله جنته برحمته فضلاً منه سبحانه وتعالى.

فإذا اجتمعت هذه العناصر السبعة كلها في حياة المسلمين، تتوافر عندئذ أسباب النصر ومراقي العزّة، وتتفتح بإذن الله أبواب النجاح، وتمتد سبيل الفوز. عندئذ يستطيع المؤمنون في الأرض أن يجابهوا الأخطار بقوة حقيقية، بقوة من عند الله رب العالمين، حتى يتنزّل النصر من عنده، لا إله إلا هو، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

بهذا التوحيد والإيمان تتفتح أبواب فلسطين للمؤمنين، ويتنزّل النصر في أفغانستان والفلبين وآسيا وأفريقيا.

بهذا التوحيد والإيمان تلتقي القلوب المتنافرة، وتتشابك في ود وإخاء كل السواعد المتصارعة، وتنهض أمة الإسلام في الأرض، لتفي بعهدها مع الله، فينجز الله وعده لها.

والحمد لله رب العالمين

فهرس الكتاب

الباب الأول

التوحيد هو الحقيقة الكبرى في الكون :
أسسه ومظاهر الانحراف عنه

الباب الثاني

الإيمان والفطرة وعوامل حمايتهما

الباب الثالث

بين قضاء الله وقدره وبين مسئولية الإنسان

كتب للمؤلف

■ دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية ـ الطبعة الخامسة.
■ الشورى وممارستها الإيمانية ـ الطبعة الثالثة.
■ الشورى لا الديمقراطية ـ الطبعة الثانية.
■ لقاء المؤمنين ـ الجزء الأول ـ الطبعة الرابعة.
■ لقاء المؤمنين الجزء الثاني ـ الطبعة الثانية.
■ منهج المؤمن بين العلم والتطبيق ـ الطبعة الثانية.
■ التوحيد وواقعنا المعاصر ـ الطبعة الأولى.
■ العهد والبيعة وواقعنا المعاصر ـ الطبعة الأولى.
■ إلى النهج والممارسة الإيمانية ـ الطبعة الثالثة.

■ الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته ـ الطبعة الثانية.
■ الحداثة في منظور إيماني ـ الطبعة الثالثة.

■ ديوان الأرض المباركة ـ الطبعة الخامسة.
■ ديوان موكب النور ـ الطبعة الثالثة.
■ ديوان جراح على الدرب ـ الطبعة الثانية.
■ ملحمة الغُرَباء ـ الطبعة الثانية.
■ ملحمة القسطنطينية (فتحان) ـ الطبعة الأولى.
■ ملحمة الجهاد الأفغاني ـ الطبعة الأولى.
■ ملحمة فلسطين ـ الطبعة الثانية.

■ على أبواب القدس ـ الطبعة الأولى.

■ دراسة انتشار الموجات الالكترومغناطيسية المتوسطة (باللغة الإنجليزية) ـ الطبعة الأولى.

كتب تحت الطبع

■ ملحمة على أبواب القدس.

فسح وزارة الاعلام
رقم ٦٠٩٧/ م
وتاريخ ٢٧/٨/١٤١٠هـ
الرياض ـ المملكة العربية السعودية



دار النحوي للنشر والتوزيع
ت : ٤٠١٠٢٥٧ ـ ص. ب: ١٨٩١ الرياض ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية